الكتاب: جامع السعادات
المؤلف: محمد مهدي النراقي
الجزء: ٢
الوفاة: ١٢٠٩
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق: تحقيق وتعليق : السيد محمد كلانتر / تقديم : الشيخ محمد رضا المظفر
الطبعة: الرابعة
سنة الطبع:
المطبعة: مطبعة النعمان – النجف الأشرف
الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر
ردمك:
ملاحظات:

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفى ١٢٠٩ ه

الجزء الثاني

حققه وعلق عليه

العلامة السيد محمد كلانتر

عميد جامعة النجف الدينية

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الرابعة

المقام الثالث

فيما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج

الشره – فوائد الجوع – الشهوة الجنسية – خمود الشهوة – العفة – الاعتدال في الشهوة – حب الدنيا – لا بد للمؤمن من مكسب – الدنيا المذمومة هي الهوى – ذم الدنيا وإنها عدوة الله والانسان – خسائس صفات الدنيا – تشبيهات الدنيا وأهلها – عاقبة حب الدنيا وبغضها – الجمع بين ذم المال ومدحه – حب المال – ذم المال – غوائل المال وفوائده – الأمور المنجية من غوائل المال – الزهد – مدح الزهد – اعتبارات الزهد ودرجاته – الزهد الحقيقي – ذم الغنى – الفقر – اختلاف أحوال الفقراء – مراتب الفقر ومدحه – الموازنة بين الفقر والغنى – ما ينبغي للفقير – وظيفة الفقراء – موارد قبول العطاء وردها – لا يجوز السؤال من غير حاجة – الحرص وذمة – القناعة – علاج الحرص – الطمع وذمة – الاستغناء عن الناس – البخل – ذم البخل – السخاء – معرفة ما يجب أن يبذل – الإيثار – علاج البخل – الزكاة – سر وجوب الزكاة وفضيلة سائر الإنفاقات – الحث على التعجيل في الاعطاء – فضيلة إعلان الصدقة الواجبة – ذم المن والأذى في الصدقة – ما ينبغي للمعطى – ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة – زكاة الأبدان – الخمس – الإنفاق على الأهل والعيال – ما ينبغي في الإنفاق على العيال – صدقة التطوع – فضيلة الأسرار في الصدقة المندوبة – الهدية – الضيافة – ما ينبغي أن يقصد في الضيافة – آداب الضيافة – الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ – القرض – إنظار المعسر والتحليل – بذل الكسوة والسكنى ونحوهما – ما يبذل لوقاية العرض والنفس – ما ينفق في المنافع العامة – الفرق بين الإنفاق والبر والمعروف – طلب الحرام – عزة تحصيل الحلال – أنواع الأموال. الفرق بين الرشوة والهدية – الورع عن الحرام – مدح الورع – مداخل الحلال – درجات الورع – الغدر – أنواع الفجور – الخوض في الباطل – التكلم بما لا يعني – حد التكلم بما لا يعني – أسباب الخوض فيما لا يعني – الصمت.

فنقول: أما جنسا رذائلها (١) فأحدهما:
الشره
وهو إطاعة شهوة البطن والفرج، وشدة الحرص على الأكل والجماع، وربما فسر باتباع القوة الشهوية في كل ما تدعو إليه: من شهوة البطن والفرج وحب المال، وغير ذلك، ليكون أعم من سائر رذائل قوة الشهوة، وتتحقق جنسيته، وعلى الأول يكون بعض رذائلها كحب الدنيا المتعلق بها أعم منه، إلا أن القوم لما فسروه بالأول فنحن اتبعناهم، إذ الأمر في مثله هين.
وبالجملة: رذيلة الشره من طرف الإفراط ولا ريب في كونه أعظم المهلكات لابن آدم، ولذا قال رسول الله (ص): " من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى "، والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. وقال (ص): " ويل للناس من القبقبين!، فقيل: وما هما يا رسول الله؟! قال: الحلق والفرج ". وقال (ص): " أكثر ما يلج به أمتي النار الأجوفان: البطن والفرج ". وقال (ص): " ثلاث أخافهن على أمتي من بعدي: الضلالة بعد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج ".
ويدل على ذم (الأول) - أعني شهوة البطن والحرص على الأكل والشرب - قوله (ص): " ما ملأ ابن آدم وعاءا شرا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ". وقال (ص): " لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء ". وقال (ص): " أفضلكم منزلة عند الله أطولكم جوعا وتفكرا، وأبغضكم إلى الله تعالى كل نؤوم أكول شروب " وقال (ص): " المؤمن يأكل في معاء واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء "، أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكله المؤمن أو تكون شهوته سبعة أمثال شهوته، فالمعاء كناية عن الشهوة. وقال (ص): " إن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة ". وقال (ص) " بئس العون على الدين قلب نخيب وبطن رغيب

----
(١) أي القوة الشهوية.

ونعظ شديد " (٢) وقال (ص): " أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا ". وقال (ص): " لا يدخل ملكوت السماوات من ملأ بطنه ". وفي التوراة: " إن الله ليبغض الحبر السمين "، لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل. وفي بعض الآثار: " إن الله يبغض القارئ السمين ". وقال لقمان لابنه: " يا بني! إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة ". وقال الباقر (ع): " إذا شبع البطن طغى ". وقال عليه السلام: " ما من شئ أبغض إلى الله عز وجل من بطن مملوء ". وقال الصادق عليه السلام: " إن البطن ليطغي من أكلة، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا خف بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله إذا امتلأ بطنه ". وقال (ص): " ليس لابن آدم بد من أكلة يقيم بها صلبه، فإذا أكل أحدكم طعاما، فليجعل ثلث بطنه للطعام، وثلث بطنه للشراب، وثلثه للنفس، ولا تسمنوا تسمن الخنازير للذبح ". وقال (ع) " ما من شئ أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل، وهي مورثة شيئين: (قسوة القلب، و (هيجان) الشهوة. والجوع أدام للمؤمن، وغذاء للروح، وطعام للقلب، وصحة للبدن ".

والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، ولا ريب في أن أكثر الأمراض والأسقام تترتب على كثرة الأكل. قال الصادق عليه السلام: " كل داء من التخمة إلا الحمى فإنها ترد ورودا ". وقال عليه السلام: " الأكل على الشبع يورث البرص ". وكفى لشهوة البطن ذما أنها صارت منشأ لإخراج آدم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها، فبدت لهما سوآتهما.

والبطن منبت الأدواء والآفات وينبوع الشهوات، إذ تتبعها شهوة الفرج وشدة السبق إلى المنكوحات، وتتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في الجاه والمال، ليتوسل بهما إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ويتبع ذلك أنواع الرعونات، وضروب المحاسدات والمنافسات، وتتولد من ذلك

---

(٢) صححنا الحديث على نسخ الوسائل المصححة في كتاب الأطعمة، والوافي - ١١: ٦٦ - وكذا ذكره في مجمع البحرين مادة (نخب)، والنخيب: الجبان الذي لا فؤاد له. والرغيب: الواسع.

آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والعجب والكبر، ويداعى ذلك إلى الحقد والعداوة والبغضاء، ويفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد من بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع، وضيق مجاري الشيطان، لم يسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجر به إلى الانهماك في الدنيا والانغمار فيما يفضيه إلى الهلاك والردى، ولذا ورد في فضيلة الجوع والصبر عليه ما ورد من الأخبار، قال رسول الله (ص): " جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش ". وقال (ص): " أفضل الناس من قل مطعمه وضحكه ورضي بما يستر عورته ". وقال (ص) " سيد الأعمال الجوع، وذل النفس لباس الصوف " وقال (ص): " اشربوا وكلوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة ". وقال (ص): " قلة الطعام هي العبادة ". وقال (ص) " إن الله يباهي الملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا، يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما، اشهدوا يا ملائكتي: ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة ". وقال (ص): " أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من المال جوعه وعطشه حزنه في الدنيا ". وقال عيسى عليه السلام: " أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل ". وقالت بعض زوجاته (ص): " إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعا، وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي، وأقول: نفسي لك الفداء! لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع، فيقول: إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني استحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم، فأصبر أياما يسيرة أحب إلي من أن ينقص بي حظي غدا في الآخرة، وما من شئ أحب إلي من اللحوق بأصحابي وإخواني ". وروي: " أنه جاءت فاطمة عليها السلام ومعها كسيرة من خبز، فدفعتها إلى النبي (ص) فقال: ما هذه الكسيرة؟ قالت: قرص خبزته للحسن والحسين عليهما السلام جئتك

منه بهذه الكسيرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث " (٣).

فوائد الجوع

ثم للجوع فوائد: هي صفاء القب ورقته، واتقاد الذهن وحدته، والالتذاذ بالمناجاة والطاعة، والابتهاج بالذكر والعبادة، وكسر شهوات المعاصي المستولية بالشبع، دفع النوم الذي يضيع العمر ويكل الطبع ويفوت القيام التهجد، والتمكن من الإيثار والتصديق بالزائد، وخفة المؤنة الموجبة للفراغ عن الاهتمام بالتحصيل والإعداد، وصحة البدن ودفع الأمراض إذ المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء، وورد: " كلوا في بعض بطونكم تصحوا "، وأضداد هذه الفوائد من المفاسد يترتب على الشبع.

ثم علاج الشره بالأكل والشرب: أن يتذكر الأخبار الواردة في ذمه، وينبه نفسه على رذالة المأكولات وخساستها، وعلى خسة الشركاء من الحيوانات، ويتأمل في المفاسد المترتبة على الولوع به: من الذلة، والمهانة وسقوط الحشمة والمهابة، وفتور الفطنة، وظهور البلادة، وحدوث العلل والأمراض الكثيرة، وبعد ذلك يحافظ نفسه عن الإفراط في الأكل ولو بالتكلف حتى يصير الاعتدال فيه عادة.

الشهوة الجنسية

(وأما الثاني) - أعني طاعة شهوة الفرج والافراط في الوقاع - فلا ريب في أنه يقهر العقل حتى يجعل الإنسان مقصور الهم على التمتع بالنسوان والجواري، فيحرم من سلوك طريق الآخرة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش وربما انتهت هذه الشهوة بمن غلب وهمه على عقله إلى العشق البهيمي الذي ينشأ من استيلاء الشهوة، فيسخر الوهم العقل لخدمة الشهوة، وقد خلق العقل ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة. وهذا مرض قلوب فارغة خلت عن محبة الله وعن الهمم العالية.

ويجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة الفكر والنظر، وإذا استحكم عسر دفعه، وكذلك حب باطل من الجاه والمال والعقار والأولاد. فمثل من يكسره في أول انبعاثه مثل من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب

----

(٣) صححنا الحديث على ما في سفينة البحار - ١: ١٩٥ -.

ليدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها، ومثل من يعالجه بعد استحكامه مثل من يترك الدابة حتى تدخل وتتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها، وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر. فليكن الاحتراز والاحتياط في بدايات الأمور، إذ في أواخرها لا تقبل العلاج إلا بجهد شديد يكاد يوازي نزع الروح.

وربما انتهى إفراط هذه الشهوة بطائفة إلى أن يتناولوا ما يقويها ليستكثروا من الجماع، ومثلهم كمثل من بلي بسباع ضارية تغفل عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها في هذا الوقت ثم يشتغل بعلاجها وإصلاحها. والتجربة شاهدة بأن من ينقاد لهذه الشهوة ويسعى في تكثير ما يهيجها من النسوان وتجديدهن والتخيل والنظر وتناول الأغذية والأدوية المحركة لها يكون ضعيف البدن سقيم الجسم قصير العمر، وقد ينجر إفراطها إلى سقوط القوة اختلال القوى الدماغية وفساد العقل - كما يرهن عليه في الكتب الطبية -. والوقاع أضر الأشياء بالدماغ، إذ جل المواد المنوية يجلب منه، ولذا شبه الغزالي هذه الشهوة بالعامل الظالم الذي لو أطلقه السلطان ولم يمنعه من ظلمه أخذ أموال الرعية على التدريج بأسرها. وابتلاهم بالفقر والفاقة، فأهلكهم الجوع وعدم تمكنهم من تحصيل القوت، وكذا هذه القوة لو لم يقهرها سلطان العقل ولم يقمها على طريق الاعتدال صرفت جميع المواد الصالحة والأخلاط المحمودة التي اكتسبتها القوى الغاذية لبدل ما يتخلل من الأعضاء في مصارف نفسها وجعلها بأسرها منيا، وتبقى جميع الأعضاء بلا قوت، فتضعف ويدركها الفناء بسرعة. ولو كانت مطيعة للعقل، بحيث تقدم على ما يأمرها به وتنزجر عما ينهاها عنه، كانت كالعامل الذي يأخذ الخراج على طريق العدل والمروة، ويصرفه في مصارف المملكة من سد الثغور وإصلاح القناطر وخروج العساكر، وتبقى سائر أموال الرعية لأنفسهم، فيبقى لهم القوت وسائر ما يحتاجون إليه.

ولعظم آفة هذه الشهوة اقتضائها هلاك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم ترد إلى حد الاعتدال، ورد في ذمها ما ورد من الأخبار، وقال رسول الله (ص) في بعض دعواته: " اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري

وقلبي وشر منيي ". وروي: " أنه إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله ".
وورد في تفسير قوله تعالى:
" ومن شر غاسق إذا وقب " (٤).
أي: ومن شر الذكر إذا قام أو دخل. وقال (ص): " النساء حبائل الشيطان " وقال (ص): " ما بعث الله نبيا فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شئ أخوف عندي منهن (٥) وقال (ص) " اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء ".
وروي: " إن الشيطان قال لموسى (ع): لا تخل بامرأة لا تحل لك. فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها ".
وروي أيضا: " أن الشيطان قال: المرأة نصف جندي، وهي سهمي الذي أرمي فلا أخطئ، وهي موضع سري، وهي رسولي في حاجتي ". ولا ريب في أنه لولا هذه الشهوة لما كان للنساء تسلط على الرجال.
وقد ظهر بالعقل والنقل: أن الإفراط في هذه الشهوة وكثرة الطروقة والنزو على النسوان مذموم. ولا تغرنك كثرة نكاح رسول الله (ص) فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا، وكان استغراقه في حب الله بحيث يخشى احتراق قلبه والسراية منه إلى قالبه، فكان (ص) يكثر من النسوان ويشغل نفسه الشريفة بهن، وليبقى له نوع التفات إلى الدنيا، ولا يؤدي به كثرة الاستغراق إلى مفارقة الروح عن البدن، ولذا إذا غشيته كثرة الاستغراق وخاض في غمرات الحب والأنس، يضرب يده على فخذ عائشة ويقول (ص): " كلميني واشغليني يا حميراء! " وهي تشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه، لقصور طاقة قالبه عنه.
ثم لما كانت جبلته الأنس بالله، وكان أنسه بالخلق عارضا يتكلفه رفقا ببدنه، فإذا طالت مجالسته معهم لم يطق الصبر معهم وضاق صدره، فيقول: أرحنا يا بلال! "، حتى يعود إلى ما هو قرة عينه. فالضعيف إذا لاحظ

---

(٤) الفلق، الآية: ٣.
(٥) في إحياء العلوم - ٣: ٨٦ - إن هذا الكلام من قول سعيد بن المسيب لا من كلام النبي - (ص).

أحواله فهو معذور، لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله (٦).
ثم علاج إفراط هذه الشهوة - بعد تذكر مفاسدها المذكورة - كسرها بالجوع، وسد الطرق المؤدية إليها: من التخيل والنظر والتكلم والخلوة، فإن أقوى الأسباب المهيجة لها هو النظر والخلوة، ولذا قال الله تعالى: " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم " (٧).
وقال النبي (ص): " النظرة سهم مسموم ممن سهام إبليس، فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه ". وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: " لكل عضو من أعضاء ابن آدم حظ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ". وقال (ص): " لا تدخلوا على المغيبات - أي التي غاب عنها زوجها - فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم ". وقال عيسى بن مريم (ع): " إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة " وقيل ليحيى بن زكريا: ما بدء الزنا؟ قال: " النظرة والتمني ". وقال داود (ع) لابنه: " يا بني! امش خلف الأسد (و) (٨) الأسود ولا تمش خلف المرأة ". وقال إبليس: " النظرة قوسي وسهمي الذي لا أخطئ به ".
ولكون النظر مهيجا للشهوة، حرم في الشريعة نظر كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، وكذا حرم استماع كل منهما لكلام الآخر، إلا مع الضرورة وعموم الحاجة، وكذا حرم نظر الرجال إلى المرد من الصبيان إذا كان مورثا للفتنة، ولذا كان كبراء الأخيار وعظماء الأبرار في الأعصار والأمصار محترزين عن النظر إلى وجوه الصبيان، حتى قال بعضهم: " ما أنا بأخوف على الشباب الناسك من سبع ضار كخوفي عليه من غلام أمرد يجلس إليه ".
ثم إن لم تنقمع الشهوة بالجوع والصوم وحفظ النظر، فينبغي كسرها

---

(٦) هذا الكلام كله عن تعليل كثرة طروق النبي - صلى الله عليه وآله - مأخوذ من كلام الغزالي في أحياء العلوم - ٣: ٨٧ -:
(٧) النور، الآية: ٣٠.
(٨) حرف (و) موجود في نسختنا الخطية وفي إحياء العلوم - ٣: ٨٧ -، ولكنه قد شطب عليها في النسخة المطبوعة.

بالنكاح، بشرط الاستطاعة والأمن من غوائله. وقال (ص): " معاشر
الشباب! عليكم بالباءة، فمن لم يستطع فعليه بالصوم، فإن الصوم له
رجاء ". وقال (ص): " إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان، فإذا
رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها ".
(وثانيهما) - أي ثاني جنسي رذائل قوة الشهوة -:
الخمود
وهو التفريط في كسب ضروري القوت، والفتور عما ينبغي من شهوة
النكاح، بحيث يؤدي إلى سقوط القوة وتضييع العيال وانقطاع النسل.
ولا ريب في كون ذلك مذموما غير مستحسن في الشرع، إذ تحصيل المعارف
الإلهية واكتساب الفضائل الخلقية والعبادات البدنية موقوف على قوة
البدن، فالتفريط في إيصال بدل ما يتحلل إلى البدن يوجب الحرمان عن
تحصيل السعادات وهو غاية الخسران. وكذا إهمال قوة شهوة النكاح يوجب
الحرمان عن الفوائد المترتبة عليها، فإن هذه القوة إنما سلطت على الإنسان
لبقاء النسل ودوام الوجود، ولأن يدرك لذته فيقيس بها لذات الآخرة،
فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى اللذات الجسمانية، كما أن ألم النار
أعظم الآلام الجسدانية، فالترغيب والترهيب يسوقان الخلق إلى سعاداتهم،
وليس ذلك إلا بلذة مدركة وألم محسوس مشابهين للذات والآلام الأخروية.
ولبقاء النسل فوائد: موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لبقاء
نوع الإنسان، وعدم قطعه السلسلة التي وصلت إليه من مبدأ النوع،
وطلب محبة رسول الله (ص) في تكثير من به مباهاته، وطلب التبرك بدعاء
الولد الصالح بعده، وطلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله،
كما استفاضت به الأخبار.
ومن فوائد النكاح: كسر التوقان والتحن من الشيطان، بغض البصر
وحفظ الفرج وقطع الوساوس وخطرات الشهوة من القلب، وإليه الإشارة
بقوله (ص): " من تزوج فقد أحرز نصف دينه ".
ومن فوائد النكاح: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل بشغل
الطبخ والفرش والكنس، وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة، فإن

الفراغ عن ذلك أعون شئ على تحصيل العلم والعمل، ولذا قال النبي (ص):
" ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة صالحة تعينه
على آخرته ".
ومنها: مجاهدة النفس ورياضتها بالسعي في حوائج الأهل والعيال،
والاجتهاد في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين، وفي تحصيل المال الحلال
لهم من المكاسب الطيبة، والقيام بتربية الأولاد، والصبر على أخلاق النساء
وكل ذلك من الفضائل العظيمة، ولذا قال رسول الله (ص): " الكاد في
نفقة عياله كالمجاهد في سبيل الله ". وقال (ص): " من حسنت صلاته،
وكثر عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين: كان معي في الجنة كهاتين ".
وقال (ص): " من الذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة ". وقال (ص):
" من كانت له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه
أوجب الله تعالى له الجنة ".
ولا ريب في أن الخمود عن الشهوة يلزمه الحرمان عن الفوائد المذكورة
فهو مرجوح.
ثم لما كان للنكاح آفات أيضا، كالاحتياج إلى المال وصعوبة تحصل
الحلال منه - لا سيما في أمثال زماننا - والعجز عن القيام بحقوق النسوان
والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، وتفرق الخاطر لأجل القيام
بتدبير المعيشة وتهيئة ما يحتاجون إليه، وتأدية ذلك غالبا إلى ما لا ينبغي من
الانغمار في الدنيا والغفلة عن الله - سبحانه - وعما خلق لأجله، فاللائق
أن يلاحظ في كل شخص أن الراجح في حقه ماذا؟ - بعد ملاحظة الفوائد
والمفاسد - فيأخذ به.

وصل

العفة

قد عرفت أن ضد الجنسين (العفة)، وهو انقياد قوة الشهوة للعقل
في الإقدام على ما يأمرها به من المأكل والمنكح كما وكيفا، والاجتناب عما
ينهاها عنه، وهو الاعتدال الممدوح عقلا وشرعا، وطرفاه من الإفراط
والتفريط مذمومان، فإن المطلوب في جميع الأخلاق والأحوال هو الوسط،

إذ خير الأمور أوسطها، وكلا طرفيها ذميم، فلا تظنن مما ورد في فضيلة الجوع أن الإفراط فيه ممدوح، فإن الأمر ليس كذلك، بل من أسرار حكمة الشريعة أن كلما يطلب الطبع فيه طرف الإفراط بالغ الشرع في المنع عنه على وجه يتوهم الجاهل منه أن المطلوب طرف التفريط، والعالم يدرك أن المقصود هو الوسط، فإن الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يطلب غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا، فيتقاومان ويحصل الاعتدال. ولما بلغ النبي (ص): في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم علم من حال بعضهم أنه يقوم الليل كله ويصوم الدهر كله، فنهى عنه. والأخبار الواردة في مدح العفة وفضيلتها كثيرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: " أفضل العبادة العفاف ". وقال الباقر (ع) " ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج ". وقال (ع): " ما عبد الله بشئ أفضل من عفة بطن وفرج ". وقال (ع): " أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج ". وفي معناها أخبار أخر.

وإذا عرفت هذا، فاعلم أن الاعتدال في الأكل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه أصلا، فإن المقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل الطعام يمنع العبادة، وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها. فالمقصود أن يأكل أكلا معتدلا بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر، ليكون متشبها بالملائكة المقدسين عن ثقل الطعام وألم الجوع، وإليه الإشارة بقوله تعالى.

" وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " (٩).

وهذا يختلف بالنسبة إلى الأشخاص والأحوال والأغذية، والمعيار فيه ألا يأكل طعاما حتى يشتهيه، ويرفع يده عنه وهو يشتهيه، وينبغي ألا يكون غرضه من الأكل التلذذ، بل حفظ القوة على تحصيل ما خلق لأجله، فيقتصر من أنواع الطعام على خبز البر في بعض الأوقات، وعلى خبز الشعير في بعضها، ولو ضم إليه الأدام فيكتفي بأدام واحد في بعض الأحيان، ولا يواظب على اللحم، ولا يتركه بالمرة، قال أمير المؤمنين (ع): " من ترك

---

(٩) الأعراف، الآية: ٣٠.

اللحم أربعين يوما ساء خلقه، ومن داوم عليه أربعين يوما قسى قلبه ".
الاعتدال في الشهوة
والاعتدال أن يكتفي في اليوم بليلته بأكلة واحدة في وقت السحر، بعد الفراغ عن التهجد أو بعد صلاة العشاء، أو بأكلتين: التغدي والتعشي - إن لم يقدر على الاكتفاء بمرة واحدة - وقد استفاضت أخبار أئمتنا الراشدين - عليهم السلام - بالحث على التعشي.
ثم للعرفاء ترغيبات على الجوع وتصريحات على كثرة فوائده، وعلى توقف كشف الأسرار الإلهية والوصول إلى المراتب العظيمة عليه، ولهم حكايات في إمكان الصبر عليه، وعلى عدم الأكل شهرا أو شهرين أو سنة، ونقلوا حصوله عن بعضهم، وهذا أمر وراء ما وردت به السنة وكلفت به عموم الأمة، فإن كان ممدوحا فإنما هو لقوم مخصوصين.
وأما الجماع، فالاعتدال فيه أن يقتصر فيه على ما لا ينقطع عنه النسل، ويحصل له التحصن، وتزول به خطرات الشهوة، ولا يؤدي إلى ضعف البدن والقوى.
وأما غير الجنسين من الأنواع والنتائج والآثار المتعلقة بالقوة الشهوية - وإن كان بعضها أعم من الجنسين أو مساويا لهما -:
فمنها:
حب الدنيا
إعلم أن للدنيا ماهية في نفسها وماهية في حق العبد، أما ماهية الدنيا وحقيقتها في نفسها، فعبارة عن أعيان موجودة: هي الأرض وما عليها، والأرض هي العقار والضياع وأمثالهما، وما عليها تجمعه المعادن والنبات والحيوان، والمعادن تطلب لكونها إما من الآلات والزينة كالنحاس والرصاص والجواهر وأمثالها، أو من النقود كالذهب والفضة، والنبات يطلب لكونه من الأقوات أو الأدوية، والحيوانات تطلب إما لملكية أبدانها واستخدامها كالعبيد والغلمان أو لملكية قلوبها وتسخيرها ليترتب عليه التعظيم والاكرام وهو الجاه، أو للتمتع والتلذذ بها كالجواري والنسوان، أو للقوة والاعتضاد كالأولاد. هذه هي الأعيان المعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله سبحانه في قوله:

" زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا " (١٠).
وحب جميع ذلك من رذائل قوة الشهوة، إلا حب تسخير القلوب لقصد الغلبة والاستيلاء، فإنه من رذائل قوة الغضب - كما تقدم - وبذلك يظهر أن حب الدنيا المتعلق بقوة الشهوة أعم من الشره بأول تفسيريه - كما أشير إليه -.
وأما ماهيتها في حق العبد، فعبارة عن جميع ماله قبل الموت، كما أن بعد الموت عبارة عن الآخرة، فكل ما للعبد فيه نصيب وشهوة وحظ وغرض ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقه، وللعبد فيه علاقتان، علاقة بالقلب: وهو حبه له، وعلاقة بالبدن: وهو إشغاله بإصلاحه، ليستوفي منه حظوظه. إلا أن جميع ماله إليه ميل ورغبة ليس بمذموم، وذلك لأن ما يصحبه في الدنيا وتبقى ثمرته معه بعد الموت - أعني العلم النافع والعمل الصالح - فهو من الآخرة في الحقيقة، وإنما سمي بالدنيا باعتبار دنوه، فإن كلا من العالم والعابد قد يلتذ بالعلم والعبادة بحيث يكون ذلك ألذ الأشياء عنده، فهو وإن كان حظا عاجلا له في الدنيا، إلا أنه ليس من الدنيا المذمومة، بل هو من الآخرة في الحقيقة، وإن عد من الدنيا من حيث دخوله في الحس والشهادة، فإن كل ما يدخل فيهما فهو من عالم الشهادة - أعني الدنيا - ولذا جعل نبينا - (ص) الصلاة من الدنيا، حيث قال: " حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة "، مع أنها من أعمال الآخرة.
فالدنيا المذمومة عبارة عن حظ عاجل، لا يكون من أعمال الآخرة ولا وسيلة إليها، وما هو إلا التلذذ بالمعاصي والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورة في تحصيل العلم والعمل.
وأما قدر الضرورة من الرزق، فتحصيله من الأعمال الصالحة - كما نطقت به الأخبار - قال رسول الله (ص): " العبادة سبعون جزءا، أفضلها طلب الحلال ". وقال (ص): " ملعون من ألقى كله على الناس "،

---

(١٠) آل عمران، الآية: ١٤.

وقال السجاد (ع): " الدنيا دنيا آن: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة ".
وقال الباقر (ع): " من طلب الدنيا استعفافا عن الناس، وسعيا على
أهله، وتعطفا على جاره، لقي الله - عز وجل - يوم
القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ". وقال الصادق (ع): " الكاد على
عياله كالمجاهد في سبيل الله ". وقال (ع) " إن الله تبارك وتعالى ليحب
الاغتراب في طلب الرزق ". (ع) وقال: " ليس منا من ترك دنياه
لآخرته ولا آخرته لدنياه ". وقال (ع): " لا تكسلوا في طلب معايشكم.
فإن آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها ". وقال له (ع) رجل: " إنا
لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال:
أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها وأتصدق، وأحج واعتمر، فقال
أبو عبد الله (ع): ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة ". وكان
أبو عبد الله (ع): " ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة ". وكان
أبو الحسن (ع) يعمل في أرض قد استنقعت قدماه في العرق، فقيل له.
" جعلت فداك! أين الرجال؟ فقال: وقد عمل باليد من هو خير مني في
أرضه ومن أبي، فقيل: ومن هو؟ فقال: رسول الله (ص) وأمير المؤمنين
وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين
والأوصياء والصالحين ". وقد ورد بهذه المضامين أخبار كثيرة أخر مشهورة

تذنيب

لا بد للمؤمن من مكسب

وقد ظهر من هذه الأخبار أن الراجح - بل اللازم - لكل مؤمن أن
يكون له مكسب طيب يحصل منه ما يحتاج إليه من الرزق وغيره من المخارج
المحمودة، وقد صرح بذلك في أخبار كثيرة أخر، قال أمير المؤمنين (ع):
" أوحى الله - عز وجل - إلى داود (ع): إنك نعم العبد لولا أنكم تأكل
من بيت المال ولا تعمل بيدك شيئا، قال: فبكى داود أربعين صباحا،
فأوحى الله - عز وجل - إلى الحديد أن لن لعبدي داود، فألان الله له
الحديد، وكان يعمل كل يوم درعا فيبيعها بألف درهم، فعمل ثلاثمائة وستين
درعا فباعها بثلاثمائة وستين ألفا، واستغنى عن بيت المال ". وقال الصادق
عليه السلام " من أحبنا أهل البيت فليأخذ من الفقر جلبابا أو تجفافا "،

والجلباب: كناية عن الستر على فقره، والتجفاف (١١)، كناية عن كسب طيب يدفع فقره. وقيل له في رجل قال: لأقعدن في بيتي، ولأصلين، ولأصومن، ولأعبدن ربي، فأما رزقي فسيأتيني: قال أبو عبد الله: " هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم ".
وهذا - أي ملكة تحصيل المال الحلال من المكاسب الطيبة وصرفها في المخارج المحمودة - هو الحرية بأخذ المعنيين، إذ للحرية إطلاقان: (أحدهما) ذلك، وهو الحرية بالمعنى الأخص، (وثانيهما) التخلص عن أسر الهوى وعبودية القوة الشهوية، وهو الحرية بالمعنى الأعم المرادفة، وضده الرقية بالمعنى الأعم الذي هو طاعة الشهوة ومتابعة الهوى.
وضد الأول - أعني الرقية بالمعنى الأخص - هو افتقاره إلى الناس فيما يحتاج إليه من الرزق، وإلقاء نظره إلى أيديهم، وحوالة رزقه على أموالهم إما على وجه محرم، كالغضب والتهب والسرقة وأنواع الخيانات، أو غير محرم، كأخذ وجوه الصدقات وأوساخ الناس، بل مطلق الأخذ منهم إذا جعل يده يدا سفلى ويدهم يدا عليا. ولا ريب في كون الرقية بهذا المعنى مذمومة، إذ الوجه (الأول) محرم في الشريعة وموجب للهلاك الأبدي، والوجه (الثاني) وإن لم يكن محرما إذا كان فقيرا مستحقا، إلا أنه لا يجابه التوقع من الناس وكون نظره إليهم يقتضي المذلة والانكسار والتخضع للناس والرقية والعبودية لهم، وهذا يرفع الوثوق بالله والاعتماد والتوكل عليه، ينجز ذلك إلى سلب التوكل على الله بالكلية، وترجيح المخلوق على الخالق، وهذا ينافي مقتضى الإيمان والمعرفة الواقعية بالله سبحانه.

فصل

الدنيا المذمومة هي الهوى

قد ظهر مما ذكر: أن الدنيا المذمومة حظ نفسك الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، وإليه أشار قوله تعالى:

---

(١١) التجفاف: آلة للحرب يتقى بها كالدرع. وعن تفسير أمثال هذا الحديث راجع الجزء الأول من المجلد الخامس عشر من البحار ص ٦٥، ففيه تفصيل معناه. وقد نقل عن ابن الأثير في النهاية، وابن أبي الحديد في شرحه: كلاما في هذا الباب.

" ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى " (١٢).
ومجامع الهوى هي المذكورة في قوله تعالى:
" إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد " (١٣).
والأعيان التي تحصل منها هذه الأمور هي المذكورة في قوله سبحانه:
" زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب " (١٤).
فهذه أعيان الدنيا، وللعبد معها علاقتان:
(علاقة مع القلب): وهي حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بها، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا: كالرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة والحسد والحقد والغل والكبر وحب المدح والتفاخر والتكاثر. فهذه هي الدنيا الباطنة، والظاهرة هي الأعيان المذكورة.
و (علاقة مع البدن): وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهذا الاشتغال عبارة عن الصناعات والحرف التي اشتغل الناس بها، بحيث أنستهم أنفسهم وخالقهم وأغفلتهم عما خلقوا لأجله ولو عرفوا سبب الحاجة إليها واقتصروا على قدر الضرورة، لم يستغرقهم اشتغال الدنيا والانهماك فيها، ولما جهلوا بالدنيا وحكمتها وحظهم منها لم يقتصروا على قدر الاحتياج، فأوقعوا أنفسهم في أشغالها، وتتابعت هذه الأشغال واتصلت بعضها ببعض، وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فغفلوا عن مقصودها، وتاهوا في كثرة الأشغال. فإن أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وتنفتح لأجله عشرة أبواب أخر، وهكذا يتداعى إلى غير حد محصور وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها، ومن وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى

----

(١٢) النازعات، الآية: ٤٠.
(١٣) الحديد، الآية: ٢٠.
(١٤) آل عمران، الآية: ١٤.

.. وهكذا على التوالي، ألا ترى إن ما يضطر إليه الإنسان بالذات منحصر بالمأكل والملبس والمسكن؟ ولذلك حدثت الحاجة إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات: الفلاحة، والرعاية للمواشي، والحياكة، والبناء، والاقتناص - أي تحصيل ما خلق الله من الصيد والمعادن والحشائش والأحطاب - وتترتب على كل من هذه الصناعات صناعات أخر، وهكذا إلى أن حدثت جميع الصناعات التي تراها في العالم، وما من أحد إلا وهو مشتغل بواحدة منها أو أكثر إلا أهل البطالة والكسالة، حيث غفلوا عن الاشتغال في أول الصبا، أو منعهم مانع واستمروا على غفلتهم وبطالتهم، حتى نشأوا بلا شغل واكتساب، فاضطروا إلى الأخذ مما يسعى فيه غيرهم ولذلك حدثت حرفتان خبيثتان هي (اللصوصية) و (الكدية) (١٥)، ولكل واحد منهما أنواع غير محصورة لا تخفى على المتأمل.

فصل

ذم الدنيا وأنها عدوة الله والانسان

إعلم أن الدنيا عدوة لله ولأوليائه ولأعدائه: أما عداوتها لله، فإنها قطعت الطريق على العبادة، ولذلك لم ينظر إليها مذ خلقها، كما ورد في الأخبار (١٦). وأما عداوتها لأوليائه وأحبائه، فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعدائه، فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها واقتنصتهم بشباكها وحبائلها حتى وثقوا بها وعولوا عليها، فاجتبوا منها حيرة وندامة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم عن السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم:
" إخسؤا فيها ولا تكلمون " (١٧). " أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون " (١٨).
والآيات الواردة في ذم الدنيا وحبها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل

----

(١٥) قال في المنجد: الكدية: الاستعطاء وحرفة السائل الملح.
(١٦) سيأتي الخبر بهذا المعنى - ص ٢٥ - وهو عامي.
(١٧) المؤمنون، الآية: ١٠٩.
(١٨) البقرة، الآية: ٨٦.

على ذلك وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو المقصود من بعثة الأنبياء، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها. فلنشر إلى نبذة من الأخبار الواردة في ذم الدنيا وحبها وفي سرعة زوالها، قال رسول الله (ص): " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء ". وقال رسول الله (ص): " الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها ". وقال (ص): " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ". وقال (ص): من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شئ، وألزم الله قلبه أربع خصال: هما لا ينقطع عنه أبدا، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا، وفقرا لا ينال غناه أبدا، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا ". وقال - صلى الله عليه وآله -: " يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور! ". وقال (ص): " لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب ". وقال: " ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟ ". وقال: " أوحى الله - تعالى - إلى موسى: لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكبيرة هي أشد عليك منها ". وقال (ص): " حب الدنيا رأس كل خطيئة ". وقال (ص): " من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه. فآثروا ما يبقى على ما يفنى ". ومر (ص) على مزبلة، فوقف عليها وقال: " هلموا إلى الدنيا! " وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت، فقال: " هذه الدنيا! ". وقال (ص): " إن الله لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا، وإنه لم ينظر إليها منذ خلقها ". (ص): " الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم عنده، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له ". وقال (ص): " لما هبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له: ابن للخراب ولد للفناء ". وقال (ص): " لتجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار "، فقيل: يا رسول الله! أمصلين؟ قال: " نعم،! كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنيئة من الليل، فإذا عرض

لهم من الدنيا شئ وثبوا عليه ". وقال (ص): " هل منكم من يريد
أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال
فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله
فيها أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ". وقال (ص): " فوالله
ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما
بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما
أهلكتهم ". وقال: " أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات
الأرض "، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: " زهرة الدنيا ". وقال (ص):
" دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه
وهو لا يشعر ". وقال (ص): " سيأتي قوم بعدي يأكلون أطايب الطعام وأنواعها،
وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون
أقوى الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع،
عاكفين على الدنيا، يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة دون إلههم وربا
دون ربهم إلى أمرهم ينتهون وهواهم يلعبون، فعزيمة من محمد بن عبد الله
لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أبدا لا يسلم عليهم ولا
يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم، ومن فعل ذلك فقد
أعان على هدم الإسلام ". وقال (ص): " ما لي وللدنيا وما أنا والدنيا؟!
إنما مثلي ومثلها كمثل راكب سار في يوم صائف، فرفعت له شجرة، فقال
تحت ظلها ساعة، ثم راح وتركها ". وقال (ص): " إحذروا الدنيا،
فإنها أسحر من هاروت وماروت ". وقال (ص): " حق على الله ألا يرفع
شيئا من الدنيا إلا وضعه ". وقال عيسى بن مريم (ع): " ويل لصاحب
الدنيا! كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله، ويل
للمغترين! كيف ألزمهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون
ويل لمن أصبحت الدنيا همه والخطايا عمله! كيف يفتضح غدا بذنبه ".
وقال (ع): " من ذا الذي يبني على أمواج البحر دارا تلكم الدنيا، فلا
تتخذوها قرارا ". وقال (ع): " لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب
مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد ". وأوحى الله - تعالى -

إلى موسى: " يا موسى! ما لك ولدار الظالمين! إنها ليست لك بدار، أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هي، إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى! إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم ". وأوحى إليه: " يا موسى! لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكيرة هي أشد منها ". ومر موسى (ع) برجل وهو يبكي، ورجع وهو يبكي، فقال موسى: " يا رب! عبدك يبكي من مخافتك "، فقال تعالى: " يا بن عمران! لو نزل دماغه مع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا! ".

وقال أمير المؤمنين (ع) - بعد ما قيل له صف لنا الدنيا -: " وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب ".

وقال (ع): " إنما مثل الدنيا كمثل الحية، ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل ". وقال في وصف الدنيا: " ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن بصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته ". وقال عليه السلام في بعض مواعظه: " ارفض الدنيا، فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب، فتدارك ما بقي من عمرك، ولا تقل غدا وبعد غد، فإنما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون، فنقلوا على أعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيقة، وقد أسلمهم الأولاد والأهلون، فانقطع إلى الله بقلب منيب من رفض الدنيا وعزم ليس فيه انكسار ولا انخزال ". وقال عليه السلام " لتغرنكم الحياة الدنيا، فإنها دار بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، فكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرمة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها. واعلموا عباد الله إنكم وما أنتم فيه من

هذه الدنيا على سبيل من قد مضى، ممن كان أطول منكم أعمارا، وأشد منكم بطشا، وأعمر ديارا وأبعد آثارا، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها، وأجسادهم بالية، وديارهم على عروشها خاوية، وآثارهم عافية، استبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والأخوان، على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار، وكيف يكون بينهم تواصل، وقد طحنهم بكلكله البلاء، وأكلتهم الجنادل، والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد نضارة العيش رفاتا، فجع بهم الأحباب، وسكنوا تحت التراب، وظعنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات!

" كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون " (١٩).

فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، وكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبعثرت القبور، وحصل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل، فطارت القلوب لإشفاقها منم سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، فظهرت منكم العيوب والأسرار، هنا لك.

" تجزى كل نفس بما كسبت " (٢٠).

وقال أيضا عليه السلام في بعض خطبه: " أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم، وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم، وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا، وكأنهم قد قطعوه، وأفضوا إلى علم، فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت

---

(١٩) المؤمنون، الآية: ١٠١.

(٢٠) المؤمن، الآية: ١٧.

يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه ".
وقال السجاد عليه السلام: " إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، إلا وكونوا من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، إلا أن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا، وقرضوا من الدنيا تقريضا، ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، إلا أن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياما قليلة، فصاروا بعقبى راحة طويلة، أما الليل فصافون أقوامهم، تجري دموعهم على خدودهم، وهم يجأرون إلى ربهم، يسعون في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنهم القداح، قد براهم الخوف من العبادة، ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى، وما بالقوم من مرض، أم خولطوا، فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها ". وقال عليه السلام: " ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله (ص) أفضل من بغض الدنيا، فإن لذلك لشعبا كثيرة وللمعاصي شعبا. فأول ما عصي الله به الكبر معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين. ثم الحرص، وهي معصية آدم وحواء حين قال الله عز وجل لهما:
" فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " (٢١).
فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة وذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه. ثم الحسد، وهو معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء وحب الدنيا، وحب الرئاسة، وحب الراحة وحب الكلام وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في حب الدنيا. فقال الأنبياء والعلماء - بعد معرفة ذلك -: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والدنيا دنيا آن:

---

(٢١) الأعراف، الآية: ١٩.

دنيا بلاغ ودنيا ملعونة ". وقال الباقر عليه السلام لجابر: " يا جابر! إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عما سواه، يا جابر! ما الدنيا وما عسى أن تكون الدنيا؟! هل هي الاطعام أكلته، أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها؟ يا جابر! إن المؤمنين لم يطمأنوا إلى الدنيا ببقائهم فيها ولم يأمنوا قدومهم الآخرة. يا جابر! الآخرة دار قرار، والدنيا دار فناء وزوال، ولكن أهل الدنيا أهل غفلة، وكان المؤمنون هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة، لم يصمهم عن ذكر الله جل اسمه ما سمعوا بآذانهم، ولم يعمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة بأعينهم، ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم " (٢٢). وقال الصادق عليه السلام: " مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله ". وقال: فيما ناجى الله عز وجل به موسى: " يا موسى! لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين وركون من اتخذها أبا وأما. يا موسى! لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذن لغلب عليك حب الدنيا وزهرتها. يا موسى! نافس في الخير أهله واستبقهم إليه فإن الخير كاسمه، واترك من الدنيا ما بك الغنى عنه، ولا تنظر عينك إلى كل مفتون بها وموكل إلى نفسه، واعلم أن كل فتنة بدؤها حب الدنيا، ولا تغبط أحدا بكثرة المال، فإن مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق ولا تغبطن أحدا يرضى الناس عنه، حتى تعلم أن الله راض عنه، ولا تغبطن مخلوقا بطاعة الناس له، فإن طاعة الناس له واتباعهم إياه على غير الحق هلاك له ولمن تبعه ". وأوحى الله تعالى إلى موسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون: " لو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا، يعرف فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب لكما عن ذلك وأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأزويهم عن نعيمها، كما يزوي الراعي الشفيق غنمه عن مواقع الهلكة، وإني لأجنبهم عيش سلوتها، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مواقع الغرة، وما ذلك لهوانهم علي، ولكن

---

(٢٢) صححنا الحديث على الكافي في باب ذم الدنيا، وصدر الحديث هكذا: " قال جابر: دخلت على أبي جعفر - عليه السلام - فقال: يا جابر! والله لمحزون! وإني لمشغول القلب، قلت فداك! وما شغلك وما حزن قلبك... " إلى آخر الحديث.

ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفورا، إنما يتزين إلي أوليائي: بالذل والخشوع والخوف والتقوى ". وقال الكاظم عليه السلام: " قال أبو ذر - رحمه الله -: جزى الله الدنيا عن مذمة بقدر رغيفين من الشعير، أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخر، وبعد شملتي الصوف، أتزر بإحداهما وأتردى بالأخرى ". وقال لقمان لابنه: " يا بني! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا ". وقال له: " يا بني! إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك ناج وما أراك ناجيا ". وقال: " يا بني! إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجرا، فاوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها، ولم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمر، فإنك لم تؤمر بعمارتها، واعلم أنك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي الله - عز وجل - عن أربع: شبابك فيما أبليته. وعمرك فيما أفنيته: ومالك مما اكتسبته، وفيما أنفقته فتأهب لذلك، وأعد له جوابا، ولا تأس على ما فاتك من الدنيا. قال قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك وجد في أمرك واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك واكمش في فراغك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد ".

وقال بعض الحكماء: " الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها. والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يعمرها ". وقال بعضهم، " الدنيا لمن تركها، والآخرة لمن طلبها ". وقال بعضهم: " إنك لن تصبح في شئ من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، ويكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم الدنيا، وأفطر على الآخرة، فإن رأس مال الدنيا الهوى، وربحها النار ".

وقال بعض أكابر الزهاد: " الدنيا تخلق الأبدان، وتجدد الآمال، وتقرب المنية، وتبعد الأمنية، ومن ظفر بها تعب، ومن فاتته نصب ". وقال بعضهم: " ما في الدنيا شئ يسرك إلا وقد التزق به شئ يسؤك ". وقال آخر: " لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: إنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه ". وقال حكيم: " كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب ولا أكون فيها، فكيف أسكن إليها؟ فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية ". وقال بعض العرفاء: " الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئا، فيجئ في طلبك ويأخذك ". وقال بعضهم: " لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي أن يختار العاقل خزفا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة ذهب يبقى والدنيا أدون من خزف يفنى؟ " وقد ورد: " إن العبد إذا كان معظما للدنيا، يوقف يوم القيامة، ويقال: هذا عظم ما حقره الله ". وروي: " أنه لما بعث النبي (ص) أتت إبليس جنوده، فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم! قال: إن كانوا يحبونها ما أبالي ألا يعبدوا الأوثان، وأنا أغدو عليهم وأروح بثلاثة: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله لهذا تبع ". وروي: " إنه أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: احذر مقتك، فتسقط من عيني، فأصب عليك الدنيا صبا ". وقال بعض الصحابة: " ما أصبح أحد من الناس في الدنيا إلا وهو ضيف، وماله عارية. فالضيف مرتحل، والعارية مردودة ". وقال بعضهم: " إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع ". وقيل: " من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها حتى يصير رمادا، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع بها، ومن أقبل على الله سبحانه، أحرقته نيران التوحيد، فصار جوهرا لا حد لقيمته ".
وقيل أيضا: " العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وارتضى خالقه قبل أن يلقاه ". وسأل بعض الأمراء رجلا

بلغ عمره مائتي سنة عن الدنيا، فقال: " سنيات بلاء، وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد، ويهلك هالك، فلولا المولود باد الخلق، ولولا الهالك لضاقت الدنيا بمن فيها "، فقال له الأمير: سل ما شئت قال: " أريد منك أن ترد علي ما مضى من عمري، وتدفع عني ما حضر من أجلي "، قال: " لا أملك ذلك، قال: " فلا حاجة لي عليك ".

والأخبار والآثار في ذم الدنيا وحبها، وفي سرعة زوالها وعدم الاعتبار بها، وفي هلاك من يطلبها ويرغب إليها، وفي ضديتها للآخرة، أكثر من أن تحصى. وما ورد في ذلك من كلام أئمتنا الراشدين، (لا) سيما عن مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين - فيه بلاغ لقوم زاهدين. ومن تأمل في خطب علي (ع) ومواعظه - كما في نهج البلاغة وغيره - يظهر له خساسة الدنيا ورذالتها. وقضية السؤال والجواب بين روح الأمين ونوح في كيفية سرعة زوال الدنيا مشهورة، وحكاية مرور روح الله على قرية هلك أهلها من حب الدنيا معروفة (٢٣).

ولعظم آفة الدنيا وحقارتها ومهانتها عند الله، لم يرضها لأحد من أوليائه، وحذرهم عن غوائلها، فتزهدوا فيها وأكلوا منها قصدا، وقدموا فضلا. أخذوا منها ما يكفي، وتركوا ما يلهي. ولبسوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام ما سد الجوع. نظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية، وإلى الآخرة أنها باقية، فتزودوا منها كزاد الراكب، فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم، فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم. صبروا قليلا ونعموا طويلا.

فصل

خسائس صفات الدنيا

إعلم أن للدنيا صفات خسيسة قد مثلت في كل صفة بما تماثله فيها: فمثالها في سرعة الفناء والزوال وعدم الثبات: مثل النبات الذي اختلط به ماء السماء فاخضر، ثم أصبح هشيما تذروه الرياح، أو كمنزل

---

(٢٣) ذكرها (الكافي) عن أبي عبد الله الصادق (ع) في باب حب الدنيا بتمامها.

نزلته ثم ارتحلت عنه، أو كقنطرة تعبر عنها ولا تمكث عليها. وفي كونها مجرد الوهم والخيال، وكونها مما لا أصل لها ولا حقيقة، كفئ الظلال، أو خيالات المنام وأضغاث الأحلام، فإنك قد تجد في منامك ما تهواه، فإذا استيقظت ليس معك منه شئ.
وفي عداوتها لأهلها وإهلاكها إياهم: بامرأة تزينت للخطاب، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. فقد روي: " أن عيسى (ع) كوشف بالدنيا، فرآها في صورة عجوز شمطاء هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى (ع): بؤسا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بالماضين؟ كيف تهلكينهم واحدا واحدا ولا يكونون منك على حذر؟! ".
وفي مخالفة باطنها لظاهرها: كعجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها. فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها، ظهرت لهم قبائحها. روي: " أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق، ويقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم وأغررتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب! أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله - عز وجل -: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها ".
وفي قصر عمرها لكل شخص بالنسبة إلى ما تقدمه من الأزل وما يتأخر عنه من الأبد: كمثل خطوة واحدة، بل أقل من ذلك، بالنسبة إلى سفر طويل، بل بالنسبة إلى كل مسافة الأرض أضعافا غير متناهية. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضيق وضر أو في سعة ورفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي سيد الرسل (ص) وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة. ورأى بعض أصحابه يبني بيتا من جص، فقال: " أرى الأمر أعجل من هذا ". وإلى هذا أشار عيسى (ص) حيث قال: " الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها ".
وفي نعومة ظاهرها وخشونة باطنها: مثل الحية التي يلين مسها

ويقتل سمها.
وفي قلة ما بقي منها بالإضافة إلى ما سبق: مثل ثوب شق من أوله إلى آخره، فبقي متعلقا في آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع.
وفي قلة نسبتها إلى الآخرة: كمثل ما يجعل أحد إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع إليه من الأصل.
وفي تأدية علائقها بعض إلى بعض حتى ينجر إلى الهلاك: كماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله.
وفي تأدية الحرص عليها إلى الهلاك غما: كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غما.
وفي تعذر الخلاص من تبعاتها واستحالة عدم التلوث بقاذوراتها بعد الخوض فيها كالماشي في الماء، فإنه يمتنع إلا تبتل قدماه.
وفي نضارة أولها وخباثة عاقبتها: كالأطعمة التي تؤكل، فكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسومة كان رجيعة أقذر وأشد نتنا، فكذلك كل شهوة من شهوات الدنيا التي كانت للقلب أشهى وأقوى، فنتنها وكراهيتها والتأذي بها عند الموت أشد، وهذا مشاهد في الدنيا. فإن المصيبة والألم والتفجع في كل ما فقد بقدر الالتذاذ بوجوده وحرصه عليه وحبه له، ولذا ترى أن من نهبت داره وأخذت أهله وأولاده، يكون تفجعه وألمه أشد مما إذا أخذ عبد من عبيده، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر، وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا.
وفي تنعم الناس بها ثم تفجعهم على فراقها: مثل طبق ذهب عليه بخور ورياحين، في دار رجل هيأه فيها، ودعا الناس على الترتيب واحدا بعد واحد ليدخلوا داره، ويشمه كل واحد وينظر إليه، ثم يتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فدخل واحد وجهل رسمه، فظن أنه قد وهب ذلك له، فتعلق به قلبه، لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتألم، ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر. فكذلك من عرف سنة الله في الدنيا، علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لينتفعوا بما فيها، كما ينتفع المسافر بالعواري، ثم يتركوها ويتوجهوا إلى مقصدهم

من دون صرف قلوبهم إليها، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها، ومن جهل سنة الله فيها، ظن أنها مملوكة له، فيتعلق بها قلبه، فلما أخذت منه عظمت بليته واشتدت مصيبته.

وفي اغترار الخلق بها وضعف إيمانهم بقوله تعالى في تحذيره إياهم غوائلها: كمفازة غبراء لا نهاية لها، سلكوها قوم وتاهوا فيها بلا زاد وماء وراحلة، فأيقنوا بالهلاك، فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم رجل وقال أرأيتم إن هديتكم إلى رياض خضر وماء رواء ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك في شئ. فأخذ منهم عهودا ومواثيق على ذلك، فأوردهم ماء رواء ورياضا خضراء، فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: الرحيل! قالوا: إلى أين؟

قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم. فقال أكثرهم: لا نريد عيشا خيرا من هذا، فلم يطيعوه. وقالت طائفة – وهم الأقلون –: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله ألا تعصوه، وقد صدقكم في أول حديثه؟ فوالله إنه صادق في هذا الكلام أيضا! فاتبعه هذا الأقل، فذهب فيهم إلى أن أوردهم في ماء ورياض أحسن بمراتب شتى مما كانوا فيه أولا، وتخلف عنه الأكثرون، فبدرهم عدو، فأصبحوا من بين قتيل وأسير.

تذنيب

تشبيهات الدنيا وأهلها

قد شبه بعض الحكماء حال الإنسان واغتراره بالدنيا، وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال، وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات: بشخص مدلي في بئر، مشدود وسطه بحبل، وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه، منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود، لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئا فشيئا، ولا يفتران عن قرضه آنا من الآنات، وذلك الشخص، مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آنا فآنا، قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر وامتزج بترابه واجتمعت عليه زنابير كثيرة، وهو مشغول بلطعة منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه مخاصم

لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك، غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته. فالبئر هو الدنيا، والحبل هو العمر، والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للعمر، والعسل المختلطة بالتراب هو لذات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام، والزنابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها.

وشبه بعض العرفاء الدنيا وأهلها، في اشتغالهم بنعيمها وغفلتهم عن الآخرة، وحسراتهم العظيمة بعد الموت، من فقدهم نعيم الجنة بسبب انغمارهم في خسائس الدنيا: بقوم ركبوا السفينة، فانتهت بها إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم المقام فيها، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة، فصادف المقام خاليا، فأخذ أوسع الأماكن وأوفقها بمراده. وبعضهم توقف في الجزيرة، واشتغل بالنظر إلى أزهارها وأنوارها وأشجارها وأحجارها ونغمات طيورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة، فرجع إليها، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا، فاستقر فيه. وبعضهم، بعد التنبه لخطر مرور السفينة، لما تعلق قلبه ببعض أحجار الجزيرة وأزهارها وثمارها، لم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة ورجع إلى السفينة، فلم يجد فيها إلا مكانا ضيقا لا يسعه إلا بالتكلف والمشقة، وليس فيه مكان لوضع ما حمله، فصار ذلك ثقلا عليه ووبالا، فندم على أخذها، ولم يقدر على رميها، فحملها في السفينة على عنقه متأسفا على أخذها، وبعضهم اشتغل بمشاهدة الجزيرة، بحيث لم يتنبه أولا من خطر مرور السفينة ومن نداء الملاح، حتى امتلأت السفينة، فتنبه أخيرا ورجع إليها، مثقلا بما حمله من أحجار الجزيرة وحشائشها، ولما وصل إلى شاطئ البحر سارت السفينة ولم يجد فيها موضعا أصلا، فبقي على شاطئ البحر. وبعضهم لكثرة الاشتغال بمشاهدة الجزيرة وما فيها نسوا المركب بالمرة، ولم يبلغهم النداء أصلا، لكثرة انغمارهم في أكل الثمار وشرب المياه والتنسم بالأنوار والأزهار والتفرج بين الأشجار، فسارت السفينة وبقوا في الجزيرة من دون تنبههم بخطر مرورها، فتفرقوا فيها، فبعضهم نهشته العقارب والحيات، وبعضهم

افترسته السباع، وبعضهم مات في الأوحال، وبعضهم هلك من الندامة والحسرة والغصة. وأما من بقي على شاطئ البحر فمات جوعا، وأما من وصل إلى المركب مثقلا بما أخذه، فشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيق عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت ما أخذه من الأزهار، وعفنت الثمار، وكمدت ألوان الأحجار، فظهر نتن رائحتها، فتأذى من نتن رائحتها ولم يقدر على إلقائها في البحر لصيرورتها جزءا من بدنه، وقد أثر فيه ما أكل منها، ولم ينته إلى الوطن إلا بعد إحاطة الأمراض والأسقام عليه لأجل ما لم ينفك عنه من النتن، فبلغ إليه سقيما مدنفا، فبقي على سقمه أبدا، أو مات بعد مدة. وأما من رجع إلى المركب بعد تضيق المكان، فما فاته إلا سعة المحل، فتأذى، بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ومن رجع إليه أولا ووجد المكان الأوسع فلم يتأذ من شئ أصلا ووصل إلى الوطن سالما. فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم وطنهم الحقيقي، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم. وما أقبح بالعاقل البصير أن تغره بأحجار الأرض وهشيم النبت،: مع مفارقته عند الموت وصيرورته كلا ووبالا عليه.

فصل

عاقبة حب الدنيا وبغضها

إعلم أنه لا يبلغ مع العبد عند الموت إلا صفاء القلب، أعني ظهارته عن أدناس الدنيا وحبه لله وأنسه بذكره، وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، والمعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكرة، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، وهي الباقيات الصالحات.

أما طهارة القلب عن أدناس الدنيا، فهي الجنة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الخبر: " إن أعمال العبد تناضل عنه، فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاء من قبل يديه جاءت الصدقة تدفع عنه... " الحديث.

وأما الحب والأنس، فهما يوصلان العبد إلى لذة المشاهدة واللقاء.
وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الجنة، وكيف لا يصل صاحب الصفات الثلاث بعد موته غاية البهجة ونهاية اللذة بمشاهدة جمال الحق، ولا يكون القبر عليه روضة من الرياض الخلد، ولم يكن له إلا محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، وبالموت ارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسرورا سالما من الموانع آمنا من الفراق؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصبت منه وحيل بينه وبينها، وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه؟ وليس الموت عدما، إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله، فإذن سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث، وهي: الذكر، والفكر، والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها. وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلا بالقوت والملبس والمسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب، فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة، وإن أخذ ذلك على قصد التنعم وحظ النفس صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها. إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة، وسمي ذلك حراما، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلى ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك حلالا. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب، فمن نوقش في الحساب عذب، ولذلك قال رسول الله (ص): " في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ". بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت عن الدرجات العلى في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لابقاء لها، هو أيضا عذاب.
ويرشدك إلى ذلك حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك، وقد سبقوك إلى السعادات الدنيوية، كيف ينقطع قلبك عليها حسرات، مع علمك بأنها سعادات متصرمة لا بقاء لها، ومنغصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك

ج: ٢

في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الأذهان والدهور دون غايتها؟ وكل من تنعم في الدنيا، ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو بشربة ماء بارد، فهو ينقص من حظه في الآخرة، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل، وحذر، وخوف، وخطر، وخجل، وانكسار، ومشقة، وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ.

فالدنيا - قليلها وكثيرها، حلالها وحرامها - ملعونة، إلا ما أعان على تقوى الله، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا، وكل من كانت معرفته أقوى وأتم كان حذره من نعيم الدنيا أشد وأعظم، حتى أن عيسى (ع) وضع رأسه على حجر لما نام ثم رمى به، إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا. وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحانا وشدة، فإن الصبر من لذيذ الأطعمة مع وجودها أشد. ولذا زوى الله تعالى الدنيا على نبينا (ص) فكان يطوي أياما، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع، ولذا سلط الله المحن والبلاء على الأنبياء والأولياء، ثم الأمثل فالأمثل في درجات العلى. كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم، ليتوفر من الآخرة حظهم، كما يمنع الوالد المشفق ولده لذائذ الفواكه والأطعمة ويلزمه القصد والحجامة، شفقة عليه وحبا له لا بخلا به عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فليس من الدنيا.

ثم الأشياء على أقسام ثلاثة:

(الأول) ما لا يتصور أن يكون لله، بل من الدنيا صورة ومعنى، وهي أنواع المعاصي والمحظورات وأصناف التنعم بالمباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة على الإطلاق.

(الثاني) ما صورته من الدنيا، كالأكل والنوم والنكاح وأمثالها، ويمكن أن يجعل معناه لله، فإنه يمكن أن يكون المقصود منه حظ النفس، فيكون معناه كصورته أيضا من الدنيا، ويمكن أن يكون المقصود منه الاستعانة على التقوى، فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا، قال رسول الله (ص): " من طلب من الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقي الله

وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ".
(الثالثة) ما صورته لله، ويمكن أن يجعل معناه من الدنيا بالقصد، وهو ترك الشهوات، وتحصيل العلم، وعمل الطاعات والعبادات. فهذه الثلاث إذا لم يكن لها باعث سوى أمر الله واليوم والآخر فهي لله صورة ومعنى، ولم تكن من الدنيا أصلا، وإن كان الغرض منها حفظ المال والحمية والاشتهار بالزهد والورع وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة صار من الدنيا معنى وإن كان يظن بصورته أنه لله
ومنها:
حب المال
وهو من شعب حب الدنيا، إذ حب الدنيا يتناول حب كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، كما أن الجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها. وبالجملة: لها أبعاض كثيرة يجمعها كل ما للانسان فيه حظ عاجل، فآفات الدنيا كثيرة الشعب والأرجاء، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن أعظم آفاتها المتعلقة بالقوة الشهوية هو (المال)، إذ كل ذي روح محتاج إليه ولا غناء له عنه، فإن فقد حصل الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا، فهو لا يخلو من فوائد وآفات، وفوائده من المنجيات وآفاته من المهلكات، وتمييز خيرها وشرها من المشكلات، إذ من فقده تحصل صفة الفقر، ومن وجوده تحصل صفة الغناء، وهما حالتان يحصل بهما الامتحان.
ثم (للفاقد) حالتان: القناعة، والحرص. وإحداهما محمودة والأخرى مذمومة. و (للحريص) حالتان: تشمر للحرف والصنائع مع اليأس عن الخلق، وطمع بما في أيديهم. وإحدى الحالتين شر من الأخرى.
و (للواجد) حالتان: إمساك، وإنفاق. وأحدهما مذموم والآخر ممدوح.
و (للمنفق) حالتان: إسراف، واقتصاد. والأول مذموم والثاني ممدوح.
وهذه أمور متشابهة لا بد أولا من تمييزها، ثم الأخذ بمحمودها والترك

لمذمومها، حتى تحصل النجاة من غوائل المال وفتنتها. ومن هنا قال بعض الأكابر: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل وما رقيته؟ قال: أخذه من حله، ووضعه في حقه.

فصل

ذم المال

الكتاب والسنة متظاهران في ذم المال وكراهة حبه، قال الله سبحانه: " يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون " (٢٤). وقال: " وأعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة " (٢٥). وقال: " المال والبنون زينة الحياة الدنيا... " الآية (٢٦).

وقال رسول الله (ص): " حب المال والشرف ينبتان النفاق، كما ينبت الماء البقل ". وقال (ص): " ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم "، وقال: " شر أمتي الأغنياء ". وقال (ص): " يقول الله - تعالى -: يا ابن آدم! مالي. مالي! وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟! " وقال (ص): " أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه وهو ماله، وواحد يتبعه إلى قبره وهو أهله، وواحد يتبعه إلى محشره وهو عمله ". وقال (ص): يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه، كلما يكفأ به الصراط قال له ماله: إمض وقد أديت حق الله في. ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كفيه، كلما يكفأ به الصراط قال ماله: ويلك؟ ألا أديت حق الله في؟... فما يزال كذلك حتى يدعو بالثبور والويل ". وقال (ص): " إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم ". وقال (ص): " لكل أمة " عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم ". وقال (ص): " يؤتى برجل يوم القيامة، وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام. فيقال: إذهبوا

---

(٢٤) المنافقون، الآية: ٩.

(٢٥) الأنفال، الآية: ٢٨.

(٢٦) الكهف، الآية: ٤٧.

به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حرام، فيقال: إذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه في حلال، فيقال اذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حلال، فيقال له: قف لعلك قصرت في طلب هذا بشئ مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها، وفرطت في شئ من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول: لا يا رب! كسبت من حلال وأنفقت في حلال، ولم أضيع شيئا مما فرضت، فيقال: لعلك إختلت في هذا المال في شئ من مركب أو ثوب باهيت به، لا يا رب! لم أختل ولم أباه في شئ، فيقال: لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقول: لا يا رب! لم أضيع حق أحد أمرتني أن أعطيه. فيجئ أولئك فيخاصمونه، فيقولون: يا رب. أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا، فإن كان قد أعطاهم وما ضيع مع ذلك شيئا من الفرائض ولم يختل في شئ، فيقال: قف الآن هات شكر نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لقمة أو لذة... فلا يزال يسأل ".

فليت شعري – يا أخي – إن الرجل الذي فعل في الحلال، وأدى الفرائض بحدودها، وقام بالحقوق كلها، إذا حوسب بهذه المحاسبة، فكيف يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها، وشبهاتها وشهواتها وزينتها، فيا لها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلها، وحسرة ما أعظمها! لا ندري ما تفعل بنا الدنيا غدا في الموقف عندي يدي الجبار.

ولخوف هذا الخطر قال بعض الصحابة: " ما يسرني أن اكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة "، قالوا له: ولم ذلك رحمك الله؟ قال: " لأني غني عن مقامي يوم القيامة، فيقول الله – عبدي من أين اكتسبت وفي أي شئ أنفقت؟ ".

فينبغي لكل مؤمن تقي ألا يتلبس بالدنيا، فيرضى بالكفاف، وإن كان معه فضل فليقدمه لنفسه، إذ لو بقي بعده لكان له مفاسد وآفات. روي: " أنه قال رجل: يا رسول الله، ما لي لا أحب الموت؟ فقال: هل معك من مال؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: قدم مالك أمامك، فإن قلب المؤمن مع

ماله، إن قدمه أحب أن يلحقه، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه ".
ووضع أمير المؤمنين (ع) درهما على كفه، ثم قال: " أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني ". وروي: " إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس، ثم وضعهما على جبهته، ثم قبلهما وقال: من أحبكما فهو عبدي حقا ". وقال عيسى (ع): " لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم ". وقال بعض الأكابر: " مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته "، قيل: وما هما؟ قال: " يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كل ".
ثم جميع ما ورد في ذم الغنى ومدح الفقر - كما يأتي بعضه -، وجميع ما ورد في ذم الدنيا - كما تقدم بعضه - يتناول ذم المال، لأنه أعظم أركان الدنيا.

فصل

الجمع بين ذم المال ومدحه

إعلم أنه كما ورد ذم المال في الآيات والأخبار ورد مدحه فيهما أيضا، وقد سماه الله خيرا في مواضع، فقال:
" إن ترك خيرا الوصية... " (٢٧). وقال في مقام الامتنان: " ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا " (٢٨).
وقال رسول الله (ص): " نعم المال الصالح للرجل الصالح ".
وكل ما جاء في ثواب الصدقة، والضيافة، والسخاء، والحج، وغير ذلك مما لا يمكن الوصول إليه إلا بالمال، فهو ثناء عليه.
ووجه الجمع بين الظواهر المادحة والذامة هو: أن المال قد يكون وسيلة إلى مقصود صحيح هو السعادة الأخروية، إذ الوسائل إليها في الدنيا ثلاث، وهي: الفضائل النفسية، والفضائل البدنية، والفضائل الخارجية التي عمدتها المال. وقد يكون وسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الصادة عن السعادة الأخروية والحياة الأبدية، والصادة سبيل العلم والعمل.

----

(٢٧) البقرة، الآية: ١٨٠.
(٢٨) نوح، الآية: ١٢.

فهو إذن محمود ومذموم بالإضافة إلى المقصودين. فالظواهر الذامة محمولة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد فاسدة، والمادحة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد صحيحة. ولما كانت الطبائع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلا لها وآلة إليها، عظم الخطر في ما يزيد على قدر الكفاية، فاستعاذ طوائف الأنبياء والأولياء من شره، حتى قال نبينا (ص): " اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا ". وقال (ص):
" اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا ".

فصل

غوائل المال وفوائده

قد ظهر مما ذكر: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فغوائله سمه، وفوائده ترياقه، فمن عرفها أمكنه أن يحترز من شره ويستدر منه خيره.
ولبيان ذلك نقول: إن غوائله إما دنيوية أو دينية:
والدنيوية: هي ما يقاسيه أرباب الأموال: من الخوف والحزن، والهم، والغم، وتفرق الخاطر، وسوء العيش، والتعب في كسب الأموال وحفظها، ودفع الحساد وكيد الظالمين، وغير ذلك.
والدينية ثلاثة أنواع:
أولها - أداؤه إلى المعصية. إذ المال من الوسائل إلى المعاصي، ونوع من القدرة المحركة لداعيتها. فإذا استشعرها الإنسان من نفسه، انبعثت الداعية، واقتحم في المعاصي، وارتكب أنواع الفجور. ومهما كان آيسا عن القدرة لم يتحرك داعية إليها. إذ العجز قد يحول بين المرء وبين المعصية، ومن العصمة ألا يقدر، وأما مع القدرة، فإن اقتحم ما يشتهيه هلك، وإن صبر وقع في شدة. إذ الصبر مع القدرة أشد، وفتنة السراء من فتنة الضراء أعظم.
وثانيها - أداؤه إلى التنعم في المباحات. فإن الغالب أن صاحب المال يتنعم بالدنيا ويمرن عليه نفسه، فيصير التنعم محبوبا عنده مألوفا، بحيث لا يصبر عنه، ويجره البعض منه إلى البعض. وإذا اشتد ألفه به وصار عادة له، ربما لم يقدر عليه من الحلال، فيقتحم في الشبهات ويخوض في

المحرمات: من الخيانة، والغصب، والرياء، والكذب، والنفاق والمداهنة، وسائر الأخلاق المهلكة، والأشغال الردية، لينتظم أمر دنياه ويتيسر له تنعمه. وما أقل لصاحب الثروة والمال ألا يصير التنعم مألوفا له، إذ متى يقدر أن يقنع بخبز الشعير ولبس الخشن وترك لذيذ الأطعمة بأسرها، فإنما ذلك شأن نادر من أولي النفوس القوية القدسية، كسليمان بن داود (ع) وأمثاله. على أن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن أحتاج إلى الناس فلا بد أن ينافقهم ويسخط الله في طلب رضاهم، فإن سلم من الآفة الأولى، أعني مباشرة المحرمات، فلا يسلم من هذه أصلا. ومن الحاجة إلى الناس تثور العداوة والصداقة، ويحصل الحقد، والحسد، والكبر، والرياء، والكذب، والغيبة، والبهتان، والنميمة، وسائر معاصي القلب واللسان، وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

وثالثها - وهو الذي لا ينفك عنه أحد من أرباب الأموال، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله وحفظه عن ذكر الله تعالى، وكل ما يشغل العبد عن الله تعالى فهو خسران ووبال. ولذا قال روح الله (ع): " في المال ثلاث آفات، أن يأخذه من غير حله "، فقيل: إن أخذه من حله؟ قال: " يضعه في غير حقه "، فقيل: إن وضعه في حقه؟ فقال: " يشغله إصلاحه عن الله ". وهذا هو الداء العضال، إذ أصل العبادات وروحها وحقيقتها هو الذكر والفكر في جلال الله تعالى، وذلك يستدعي قلبا فارغا. وصاحب الضيعة يصبح ويمسي متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته وخيانته، ومنازعة الشركاء وخصومتهم في المال والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج، وخصومة الأجراء في التقصير في العمارة وغير ذلك. وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة الشركاء وانفرادهم بالربح وتقصيرهم في العمل وتضييعهم المال، ويكون غالبا في بلاد الغربة متفرق الهم محزون القلب من كساد ما يصحبه من مال التجارة. وكذلك صاحب المواشي وغيره من أرباب أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنون تحت الأرض، وصاحبه أيضا لا يزال متفكرا مترددا فيما يصرف إليه، وفي كيفية حفظه، وفي الخوف ممن يعثر عليه، وفي دفع طمع الخلق منه. وبالجملة: أودية

أفكار أهل الدنيا لا نهاية لها، والذي ليس معه إلا قوت يومه أو سنته،
ولا يطلب أزيد من ذلك، فهو في سلامة من جميع ذلك.
وأما فوائده: فهي أيضا دنيوية ودينية:
أما الدنيوية: فهي ما يتعلق بالحظوظ العاجلة: من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الأخوان والأصدقاء والأعوان، وحصول الوقار والكرامة في القلوب.
وأما الدينية: فثلاثة أنواع:
أولها - أن ينفقه على نفسه في عبادة، كالحج والجهاد، أو فيما يقوى على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن.
وثانيا - أن يصرفه إلى أشخاص معينة: كالصدقة، والمروة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام. وأما الصدقة بأنواعها، فلا يحصى ثوابها وربما نشير إلى فضيلتها في موضعها. وأما المروة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة أو هدية أو إعانة وما يجري مجراها مما يكتسب به الأخوان والأصدقاء ويجلب به صفة الجود والسخاء، إذ لا يتصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل الفتوة والمروة، فلا ريب في كونه مما يعظم ثوابه. فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام، من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها. وأما وقاية العرض، ونعني بها بذل المال لدفع ثلب السفهاء، وهجو الشعراء، وقطع السنة الفاحشين والمغتابين، ومنع شر الظالمين وأمثال ذلك، فهو أيضا من الفوائد الدينية. قال رسول الله (ص): " ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة ".
وأما أجرة الاستخدام، فلا ريب في إعانته على أمور الدين، إذ الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له يحتاج أن يتولى بنفسه جميع الأعمال التي يحتاج إليها في الدنيا، حتى نسخ الكتاب الذي يفتقر إليه، وكلما يتصور أن يقوم به الغير فتضييع الوقت فيه خسران وندامة.
وثالثها - أن يصرفه إلى غير معين يحصل به خير عام، وهي الخيرات

الجارية: من بناء المساجد، والمدارس، والقناطر، والرباطات، ونصب الخشبات في الطرق، وإجراء القنوات، ونسخ المصاحف والكتب العلمية، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات المؤبدة، الدائرة بعد الموت، المستجلبة ببركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية.

فصل

الأموال المنجية من غوائل المال

من أراد النجاة من غوائل المال، فليحافظ على أمور:

الأول - أن يعرف مقصود المال وباعث خلقه وعلة الاحتياج إليه، حتى لا يكتسب ولا يحفظ إلا قدر حاجته.

الثاني - أن يراعي جهة دخله، فيجتنب الحرام والمشتبه، والجهات المكروهة القادحة في المروة والحرية، كالهدايا المشوبة بالرشوة، والسؤال الذي فيه الانكسار والذلة.

الثالث - أن يراعي جهة الخرج، ويقتصد في الإنفاق، غير مبذر ولا مقتر. قال الله تعالى:

" والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (٢٩).

وقال النبي (ص): " ما عال من اقتصد ". ثم للاقتصاد في المطعم والملبس والمسكن درجات ثلاث: أدنى وأوسط وأعلى، وربما كان الميل إلى الأولى أحرى وأولى، ليدخل في زمرة المخفين يوم القيامة.

الرابع - أن يضع ما اكتسبه من حله في حقه، ولا يضعه في غير حقه فإن الإثم في الأخذ من غير حله والوضع في غير حقه سواء.

الخامس - أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ما يأخذ استعانة به على ما خلق لأجله، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له واجتنابا عن وزره وثقله، وإذا فعل ذلك لم يضره وجوده.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: " لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد ".

---

(٢٩) الفرقان، الآية: ٦٧.

فينبغي لكل مؤمن أن يكون باعث جميع أفعاله التقرب إلى الله ليصير الجميع عبادة. فإن أبعد الأفعال من العبادة الأكل والوقاع وقضاء الحاجة، ويصير بالقصد عبادة. فمن أخذ من المال ما يحتاج إليه في طريق الدين، وبذل ما فضل منه على إخوانه المؤمنين، فهو الذي أخذ من حية المال ترياقها واتقى سمها، فلا تضره كثرة المال. إلا أنه لا يتأتى ذلك إلا لمن كثر علمه واستحكمت في الدين قدمه. والعامي إذ يشتبه به في الاستكثار من المال، فشأنه شأن الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ بالحية ويتصرف بها ليأخذ ترياقها، فيقتدي به ويأخذ مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها فتقتله في الحال. إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف ذلك. وكما يمتنع أن يتشبه الأعمى بالبصير في التخطي قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة، فيمتنع أن يتشبه العامي الجاهل بالعالم الكامل في الاستكثار من المال.

وصل

الزهد

ضد حب الدنيا والرغبة إليها هو (الزهد)، وهو ألا يريد الدنيا بقلبه ويتركها بجوارحه، إلا بقدر ضرورة بدنه. وبعبارة أخرى: هو الإعراض من متاع الدنيا وطيباتها، من الأموال والمناصب وسائر ما يزول بالموت. وبتقرير آخر: هو الرغبة عن الدنيا عدولا إلى الآخرة، أو عن غير الله، عدولا إلى الله، وهو الدرجة العليا. فمن رغب عن كل ما سوى الله حتى الفراديس، ولم يحب إلا الله، فهو الزاهد المطلق. ومن رغب عن حظوظ الدنيا خوفا من النار أو طمعا في نعيم الجنة، من الحور والقصور والفواكه والأنهار، فهو أيضا زاهد، ولكنه دون الأول. ومن ترك بعض حظوظ الدنيا دون بعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسع في الأكل دون التجمل في الزينة، لا يستحق اسم الزاهد مطلقا.

وبما ذكر يظهر: أن الزهد إنما يتحقق إذا تمكن من نيل الدنيا وتركها، وكان باعث الترك هو حقارة المرغوب عنه وخساسته، أعني الدنيا بالإضافة إلى المرغوب إليه وهو الله والدار الآخرة، فلو كان الترك لعدم قدرته

عليها، أو لغرض غير الله تعالى وغير الدار الآخرة، من حسن الذكر، واستمالة القلوب، أو الاشتهار بالفتوة والسخاء، أو الاستثقال لما في حفظ الأموال من المشقة والعناء أو أمثال ذلك، لم يكن من الزهد أصلا.

فصل

مدح الزهد

الزهد أحد منازل الدين وأعلى مقامات السالكين. قال الله سبحانه: " فخرج على قومه في زينته... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير " (٣٠).

فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم، وهو غاية المدح. وقال: " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى " (٣١). وقال: " ومن يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب " (٣٢).

وقال رسول الله (ص) " من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة ". وقال (ص): " إذا رأيتم العبد قد أعطي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه، فإنه يلقى الحكمة ". وقال (ص): " من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم، وهدى بغير هداية، فليزهد في الدنيا ". وقال (ص): " إزهد في الدنيا يحبك الله. وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ". وقال (ص) لأمير المؤمنين عليه السلام " يا علي، من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة وترك الدنيا فله الجنة ومن اختار الدنيا استخفافا بآخرته فله النار " وقال (ص): " سيكون بعدي قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا باتباع الهوى. ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم،

---

(٣٠) القصص، الآية: ٧٩ - ٨٠.

(٣١) طه، الآية: ١٣١.

(٣٢) الشورى، الآية: ٢٠.

فصبر على الفقر وهو يقدر على الغناء، وصبر للبغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، لا يريد بذلك إلا وجه الله، أعطاه الله ثواب خمسين صديقا ". وقال (ص): بعد ما سئل عن معنى شرح الصدر للإسلام -: " إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح "، قيل: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة؟ قال: " نعم! التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قيل نزوله ". وقال (ص): " استحيوا من الله حق الحياء "، قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، قال: " فليس كذلك، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون ". وروي " أنه قدم عليه بعض الوفود، وقالوا: إنا مؤمنون. قال: وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء. فقال (ص): إن كنتم كذلك. فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون ". فجعل الزهد من مكملات إيمانهم. وقال (ص): " من جاء بلا إله إلا الله،، لا يخلط معها غيرها، وجبت له الجنة "، وفسر (غيرها) بحب الدنيا وطلبها. وقال (ص): " من زهد في الدنيا، أدخل الله الحكمة قلبه، فأنطق بها لسانه، وعرفه دار الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام ". وروي: " أن بعض زوجاته بكت مما رأت به من الجوع، وقالت له: يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ فقال والذي نفسي بيده! لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكني اخترت جوع الدنيا على شعبها، وفقر الدنيا على غنائها، وحزن الدنيا على فرحها. إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر على محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يتكلفني مثل ما كلفهم فقال:

" فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل " (٣٣).

والله ما لي بد من طاعته! وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا

---

(٣٣) الأحقاف، الآية: ٣٥.

قوة إلا بالله! ". وقال (ص): " لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلة الشئ أحب إليه من كثرته ". وقال (ص) " إذا أراد الله بعبد خيرا، زهده في الدنيا، ورغبة في الآخر، وبصره بعيوب نفسه ". وقال (ص) " من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لهى عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات " وقال (ص): إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع
يوما وأشبع يوما. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك واثني عليك ". وروي: " أنه (ص): خرج ذات يوم يمشي ومعه جبرئيل، فصعد على الصفا، فقال له رسول الله (ص): يا جبرئيل، والذي بعثك بالحق! ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يتم كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته، فقال رسول الله (ص): أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا! ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك. فأتاه إسرافيل، فقال: إن الله عز وجل سمع ما ذكرت، فبعثني بمفاتيح الأرض، وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت، وإن شئت نبيا ملكا، وإن شئت نبيا عبدا. - فأومأ إليه جبرئيل أن تواضع لله. فقال: " نبيا عبدا، ثلاثا " وقال (ص): " قال الله تعالى: إن من أغبط أوليائي عندي رجلا حفيف الحال ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضا في الناس، جعل رزقه كفافا فصبر عليه، عجلت منيته فقال تراثه وقل بواكيه (٣٤). وعن علي بن الحسين - صلوات الله عليهما - قال: " مر رسول الله (ص): براعي إبل، فبعث يستسقيه، فقال: أما ما في ضروعها فصبوح الحي، وأما في آنيتنا فغبوقهم. فقال رسول الله (ص) اللهم كثر ماله وولده. ثم مر براعي غنم، فبعث إليه يستسقيه، فحلب له ما في ضروعها وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله (ص)، وبعث إليه بشاة، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببت أن نزيدك زدناك، قال: رسول

---

(٣٤) صححنا الحديث على (الكافي): باب الكفاف. قال في (الوافي): الخفيف - بالمهملة -: العيش السوء وقلة المال. والغامض: الخامل الذليل.

الله (ص): اللهم أرزقه الكفاف. فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، دعوت للذي ردك بدعاء عامتنا نحبه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاء كلنا نكرهه. فقال رسول الله (ص): إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. اللهم ارزق محمدا وآل محمد الكفاف " (٣٥). وقال أمير المؤمنين (ع): " الناس ثلاثة: زاهد، وصابر، وراغب، فأما الزاهد، فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشئ من الدنيا ولا يأسى على شئ منها فاته، فهو مستريح. وأما الصابر، فإنه يتمناها بقلبه، فإذا نال منها ألجم نفسه عنها بسوء عاقبتها وشناءتها، ولو اطلعت على قلبه لعجبت من عفته وتواضعه وحزمه. وأما الراغب، فلا يبالي من أين جاءته الدنيا، من حلها أو حرامها، ولا يبالي ما دنس فيها عرضه وأهلك نفسه وأذهب مروته، فهم في غمرته يعمهون ويضطربون ". وقال (ع): " إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا " وقال (ع): " من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا: عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الدنيا فتركها، وعرف الآخرة فطلبها، وعرف الباطل فاتقاه وعرف الحق فاتبعه ". وقال (ع): " من اشتاق الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف النار لهى عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ". وقال (ع): " إن علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الدنيا، أما إن زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه مما قسم الله عز وجل له فيها وإن زهد وإن حرص الحريص على عاجل زهرة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص. فالمغبون من حرم حظه من الآخرة (٣٦). وقال علي بن الحسين (ع): " ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله (ص) أفضل من بغض الدنيا... الحديث " (٣٧). وقال الباقر (ع): " أكثر ذكر الموت، فإنه لم يكثر إنسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا ". وقال (ع): " قال الله تعالى: وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلو ارتفاعي! لا يؤثر عبد مؤمن هواي على هواه في شئ من أمر

---

(٣٥) صححنا الحديث على ما في (أصول الكافي): باب الكفاف.

(٣٦) صححنا الحديث على (الكافي): باب ذم الدنيا.

(٣٧) الحديث مروي في (أصول الكافي): باب ذم الدنيا وقد مضى ذكره في صفحة ٣٠.

الدنيا، إلا جعلت غناه في نفسه، وهمته في آخرته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر ". وقال (ع): " أعظم الناس قدرا من لا يناول الدنيا في يد من كانت. فمن كرمت عليه نفسه صغرت الدنيا في عينيه، ومن هانت عليه نفسه كبرت الدنيا في عينيه ". وقال الصادق (ع): " جعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا ". وقال (ع): " ما كان شئ أحب إلى رسول الله (ص) من أن يظل خائفا جائعا في الله تعالى ". وقال (ع): " إذا أراد الله بعبد خيرا، زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبها. ومن أوتيهن فقد أوتي خير الدنيا والآخرة ". وقال (ع): " لم يطلب أحد الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا، وهو ضد لما طلب أعداء الحق، قلت: جعلت فداك، مما ذا؟ قال: " من الرغبة فيها "، وقال: " ألا من صبار كريم؟ فإنما هي أيام قلائل! ألا إنه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا (٣٨)

وقال (ع): " الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار، وهو تركك كل شئ يشغلك عن الله من غير تأسف على قوتها، ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها، ولا عوض منها، بل يرى فوتها راحة وكونها آفة ويكون أبدا هاربا من الآفة معتصما بالراحة، والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا والذل على العز والجهد على الراحة والجوع على الشبع وعافية الأجل على محبة العاجل والذكر على الغفلة، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة "، وقال الرضا (ع): " من أصبح وأمسى معافى في بدنه، آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما خيرت له الدنيا ".

وكفى للزهد فضيلة ومدحا أنه أعرف صفات الأنبياء والأولياء، ولم يبعث نبي إلا به، ولو لم يتوقف التقرب إلى الله والنجاة في دار الآخرة عليه، لما ضيق عظماء نوع الإنسان وأعرف الناس بحقيقة الحال على أنفسهم في فطامها عن شهوات الدنيا ولذاتها.

فانظر إلى كليم الله موسى (ع) كيف كان غالب قوته نبت الأرض

---

(٣٨) صححنا الحديث على (الكافي): باب ذم الدنيا.

وأوراق الأشجار، وكان ضعف بدنه من كثرة رياضته، بحيث ترى الخضرة من صفات بطنه، كما أخبر به أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة. ثم انظر إلى روح الله (ع) كيف يلبس الشعر ويأكل الشجر، ولم يكن له ولد يموت يخرب ولا يدخر لغد، أينما يدركه المساء نام، وقال له الحواريون يوما، " يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا تعبد الله فيه "، قال " اذهبوا فابنوا بيتا على الماء " فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال " فكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا "، وروي: " أنه اشتد به يوما المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب بيتا يلجأ إليه، فرفعت إليه خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد، فوضع يده عليه وقال: " إلهي جعلت لكل شئ مأوي ولم تجعل لي مأوى " فأوحى الله إليه " مأواك في مستقر من رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة ألف حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمنك في عرسك أربعة آلاف عام، يوم منها كعمر الدنيا ولآمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا، زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم ".

ثم انظر إلى يحيى بن زكريا، حيث يلبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حسن اللمس فسألته أمه أن يلبس مكانها جبة من صوف ففعل، فأوحى الله إليه: " يا يحيى آثرت علي الدنيا "، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه.

ثم افتح بصيرتك وتأمل في سيرة رسول الله (ص) وزهده في الدنيا، فإنه لبث في النبوة ما لبث، ولم يشبع هو وأهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولم يشبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، ولم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليهم خيبر، وقرب إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، فأمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على الأرض، وكان ينام على عباءة مثنية فثنوها له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة هذه بهذه العباءة أثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها، وكان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة.

وروي: " أن امرأة من بني ظفر صنعت له (ص) كساء بن إزارا ورداء

ج: ٢

وبعث إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ".
وشدة زهد علي (ع) وتركه الدنيا أشهر من أن يحتاج إلى بيان
وكذا من بعده من الأئمة الراشدين والأصحاب والتابعين وغيرهم من أكابر الدين وللسلف الصالحين، حتى كان أحدهم بعيش خمسين سنة وستين لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام، فعلى أطرافهم يقومون ووجوههم على الأرض يفترشون تجري دموعهم على خدودهم ويناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار.
وقد حكي أن بعض الخلفاء أرسل إلى بعضهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها فشق ذلك على أهله، فقال أتدرون؟ ما مثلي ومثلكم إلا كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لينتفعوا بجلدها، فكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني فموتوا جوعا خير لكم من أن تذبحوني.
وقد بلغ بعضهم من الزهد بحيث يطلب لقيام الليل موضعا لا يصيبه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به. وكان لبعضهم حب مكسور، فيه ماؤه، لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد يشق عليه مفارقة الدنيا.
فيا حبيبي أفق من سكر الهوى واعرف المضادة التي بين الآخرة والدنيا، واقتد بالواقفين على جلية الحال والمطلعين على حقيقة المآل في المواظبة على الزهد والتقوى وفطام النفس عن لذائذ الدنيا، فإن ذلك وإن كان شاقا فمدته قريبة، والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين أنفسهم بسياسة الشرع المبين المعتصمين بعروة اليقين بما وعد الله في الآخرة لعباده الزاهدين.

فصل

اعتبارات الزهد ودرجاته

إعلم أن للزهد اعتبارات تتحقق له بكل اعتبار درجات:
(الأول) اعتبار نفسه أي من حيث نفس الترك للدنيا وبهذا الاعتبار له درجات ثلاث: (الأولى) أن يزهد في الدنيا مع ميله إليها وحبه لها بأن

يكف نفسه عنها بالمجاهدة والمشقة، وهذا هو التزهد. (الثانية) أن يترك الدنيا طوعا وسهولة من دون ميل إليها لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما يطمع فيه من لذات الآخرة، وهذا كالذي يترك درهما لأجل درهمين معاوضة فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى قليل انتظار، ومثله ربما أعجب بنفسه وبزهده لاحتمال أن يظن بنفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه. (الثالثة) وهي أعلى الدرجات أن يترك الدنيا طوعا وشوقا ولا يرى أنه ترك شيئا، إذ عرف أن الدنيا لا شئ فيكون كمن ترك خنفساء وأخذ ياقوتة صافية حمراء، فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا وسبب هذا الترك كمال المعرفة، فإن العارف على اليقين بأن الدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخس من خنفساء بالنظر إلى ياقوتة، ومثل هذا الزاهد في أمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أن تارك الخنفساء بالياقوتة في أمن من طلب الإقالة في البيع.

وقد ذكر أرباب القلوب من أهل المعرفة أن مثل تارك الدنيا بالآخرة مثل من منعه عن باب الملك كلب يكون وفي بابه فألقى إليه لقمة خبز نالها من موائد الملك فشغله بنفسه ودخل الباب ونال غاية القرب من الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه عوضا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلب في مقابلة ما يناله مع كون هذه اللقمة أيضا من الملك.

فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقله في المعدة ثم ينتهي إلى النتن والقذر ويحتاج إلى إخراجه، فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها. ولا ريب في نسبة الدنيا لكل شخص أعني ما يسلم له منها وإن عمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي، والدنيا متناهية، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدورة لكان لا نسبة لها إلى الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذاتها مكدرة غير صافية فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد.

* * *

(الثاني) اعتبار المرغوب عنه أعني ما يترك وبهذا الاعتبار له خمس درجات:
(الأولى) أن يترك المحرمات وهو الزهد في الحرام، ويسمى زهد فرض.
(الثانية) أن يترك المشتبهات أيضا وهو الزهد في الشبهة، ويسمى زهد سلامة.
(الثالثة) أن يزهد في الزائد عن قدر الحاجة من الحلال أيضا ولا يزهد في التمتع بالقدر الضروري من المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح وما هو وسيلة إليها من المال والجاه، وإلى هذه الدرجات كلا أو بعضا أشار مولانا أمير المؤمنين (ع) بقوله: " كونوا على قبول العمل أشد عناية منكم على العمل، الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عن كل ما حرم الله عز وجل " (٣٩) ومولانا الصادق (ع) بقوله: " الزهد في الدنيا ليس بإضاعة المال ولا تحريم الحلال بل الزهد في الدنيا ألا تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله عز وجل " (٤٠) وهذا مع ما يأتي بعده هو الزهد في الحلال، ويسمى زهد ثقل.
(الرابعة) أن يترك جميع ما للنفس فيه تمتع ويزهد فيه ولو في قدر الضرورة، لا بمعنى ترك هذا القدر بالمرة، إذ ذلك متعذر، بل تركه من حيث التمتع به وإن ارتكبه اضطرارا من قبيل أكل الميتة مع الإكراه له باطنا، وهذا يتناول ترك جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرئاسة والمال والجاه غيرها، وإلى هذه الدرجة أشار الصادق (ع) بقوله: (الزاهد في الدنيا الذي يترك حلالها مخافة حسابه ويترك حرامها مخافة عذابه) وإليها يرجع قول أمير المؤمنين (ع): (الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه:
" لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم " (٤١).

---

(٣٩) صححنا الحديث على ما في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠١.
(٤٠) صححنا الحديث على ما في سفينة البحار ج ١ ص ٥٦٨.
(٤١) الحديد الآية ٢٣.

فمن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه " (٤٢).
وقوله (ع) (الزهد في الدنيا ثلاثة أحرف: زاء وهاء ودال أما الزاء فترك الزينة وأما الهاء فترك الهوى وأما الدال فترك الدنيا ".
(الخامسة) أن يترك جميع ما سوى الله ويزهد فيه حتى في بدنه ونفسه أيضا بحيث كان ما يصحبه ويتركه في الدنيا الجاء وإكراها من دون استلذاذ وتمتع به، وإلى هذه الدرجة أشار مولانا الصادق (ع) في كلامه المنقول سابقا (ص ٤٨) حيث قال: " الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كل شئ يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها ولا عوض منها بل يرى فوتها راحة وكونها آفة " إلى آخر الحديث (٤٣).
ثم الالتفات إلى بعض ما سوى الله والاشتغال به ضرورة، كضروري الأكل والملبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وأمثال ذلك، لا ينافي هذه المرتبة من الزهد، إذ معنى الانصراف من الدنيا إلى الله تعالى إنما هو الإقبال بكل القلب إليه تعالى ذكرا وفكرا، وهذا لا يتصور بدون البقاء إلا بضرورات المعيشة فمتى اقتصر من الدنيا عليها قصدا لدفع المهلكات عن البدن والاستعانة بالبدن على العبادة وسائر ما يقربه إلى الله لم يكن مشتغلا بغير الله، إذ ما لا يتوصل إلى شئ إلا به فهو منه، فالمشتغل بعلف دابته في طريق الحج ليس معرضا عن الحج، ولكل ينبغي أن يكون البدن في طريق الله مثل الدابة في طريق الحج، فكما أن قصدك من تهيئة ما تحتاج إليه دابتك دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك دون تنعمها، فكذلك ينبغي أن يكون قصدك من الأكل والشرب واللباس والسكنى صيانة بدنك عما يهلك من الجوع والعطش والحر والبرد فتقتصر على قدر الضرورة وتقصد به التقوى على طاعة الله دون التلذذ والتنعم، وذلك لا ينافي الزهد بل هو شرطه، ثم ترتب التلذذ على ذلك لا يضرك إذا لم يكن مقصودا

---

(٤٢) هذا الحديث مروي في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠٢.
(٤٣) صححنا الحديث هنا وهناك على ما في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠٠ والحديث منقول فيه عن مصباح الشريعة الذي تقدم ذكره في الجزء الأول ص ١٢١، ٢٥٤.

بالذات لك فإن الإنسان قد يستريح في قيام الليل بنسيم الأسحار وصوت الطيور وهذا لا يضر بعبادته إذا لم يقصد طلب موضع خاص لهذه الاستراحة، على أنه لا لذة حقيقية في الأكل والشرب واللباس وإنما تندفع بها آلام الجوع والعطش والحر والبرد.

ثم لا يخفى أن الفضول من أمور الدنيا من المطعم والمشرب والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه ينبغي تركها والزهد فيها إذ الأخذ بما لا يحتاج إليه ينافي الزهد. (وأما) غير الفضول مما يحتاج إليه الإنسان ويكون مهما له من الأمور الثمانية، فينبغي ألا يترك الزهد فيها، إذ ما هو المهم الضروري يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فينبغي ألا يترك الزهد فيه أيضا.

ومقتضى غاية الزهد فيه أن يقتصر من القوت على قوت يومه وليلته فإن كان عنده أزيد من ذلك فليبذله على بعض المستحقين، فإن اقتصر من جنسه على خبز الشعير فهو نهاية الزهد في القوت، إلا أن أكل خبز الحنطة في بعض الأحيان بل أكل أدام واحد في بعض الأوقات إذا لم يكن من اللذائذ الشديدة من أطعمة المتنعمين من أهل الدنيا لا ينافي الزهد، وربما لم يكن أكل اللحم في بعض الأحيان منافيا له. ويقتصر من (اللباس) بعد كونه من القطن أو الصوف على ما يستر الأعضاء ويحفظها من الحر والبرد، ولا بأس بكونه اثنين ليلبس الآخر عند غسل أحدهما. ومن (المسكن) على ما يحفظ نفسه وأهله من الحر والبرد. ومن (أثاثه) أعني الفرش والظرف والقدر والكوز وأمثال ذلك، ما يدفع حاجته من غير تعد إلى ما يمكن زوال ضرورته بدونه. ومن (المنكح) على ما تنكسر به سورة شبقه ويحفظه عن النظر والوساوس الشهوية المانعة عن الحضور في العبادات.

ومن (المال) على ما يقضي به حاجة يومه بليلته فإن كان كاسبا فإذا اكتسب حاجة يومه فليترك كسبه ويشتغل بأمر الدين، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له مدخل آخر يمكن أن يصل إليه كل يوم قدر حاجته فيه، فالظاهر عدم خروجه عن الزهد بإمساك قدر ما يكفي لسد رمقه بسنة واحدة بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل من كفاية نفقته. وربما قيل إن مثله من

ضعفاء الزهاد، بمعنى أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات العالية والدرجات الرفيعة لا يناله، وإن صدق عليه كونه زاهدا، إذ مثله ليس له قوة اليقين، لا صاحب اليقين الواقعي إذا كان له قوت يومه لا يدخر شيئا لغده، ومن شرط التوكل في الزهد فلا يكون هذا من الزهاد عنده. وهذا غاية الزهد في الأمور المذكورة، وعليه جرت طوائف الأنبياء وزمرة الأوصياء ومن بعدهم من السلف الأتقياء. والحق أن حكم الزهد فيها يختلف باختلاف الأشخاص والأوقات فإن أمر المتفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، ومن قصر جميع همه على تحصيل العلم والعمل ولم يقدر على كسب، حاله يخالف حال أهل الكسب، وكذا في بعض الأوقات وفي بعض الأماكن يمكن تحصيل قدر الحاجة في كل يوم وفي بعض آخر منهما لا يمكن ذلك، فاللائق لكل أحد أن يلاحظ حاله ووقته ومكانه ويتأمل في أن الأصلح بأمر آخرته والأعون على تحصيل ما خلق لأجله إمساك أي قدر من المال وصرف أي قدر وجنس من القوت، بحيث لو كان أقل منه لم يتمكن من تحصيل ما يقربه إلى ربه فيأخذ به ويترك الزائد، فإن بعد صحة النية وخلوص القصد في ذلك لا يخرج به عن الزهد الواقعي وإن تصور الاكتفاء بأقل من ذلك مع إيجابه لفقد ما هو أهم في تكميل النفس.
وأما (الجاه) فقد تقدم أن القدر الضروري منه في أمر المعيشة كتحصيل منزلة في قلب خادمه ليخدمه، وفي قلب السلطان ليدفع الأشرار عنه، لا بأس به، فالظاهر عدم منافاة هذا القدر للزهد، وقال بعض العلماء: (هذا القدر وإن لم يكن به بأس إلا أنه يتمادى إلى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم: أما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن لمستأجره عنده قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، ومعلوم أن من أراد أن يخدم بغير أجرة فهو من الظالمين فكيف يكون من الزاهدين. وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل العدل فيها وأن يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في القلوب أو محل له عند السلطان. وقدر

الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد ألا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا، فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين.
وأما التوهمات والتقديرات التي تخرج إلى الزيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأوقات فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره، نعم ما أعطاه الله لبعض عبيده من دون سعيه في طلبه لنشر دينه أو لاتصافه ببعض الكمالات المختصة لحصول منزلة له في القلوب، فليس به بأس ولا ينافي الزهد، فإن جاء رسول الله (ص) كان أوسع الجاه مع كونه أزهد الناس.
والحق كما تقدم أن الجاه كالمال في نفي البأس من قدر يضطر إليه الإنسان إذا وقع في زمان أو بلد توقف أمر معيشته عليه. فالقدر الضروري منهما غير محذور وغير مناف للزهد، والزائد على الحاجة سم قاتل، فلا ينبغي أن ينسب المقتصر على الضرورة إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدين، لأنه من شرطه والشرط من جملة المشروط. ويدل عليه ما روي أن إبراهيم عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرض شيئا فلم يقرضه، فرجع مهموما، فأوحى الله تعالى إليه: (لو سألت خليلك لأعطاك)، فقال يا رب: (عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها)، فأوحى الله إليه: (ليس الحاجة من الدنيا) ويدل عليه أيضا كلام الصادق عليه السلام مع سفيان الثوري كما أورده بطوله شيخنا الأقدم رحمه الله في جامعه الكافي.
فإذن قدر الحاجة من الدين وما وراءه وبال في الآخرة، بل في الدنيا أيضا، ويعرف ذلك بالتأمل في أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه وتحمل الذل فيه، وغاية سعادته أن يتركه لورثته، فيأكلونه وهم أعداؤه، أو يستعينون به على المعصية، فيكون معينا لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا وتابع الشهوات بدود القز، لا يزال ينسج

على نفسه حتى يقتلها، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب العمل الذي عمله بنفسه كما قيل في ذلك:

ألم تر أن المرء طول حياته * معنى بأمر لا يزال يعالجه
كدود كدود القز ينسج دائما * ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

فكل مكب على الدنيا متبع للشهوات لا يزال يقيد نفسه بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين شهواته دفعة، فتبقى السلاسل من قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها، وهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فأهون أحواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل أحد جانبيه عن الآخر. فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرات نزوله في أسفل السافلين ومنعه عن أعلى عليين وجوار رب العالمين. فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار لكل محجوب معدة، كما قال الله تعالى:

" كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم " (٤٤).

ولما انكشف لأرباب القلوب أن العبد يهلك نفسه باتباع الهوى والخوض في الدنيا إهلاك دود القز نفسه، رفضوا الدنيا بالكلية. فنسأل الله تعالى أن يقرر في قلوبنا ما نفث في روع حبيبه (ص)، حيث أوحى إليه: " أحبب ما أحببت، فإنك مفارقه ".

* * *

(الثالث) اعتبار المرغوب فيه: أعني ما يترك لأجله. وله بهذا الاعتبار ثلاث درجات. الأولى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر عذاب الآخرة، وهذا زهد الخائفين. الثانية: أن يكون ثواب الله ونعيم الجنة، وهذا زهد الراجين. الثالثة: وهي الدرجة العليا، ألا تكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت إلى الآلام ليقصد منها الخلاص، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها، بل كان مستغرق الهم بالله، وهذا زهد العارفين لأنه لا يحب الله خاصة إلا من عرفه بصفاته الكمالية. فكما إن من عرف

---

(٤٤) المطففين، الآية: ١٥ - ١٦.

الدينار والدرهم، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما، لم يحب إلا الدينار.
كذلك من عرف الله، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة ولذة التنعم بالحور العين والنظر إلى القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره.
وقال بعض العرفاء: ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم الجنة، كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به. والطالبون لنعيم الجنة، عند أهل المعرفة وأرباب القلوب، كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.
تتميم
الزهد الحقيقي
لا تظنن أن كل من يترك مال الدنيا أنه زاهد، فإن ترك المال وإظهار التضييق والخشونة في المأكل والمأكل والملبس سهل على من أحب المدح بالزهد. فكم من الرهبان والمرائين تركوا مال الدنيا وروضوا (٤٥) أنفسهم كل يوم على قدر قليل من القوت، واكتفوا من المسكن بأي موضع اتفق لهم، وكان غرضهم من ذلك أن يعرفهم الناس بالزهد ويمدحهم عليه، فهم تركوا المال لنيل الجاه. فالزهد الحقيقي ترك المال والجاه، بل جميع حظوظ النفس من الدنيا. وعلامة ذلك استواء الغنى والفقر والذم والمدح والذل والعز لأجل غلبة الأنس بالله، إذ ما لم يغلب على القلب الأنس بالله والحب له لم يخرج عنه حب الدنيا بكليته. إذ محبة الله ومحبة الدنيا في القلب كالماء والهواء في القدح، فإذا دخل أحدهما خرج الآخر، فكلاهما لا يجتمعان ولا يرتفعان أيضا. فالقلب المملوء من حب الدنيا يكون خاليا عن حب الله، كما أن القلب المشغول بحب الله وأنسه فارغ عن حب الدنيا، وبقدر ما

---

(٤٥) في بعض النسخ (ردوا)، وفي بعض آخر (رودوا). والظاهر أن الصحيح ما أثبتناه.

يقدر ما يخرج أحدهما يدخل الآخر وبالعكس.
ومنها:
الغنى
وهو وجود كل ما يحتاج إليه من الأموال، وهذا أقل مراتبه، وفوق ذلك مراتب لا تحصى، حتى ينتهي إلى جمع أكثر أموال الدنيا، كما اتفق لبعض الملوك.
ثم (الغني) إما أن يكون بحيث يسعى في طلب المال وجمعه ويتعب في تحصيله ويكره خروجه عن يده ويتأذى به، وهذا غني حريص. أو يكون بحيث لا يتعب ولا يسعى في تحصيله، إلا أنه لما أتاه أخذه وفرح به، مع تأذيه بفقده وكراهته له، وهذا أيضا لا يخلو عن الحرص لحزنه بفقده.
أو يكون بحيث لا يتعب في طلبه ولا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ويتأذى بفقده، ولكن لما أتاه رضي به: إما مع تساوي وجوده وعدمه أو مع كون وجوده أحب إليه من عدمه، ومثله الغني الراضي والقانع.
وأيضا الغني إما أن يكون جميع ماله حلالا، أو يكون بعضه أو كله حراما.
وأيضا إما يمسكه غاية الامساك، بحيث لا يؤدي شيئا من حقوقه الواجبة والمستحبة، أو ينفقه في مصارفه اللائقة. وللإنفاق مراتب شتى: أدناها أن يؤدي الحقوق الواجبة، وأعلاها أن يبذل كل ما يزيد عن أقل مراتب الغنى، بحيث لو تعدى عنه يسيرا صار فقيرا.
فصل
ذم الغنى
الغنى الحاصل من الحلال، مع بذل ما يفضل عن أقل مرتبته في المصارف اللائقة ومساواة وجوده وعدمه عند صاحبه، سالم من الآفات والأخطار.
وغير ذلك من أقسامه لا يخلو عن آفة أو خطر، وحبه بعض أفراد حب الدنيا، بل هو راجع إلى حب المال بعينه. فيدل على ذمه ما ورد في ذمهما.
وقد ورد في ذمه بخصوصه بعض الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:
" إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " (٤٦).

----

(٤٦) العلق، الآية: ٦ - ٧.

وقيل لرسول الله (ص): أي أمتك أشر؟ قال: " الأغنياء ". وقال (ص) لبلال: " إلق الله فقيرا، ولا تلقه غنيا ". وقال (ص): " يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام ". وقال (ص): " اطلعت على الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء. واطلعت على النار، فرأيت أكثر أهلها الأغنياء ". وفي طريق: " فقلت: أين الأغنياء؟ فقال: حسبهم الجد "

وأوحى الله تعالى إلى موسى: " يا موسى، إذا رأيت الفقر مقبلا، فقل: مرحبا بشعار الصالحين. وإذا رأيت الغني مقبلا، فقل: ذنب عجلت عقوبته ".

وروي: " إنه ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك ". وقال عيسى (ع): " بشدة يدخل الغني الجنة ".

وصل

الفقر

ضد الغنى (الفقر). وهو فقد ما يحتاج إليه. ولا يسمى فقد ما لا حاجة إليه فقرا. فإن عمم ما يحتاج إليه ولم يخص بالمال، لكان كل موجود ممكن محتاجا، لاحتياجه إلى دوام الوجود وغيره من الحاجات المستفادة من الله سبحانه، وانحصر الغنى بواحد واجب لذاته ومفيد لوجود غيره من الموجودات، أعني الله سبحانه. فهو الغني المطلق، وسائر الأشياء الموجودة فقراء محتاجون. وقد أشير إلى هذا الحصر في الكتاب الإلهي بقوله تعالى: " والله الغني وأنتم الفقراء " (٤٧).

وإن خص بالمال لم يكن كل الناس فقراء، بل من فقد المال الذي هو محتاج إليه كان فقيرا بالإضافة إليه، والفقر بهذا المعنى هو الذي نريد بيانه هنا.

فصل

اختلاف أحوال الفقراء

(الفقير) إما أن يكون راغبا في المال محبا له، بحيث لو وجد إليه سبيلا لطلبه، ولو بالتعب والمشقة، وإنما ترك طلبه لعجزه منه، ويسمى هذا فقيرا (حريصا).

---

(٤٧) محمد (ص)، الآية: ٣٧.

أو يكون وجود المال أحب إليه من عدمه، ولكن لم يبلغ حبه له حدا يبعثه على طلبه، بل إن أتاه بلا طلب أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى سعي في طلبه لم يشتغل به، ويسمى هذا فقيرا (قانعا).

أو يكون بحيث لا يحبه ولا يرغب فيه، ويكره وجوده ويتأذى به، ولو أتاه هرب منه، مبغضا له ومحترزا عن شره، ويسمى هذا فقيرا (زاهدا). فإعراضه عنه وعدم سعيه في محافظته وضبطه لو وجده، إن كان لخوف العقاب فهو (فقر الخائفين). وإن كان لشوق الثواب فهو (فقر الراجين). وإن كان لعدم التفاته اللازم لإقباله على الله تعالى بشراشره من دون غرض دنيوي أو أخروي فهو (فقر العارفين).

أو يكون بحيث لا يحبه حبا يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه، بل يستوي عنده وجوده وعدمه، فلا يفرح بحصوله ولا يتأذى بفقده، بل كان راضيا بالحالتين على السواء، وغنيا عن دخوله وبقائه وخروجه من يده، من غير خوف من الاحتياج إذا فقد، كالحريص والقانع ولا حذار من شره وأضراره إذا وجد كالزاهد. فمثله لو كانت أموال الدنيا بأسرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه، فلا تفريق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، فيكون بحيث يستوي عنده المال والهواء المخلوق في الجو، فكما أن كثرة الهواء في جواره لا يؤذيه ولا يكون قلبه مشغولا بالفرار عنه ولا يبغضه بل يستنشق منه بقدر الضرورة ولا يبخل به على أحد، فكذلك كثرة المال لا يؤذيه ولا يشغل قلبه، ويرى نفسه وغيره فيه على السواء في المالكية.

ومثله ينبغي أن يسمى (مستغنيا راضيا)، لاستغنائه عنه وجودا وعدما، ورضائه بالحالتين من دون تفاوت، ومرتبته فوق الزاهد، إذ غاية درجة الزهد كمال الأبرار، وصاحب هذه المرتبة من المقربين فالزهد في حقه نقصان، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين. والسر فيه: أن الزاهد كاره للدنيا، فهو مشغول بالدنيا، كما إن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله، سواء كان بالحب أو بالبغض. فكل ما سوى الله، كالرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق والمعشوق. فكما إن التفات قلب العاشق إلى الرقيب وبغضه وكراهته حضوره نقص في العشق

فكذلك التفات قلب العبد إلى غير الله تعالى وبغضه وكراهته نقصان في الحب والأنس، كما أن التفاته بالحب نقص فيهما. إذ كما لا يجتمع في قلب واحد حبان في حالة واحدة، فكذلك لا يجتمع فيه حب وبغض في حالة واحدة. فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، وإن كان الثاني أسوأ حالا من الآخر. إذ المشغول يحبها غافل في غفلته، سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل، وهو في غفلته سالك في طريق القرب، فيحتمل زوال غفلته وتبدلها بالشهود، فالكمال مرتقب له، إذ بغض الدنيا مظنة توصل العبد إلى الله.

وهرب الأنبياء والأولياء من المال، وفرارهم عنه، وترجيحهم فقده على وجوده – كما أشير إليه في بعض الأخبار والآثار –: أما نزول منهم إلى درجة الضعفاء ليقتدوا بهم في الترك، إذ الكمال في حقهم حب الترك وبغض الوجود، لأن مع وجوده يتعذر في حقهم استواء وجوده وفقده وكونه عندهم كماء البحر، فلو لم يظهر الأنبياء النفار والكراهة من المال ويقتدي الضعفاء بهم في الأخذ لهلكوا. فمثل النبي كمثل المعزم الحاذق، يفر بين يدي أولاده من الحية، لا لضعفه عن أخذها، بل لعلمه بأنه لو أخذها لأخذها أولاده أيضا إذا رأوها، وهلكوا. فالسير بسيرة الضعفاء صفة الأنبياء والأوصياء. أو غير الهرب والنفار اللازمين للبغض والكراهة وخوف الاشتغال به، بل كان نفارهم منه كنفارهم من الماء، على معنى أنهم شربوا منه بقدر حاجتهم، وتركوا الباقي في الشطوط والأنهار للمحتاجين من غير اشتغال قلوبهم بحبه وبغضه. ألا ترى أنه قد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله وخلفائه، فأخذوها ووضعوها في مواضعها، من غير هرب منه وبغض له، وذلك لاستواء المال والماء والحجر والذهب عندهم.

ثم تسمية صاحب هذه المرتبة بالفقير والمستغني لا يوجب التنافي، إذ إطلاق الفقير عليه لمعرفته بكونه محتاجا إليه تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها، فإنه أحق باسم العبد من الغافلين، وإن كان عاما للخلق. ثم كل مرتبة من المراتب المذكورة للفقر، ما عدا الأخيرة، أعم من أن يكون بالغا حد الاضطرار، بأن يكون ما فقده من المال مضطرا

إليه، كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، أم لا.
وأنت، بعدما فهمت اشتراك الفقر بين المعاني المذكورة، لم يشكل عليك الجمع بين ما ورد في مدح الفقر - كما يأتي - وبين ما ورد في ذمه، كقوله (ص): " كاد الفقر أن يكون كفرا "، وقوله (ص): " الفقر الموت الأكبر ". وقول أمير المؤمنين عليه السلام: " من ابتلى بالفقر فقد ابتلى بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياء في وجهه. فنعوذ بالله من الفقر! ".

فصل

مراتب الفقر ومدحه

قد عرفت أن بعض مراتب الفقر راجع إلى الزهد، وبعضها إلى ما هو فوقه أعني الرضى والاستغناء، وبعضها إلى القناعة. ففضيلة هذه المراتب ظاهرة، والأخبار الواردة في فضيلة الزهد والرضى والقناعة تدل على فضيلة المراتب المذكورة من الفقر. وأما المرتبة الأولى المتضمنة للحرص، فهو أيضا لا يخلو عن فضيلة بالنظر إلى الغنى المتضمن له والأخبار الواردة في مدح الفقر تناول بعمومها جميع مراتبه، قال الله سبحانه:
" للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم " (٤٨). وقال:
" للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله... " الآية (٤٩).
ساق الله سبحانه الكلام في معرض المدح، وقدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة الاحصار، وفيه دلالة جلية على مدح الفقر (٥٠). وقال رسول الله (ص): " خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تصعدا في الجنة ضعفاؤها ". وقال - (ص): " اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين ". وقال (ص): " إن لي حرفتين اثنتين، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد ". وقال - صلى الله عليه وآله -: " الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خد الفرس ". وسئل عن الفقر، فقال: " خزانة من خزائن الله " وسئل عنه

----

(٤٨) الحشر، الآية: ٨.
(٤٩) البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٥٠) قال المحقق (الفيض) في (إحياء الأحياء): " لا دلالة في الآيتين على مدح الفقر، وإنما سيقتا لبيان أن مصرف المال إنما هم الفقراء المتصفون بهذه الصفات ".

ثانيا، فقال: " كرامة من الله ". وسئل عنه ثالثا، فقال: " شئ لا يعطيه إلا نبيا مرسلا أو مؤمنا كريما على الله ". وقال (ص) " إن في الجنة غرفة من ياقوتة حمراء، ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخل فيها إلا نبي فقير أو مؤمن فقير ". وقال: " يوم فقراء أمتي يوم القيامة وثيابهم خضر، وشعورهم منسوجة بالدر والياقوت، وبأيديهم قضبان من نور يخطبون على المنابر، فيمر عليهم الأنبياء، فيقولون: هؤلاء من الملائكة، وتقول الملائكة: هؤلاء من الأنبياء. فيقولون: نحن لا ملائكة ولا أنبياء! بل من فقراء أمة محمد (ص)، فيقولون: بم نلتم هذه الكرامة؟ فيقولون: لم تكن أعمالنا شديدة، ولم نصم الدهر، ولم نقم الليل، ولكن أقمنا على الصلوات الخمس، وإذا سمعنا ذكر محمد فاضت دموعنا على خدودنا ". وقال (ص): " كلمني ربي فقال: يا محمد، إذا أحببت عبدا، اجعل له ثلاثة أشياء: قلبه حزينا، وبدنه سقيما، ويده خالية من حطام الدنيا. وإذا أبغضت عبدا، اجعل له ثلاثة أشياء: قلبه مسرورا، وبدنه صحيحا، ويده مملوءة من حطام الدنيا ". وقال (ص): " الناس كلهم مشتاقون إلى الجنة، والجنة مشتاقة إلى الفقراء ". وقال (ص): " الفقر فخري ". وقال (ص): " تحفة المؤمن من الدنيا الفقر ". وقال (ص): " يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الأخ إلى أخيه في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي! ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة. أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي، فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم الغرق. فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به، ويدخله الجنة ". وقال (ص): " أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي، فإن لهم دولة "، قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: " إذا كان يوم القيامة، قيل لهم: انظروا إلى من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة ". وقال (ص): " ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟ " قالوا: بلى يا رسول الله! قال: " كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين

لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره ". ودخل (ص) على رجل فقير، ولم
ير له شيئا، فقال: " لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم ". وقال
(ص): " إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدنيا، وتكالبوا على
جمع الدراهم والدنانير، رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان،
والجور من السلطان، والجناية من ولاة الحكام، والشوكة من الأعداء " (٥١).
وورد من طريق أهل البيت عليهم السلام: " إن الله تعالى إذا أحب
عبدا ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ أفتناه. قيل: وما أفتناه؟ قال: لم
يترك له أهلا ولا مالا ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " وكل الرزق
بالحمق، ووكل الحرمان بالعقل، ووكل البلاء بالصبر ". وقال الباقر عليه
السلام: " إذا كان يوم القيامة، أمر الله تعالى مناديا ينادي بين يديه: أين
الفقراء؟ فيقوم عنق من الناس كثير، فيقول: عبادي! فيقولون: لبيك
ربنا! فيقول: إني لم أفقركم لهون بكم علي، ولكن إنما اخترتكم لمثل
هذا اليوم. تصفحوا وجوه الناس، فمن صنع إليكم معروفا لم يصنعه إلا
في فكافوه عني بالجنة ". وقال الصادق عليه السلام: " لولا إلحاح المؤمنين
على الله في طلب الرزق، لنقلهم من الحال التي هم فيها إلى حال أضيق
منها ". وقال عليه السلام: " ليس لمصاص (٥٢) شيعتنا في دولة الباطل إلا
القوت، شرقوا إن شئتم أو غربوا، لن ترزقوا إلا القوت ". وقال عليه
السلام: " ما كان من ولد آدم مؤمن إلا فقيرا ولا كافر إلا غنيا، حتى
جاء إبراهيم عليه السلام، فقال:
" ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا " (٥٣).
فصير الله في هؤلاء أموالا وحاجة ". وقال عليه السلام: " إن فقراء
المؤمنين يتقلبون في رياض الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا "، ثم قال:
" سأضرب لك مثل ذلك: إنما مثل ذلك مثل سفينتين مر بهما على عاشر،
فنظر في إحداهما فلم ير فيها شيئا، فقال اسربوها. ونظر في
الأخرى، فإذا هي موقرة، فقال: احبسوها ". وفي بعض

---

(٥١) هذه الأخبار كلها عامية، فصححناها على (إحياء العلوم)،
و (إحياء الأحياء).
(٥٢) المصاص: خالص كل شئ. قاله الجوهري.
(٥٣) الممتحنة، الآية: ٥.

الأخبار: فسر الخريف بألف عام، والعام بألف سنة. وعلى هذا، فيكون المراد من أربعين خريفا أربعين ألف ألف عام. وقال الصادق عليه السلام: " المصائب منح من الله، والفقر مخزون عند الله ": أي المصائب عطايا من الله يعطيها عباده، والفقر من جملتها مخزون عنده عزيز لا يعطيه إلا من خصه بمزيد العناية. وقال عليه السلام: " إن الله عز وجل يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيها بالمعتذر إليهم، فيقول: وعزتي وجلالي! ما أفقرتكم في الدنيا من هوان بكم علي، ولترون ما أصنع بكم اليوم، فمن زود منكم في دار الدنيا معروفا فخذوا بيده فأدخلوه الجنة "، قال: " فيقول رجل منهم: يا رب، إن أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم، فنكحوا النساء، ولبسوا الثياب اللينة، وأكلوا الطعام، وسكنوا الدور، وركبوا المشهور من الدواب. فاعطني مثل ما أعطيتهم. فيقول تبارك وتعالى: لك ولكل عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى أن انقضت الدنيا سبعون ضعفا ". وقال عليه السلام: " إن الله جل ثناؤه ليعتذر إلى عبده المؤمن المحوج في الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه، فيقول: وعزتي وجلالي! ما أحوجتك في الدنيا من هوان كان بك علي، فارفع هذا السجف، فانظر إلى ما عوضتك من الدنيا. قال: فيرفع، فيقول: ما ضرني ما منعتني ما عوضتني ". وقال عليه السلام: " إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة، فيضربوا باب الجنة، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون نحن الفقراء، فيقال لهم: اقبلوا الحساب، فيقولون: ما أعطيتمونا شيئا تحاسبونا عليه، فيقول الله عز وجل: صدقوا، ادخلوا الجنة ". وقال - لبعض أصحابه: " أما تدخل للسوق؟ أما ترى الفاكهة تباع والشئ مما تشتهيه؟ فقلت: بلى! فقال: أما إن لك بكل ما تراه فلا تقدر على شراه حسنة ". وقال الكاظم عليه السلام: " إن الله عز وجل يقول: إني لم أغن الغني لكرامة به علي، ولم أفقر الفقير لهوان به علي، وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة " (٥٤).

---

(٥٤) صححنا أغلب الأحاديث المروية عن أهل البيت - عليهم السلام - في هذا الفصل على (الكافي): باب الفقر. وعلى (سفينة البحار): ٢ / ٣٧٧. وعلى (إحياء الأحياء): كتاب الفقر.

وقال عليه السلام: " إن الأنبياء وأولاد الأنبياء وأتباع الأنبياء خصوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر ". وقال الرضا عليه السلام: " من لقي فقيرا مسلما وسلم عليه خلاف سلامه على الغني لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان ". وقال عليه السلام: " الفقر شين عند الناس وزين عند الله يوم القيامة " وقال موسى عليه السلام في بعض مناجاته: " إلهي، من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير ". وقال عيسى عليه السلام: " إن أحب الأسامي إلي أن يقال: يا مسكين ". وقال بعض الصحابة: " ملعون من أكرم الغني وأهان الفقير ". وقال لقمان لابنه: " لا تحقرن أحدا لخلقان ثيابه، قال ربك وربه واحد ". ومما يدل على فضيلة الفقر، إذا كان مع الرضى أو القناعة أو الصبر أو الصدق أو الستر، قوله (ص): " يا معشر الفقراء: أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، فإن لم تفعلوا فلا ثواب لكم ". وقوله (ص): " إن أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى ". وقوله (ص): " لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا ". وقوله (ص): " يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري، ادخلوهم الجنة. فيدخلونها، ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يترددون ". وقوله (ص): " ما من أحد، غني ولا فقير، إلا ود يوم القيامة إنه كان أوتي قوتا في الدنيا " وقوله (ص): " طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض ". وقوله (ص): " من جاع أو أحتاج، فكتمه عن الناس وأفشاه إلى الله تعالى، كان حقا على الله أن يرزقه رزق السنة من الحلال ". وقوله (ص): " إن لكل شئ مفتاحا، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصابرين، وهم جلساء الله يوم القيامة ". وما روي: " إن الله أوحى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون ". وقال رسول الله (ص) لأمير المؤمنين عليه السلام: " يا علي، إن الله جعل الفقر أمانة عند خلقه، فمن ستره أعطاه الله تعالى مثل أجر الصائم القائم، ومن

أفشاه إلى من يقدر على قضاء حاجته فلم يفعل فقد قتله أما إنه ما قتله بسيف ولا رمح ولكنه قتله بما نكأ من قلبه ".
ثم لا ريب في أن كل من لم يجد القوت من التعفف وستر احتياجه هذا وصبر ورضي يكون داخلا تحت هذه الأخبار وتثبت له الفضيلة التي وردت فيها، ولا ريب في أن هذه صفة لا توجد في ألف ألف واحد.
وأما الفقير الحريص الذي يظهر فقره ويجزع معه، فظاهر بعض الأخبار وإن تناوله، إلا أن الظاهر خروجه منها كما أومأت إليه بعض الأخبار المذكورة وإن كان أحسن حالا من الغني الذي مثله في الحرص.
فصل
الموازنة بين الفقر والغنى
لا ريب في أن الفقر مع الصبر والقناعة وقصد الفراغ أفضل من الغنى مع الحرص والإمساك، كما لا ريب في أن الغنى مع الإنفاق وقصد الاستعانة على العبادة أفضل من الفقر مع الحرص والجزع، وإنما وقع الشك في الترجيح بين الفقر والغنى في مواضع:
(الأول) في الترجيح بين الفقر مع الصبر، والقناعة والغنى مع الإنفاق وقصد الاستعانة على العبادة، فقال قوم إن الأول أفضل، لما روي: " إن رسول الله (ص) قال لأصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله تعالى من نفسه وماله، فقال: نعم الرجل هذا وليس به المراد، قالوا فمن خير الناس يا رسول الله؟ فقال: فقير يعطي جهده "، وما روي: " إن الفقراء بعثوا رسولا إلى رسول الله (ص)، فقال: إني رسول الفقراء إليك، فقال: مرحبا بك وبمن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أحبهم، فقال: قالوا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم، فقال النبي (ص): بلغ عني الفقراء إن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء: أما (الأولى) فإن في الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبي فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، (والثانية) يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء

بنصف يوم وهو خمسمائة عام. (والثالثة) إذا قال الغني: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها، فرجع إليهم، فقالوا رضينا ".

وقال آخرون: الثاني أفضل، لأن الغنى من صفات الربوبية، والفقر من لوازم العبودية، ووصف الحق أفضل من وصف العبد.

(وأجيب عنه) بأن غنى الواجب سبحانه ليس بالأسباب والأغراض، وغنى العبد بهما، إذ هو غني بوجود المال ومفتقر إلى بقائه، فأنى يكون الغنى الذي يتصف العبد به من أوصاف الربوبية، نعم الغنى بمعنى الاستغناء من وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوي كلاهما عنده يشبه أوصاف الحق، إلا أنك قد عرفت أنه نوع من الفقر، وبأن التكبر من أوصاف الربوبية، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، مع أن الأمر ليس كذلك، بل الحق إن الأفضل للعبد إنما هو صفات العبودية كالخوف والرجاء، إذ صفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال الله سبحانه: " والعظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته ". وعلى هذا فالفقر أفضل من الغنى.

والحق أن ترجيح واحد من صفات الربوبية وصفات العبودية على الآخر للعبد على الإطلاق غير صحيح، إذ كما ينتقض ترجيح الأولى على الثانية بالتكبر ينتقض العكس بالعلم والمعرفة والجهل والغفلة، فإن العلم من صفات الربوبية، والجهل من صفات العبودية، مع أن الأول أفضل من الثاني ضرورة.

والحق أن الأفضل من الفقر والغنى ما لا يشغل العبد عن الله، فإن كان الفقر يشغله فالغنى أولى به، وإن كان الغنى يشغله عن الله فالفقر أولى به، وذلك لأن الغنى ليس محذورا بعينه، بل لكونه عائقا عن الوصول إلى الله، والفقر ليس مطلوبا لذاته، بل لعدم كونه عائقا عن الله، وليس مانعية الأول وعدم مانعية الثاني كليا، إذ رب فقير يشغله الفقر عن المقصد وكم من غني لا يصرفه الغنى عنه، إذ الشاغل ليس إلا حب الدنيا، لمضادته حب الله تعالى، والمحب للشئ مشغول به، سواء كان في وصاله أو في فراقه.

فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبهما بالمال وجودا وعدما، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما. وإن تفاوتا فيه فأيهما أقل تعلقا درجته أعلى وأفضل بل مع وجود تعلق لهما وتساويهما فيه يكون وجود قدر الحاجة من المال أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة والطاعة.
ومع عدم تعلق قلبهما أصلا بحيث يستوي عندهما وجود المال وعدمه كان المال عندهما كهواء الجو وماء البحر - وبالجملة حصلت لهما المرتبة الأخيرة من الفقر، أعني الاستغناء والرضا - كان الواجد أفضل من الفاقد، لاستوائهما في عدم الالتفات إليه، ومزية الواجد باستفادة أدعية الفقراء والمساكين.
ثم الحكم بانقطاع القلب رأسا عن المال وجودا وعدما إنما يتصور في الشاذ النادر الذي لا يسمح الدهر بمثله إلا بعد أزمنة متطاولة، وقلوب جل الناس غير خالية عن حب المال والتعلق به. فتفصيل القول بأفضلية من هو أقل تعلقا بالمال، استواء درجتهما مع استوائهما في التعلق، ومزية الواجد على الفاقد مع انقطاع قلبهما بالكلمة عنه مزلة الأقدام وموضع الغرور، إذ الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فما عدا الأنبياء والأولياء وشر ذمة قليلة من أكابر الأتقياء لو ظنوا انقطاعهم عن الدنيا إذا جربوا أنفسهم بإخراج المال من أيديهم يظهر لهم أنهم مغرورون وليس لهم تمام الانقطاع عن الدنيا، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فليطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الناس وأفضل، لأنه عن الخطر أبعد، إذ فتنة السراء من فتنة الضراء أشد، وعلاقة الفقير وأنسه بالدنيا غالبا أضعف، وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب أذكاره وعبادته، إذ حركات اللسان والجوارح ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور وتأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ عن غير المذكور أشد من تأثيرها في قلب مشغول، ولهذا وردت الأخبار مطلقة في فضل الفقر على الغنى، وفي فضل الفقراء على الأغنياء.
(الثاني) في الترجيح بين الفقر مع الحرص والجزع، والغنى مع الحرص والإمساك. والتحقيق فيه أن مطلوب الفقير إن كان ما لا بد منه في

المعيشة وكان حرصه في تحصيل هذا القدر دون الزائد منه وكان قصده الاستعانة به على الدين، وكذا كان حرص الغني وإمساكه في هذا القدر بهذا القصد، فحال الوجود أفضل لأن الفقد يصده عن أمور الدين لاضطراره في طلب القوت، وهو أولى بالتفضيل إذا كان قصد الغني ذلك وكان مطلوب الفقير فوق الحاجة، أو قدر الحاجة بدون قصد الاستعانة به إلى أمر الدين. وإن كان مطلوب كل منها فوق الحاجة، أو لم يكن قصدهما الاستعانة به على أمر الدين، فالفقد أصلح وأفضل، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، وفي عدم قصد الاستعانة به على الدين، لكنهما افترقا في أن الواجد يتأكد حب الدنيا في قلبه، ويطمئن إليها لأنسه بها، والفاقد يتجافى قلبه عنها اضطرارا، أو تكون الدنيا عنده كالسجن الذي يطلب الخلاص منه. وهو أولى وأحرى بالتفضيل، إذا كان قصد الفقير ذلك وكان قصد الغنى فوق الحاجة، أو قدر بدون الاستعانة به على أمر الدين.

(الثالث) في الترجيح بين فقير حريص متكالب على الدنيا ليس له هم سواه، وغنى هو دونه في الحرص على حفظ المال، وتفجعه بفقد المال لو فقده أقل من تفجع الفقير بفقده، والظاهر حينئذ كون الفقير أسوأ حالا، إذ البعد عن الله بقدر قوة التفجع بفقد المال، والقرب بقدر ضعف التفجيع به.

فصل

ما ينبغي للفقير

ينبغي للفقير ألا يكون كارها للفقر من حيث إنه فعل الله ومن حيث أنه فقر، بل يكون راضيا به طالبا له فرحانا به لعلمه بغوائل الغنى، وأن يكون متوكلا في باطنه على الله، واثقا به في إتيان قدر ضرورته، ويكون قانعا به، كارها للزيادة عليه، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، وغير حريص على اكتساب المال كيف كان، وأن يكون صابرا شاكرا على فقره، قال أمير المؤمنين (ع): " إن لله عقوبات بالفقر، ومثوبات بالفقر، فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن

علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه، ويعصي ربه بترك طاعته، ويكثر الشكاية، ويتسخط بالقضاء "، وهذا يدل على أن كل فقير ليس مثابا على فقره، بل من يرضى بفقره، ويفرح به، ويقنع بالكفاف، ويقصر الأمل، وإن لم يرض به وتشوف إلى الكثرة وطول الأمل، وفاته عز القناعة، وتدنس بذل الحرص والطمع، وجره الحرص والطمع إلى مساوي الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروات حبط أجره وكان آثما قلبه. وينبغي أن يظهر التعفف ويستر الفقر ويستر أنه يستر، وألا يخالط الأغنياء، ولا يرغب في مجالستهم، ولا يتواضع لهم لأجل غناهم بل يتكبر عليهم. قال أمير المؤمنين عليه السلام: " ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله "، وألا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء، وطمعا بما في أيديهم، ولا يفتر بسبب فقره عن عبادة الله، ويبذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة يبذلها الغني، قال رسول الله (ص): " درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف دينار "، قيل وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف دينار يتصدق بها، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة ألف دينار "، وينبغي ألا يدخر أزيد من قدر الحاجة، فإن لم يدخر أكثر من قوت يومه وليلته فهو من الصديقين، وإن لم يدخر أكثر من قوت أربعين يوما كان من المتقين، وإن لم يدخر أكثر من قوت سنة - وهو الفضل المشترك بين الفقر والغنى - كان من الصالحين، ولو زاد عليه خرج عن زمرة الفقراء.

فصل

وظيفة الفقراء

ما يعطى الفقير بغير سؤاله: إن كان (حراما أو شبهة) وجب عليه رده والاجتناب عنه، وإن كان (حلالا)، فإن كان (هدية) استحب قبوله تأسيا برسول الله (ص) إن لم تكن فيه منة، ولو كانت فيه منة فالأولى تركه. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول له أتركه عندك،

وانظر إن كنت أنا بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وعلامة ذلك أن يشق على المعطي رده، ويفرح بالقبول، ويرى المنة على نفسه في قبوله، وإن كان (صدقة أو زكاة) أو غير ذلك مما يكون للثواب المحض فينبغي أن ينظر في استحقاقه لذلك، فإن كان من أهله قبله وإلا رده، وإن كان المعطي أعطاه لوصف يعلمه فيه كعلم أو ورع أو كونه علويا، ولو لم يكن له هذا الاختصاص لنفر طبعه، ولما تقرب إلى الله بإعطائه، ولم يكن له باطنا كذلك فأخذه حرام، وإن لم يكن هدية ولا صدقة بل أعطاه للشهرة والرياء والسمعة فينبغي أن يرد عليه ولا يقبله، وإلا كان معينا له على غرضه الفاسد، والإعانة على الإثم إثم.

فصل

موارد قبول العطاء وردها

ما يعطى الفقير إن كان محتاجا إليه ولم يكن أزيد من حاجته فالأفضل له الأخذ إذا سلم من الآفات المذكورة، قال رسول الله (ص): " ما المعطي من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا "، وقال (ص): " من أتاه شئ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه فلا يرده "، وإن كان زائدا على قدر حاجته فليرد الزائد إن كان طالبا طريق الآخرة، إذ الزيادة على قدر الحاجة إنما يأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك، فأنت في أخذ قدر الحاجة مثاب، وفيما زاد عليه إما عاص أو متعرض للحساب، قال رسول الله (ص): " لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يسكنه، فما زاد فهو حساب "، فلا ينبغي لطالب السعادة أن يأخذ الأزيد من قدر الحاجة، إذ النفس إذا رخصت في نقض العزم والعهد ألفت به، وردها بعد الألف والعادة مشكل.

والحاصل أن أخذ قدر الحاجة راجح لكونه مما لا بد منه، وإيجابه ثواب المعطي، ولذلك لما أمر موسى بن عمران (ع) بأن يفطر عند بني إسرائيل قال: إلهي ما بالي فرقت رزقي على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوما ويعشيني ذا ليلة، فأوحى الله إليه: " هكذا أصنع بأوليائي

أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم ". فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور.

وأما أخذ الزيادة على قدر الحاجة فليس مما ينبغي: نعم من كان حاله التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم، لما في طبعه من البذل والسخاء، والرفق والعطاء، فيجوز له أخذ الزيادة ليبذلها على المستحقين، ولكن يلزم أن يبادر إلى الصرف إليهم ولا ينبغي أن يدخر، إذ في إمساكه ولو في يوم واحد أو ليلة واحدة فتنة واختبار، فربما مالت النفس إلى الامساك ويصير وبالا عليها، وقد نقل أن جماعة تصدوا لخدمة الفقراء والتكفل لأحوالهم فخدعتهم النفس الأمارة بإعانة الشيطان فاتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال، والتنعم في المطعم والمشرب، وانجر أمرهم إلى الهلاك.

فصل

لا يجوز السؤال من غير حاجة

ينبغي للمؤمن ألا يسأل الناس من غير حاجة اضطر إليها، بل يستعف عن السؤال ما استطاع، لأنه فقر معجل، وحساب طويل يوم القيامة، والأصل فيه التحريم لتضمنه الشكوى من الله، وإذلال السائل نفسه عند غير الله، وإيذاء المسؤول غالبا، إذ ربما لم تسمح نفسه بالبذل عن طيب القلب، وبعد السؤال ألجأه الحياء أو الرياء إليه، ومعلوم أن الاعطاء استحياء أو رياء لئلا ينقص جاهه عند الناس بنسبتهم إياه إلى البخل لا يكون له حلية شرعا.

ولتضمنه هذه المفاسد ورد في الشريعة المنع منه، قال: رسول الله (ص): " مسألة الناس من الفواحش "، وقال (ص): " من سأل عن ظهر غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم ". وقال: " من سأل الناس وعنده قوت ثلاثة أيام لقي الله يوم يلقاه وليس على وجهه لحم " (٥٥) وقال (ص): " ما من عبد فتح على نفسه بابا من المسألة إلا فتح الله عليه سبعين بابا من

---

(٥٥) روى هذا الحديث عينه عن الصادق (ع) (الوسائل كتاب الزكاة أبواب الصدقة الباب ٣٢ الحديث ٥).

الفقر ". وقال: " إن المسألة لا تحل إلا لفقر مدقع أو غرم مفظع ".
وقال: " السؤال عن ظهر غنى صداع في الرأس، وداء في البطن ".
وقال: " من سأل الناس أموالهم تكثرا فإنما هي جمرة فليستقل منه أو ليستكثر ".
وروي: " أنه جاءت فخذ من الأنصار إلى رسول الله (ص) فسلموا عليه فرد عليهم السلام، فقالوا يا رسول الله إن لنا إليك حاجة فقال: (هاتوا حاجتكم) فقالوا إنها حاجة عظيمة فقال: (هاتوها ما هي) قالوا: تضمن لنا على ربك الجنة، فنكس رأسه، ثم نكت (٥٦) في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: (أفعل ذلك بكم على ألا تسألوا أحدا شيئا)، فكان الرجل منهم يكون في السفر فيسقط سوطه، فيكره أن يقول لانسان ناولنيه فرارا من المسألة وينزل فيأخذه، ويكون على المائدة ويكون بعض الجلساء أقرب إلى الماء منه فلا يقول ناولني حتى يقوم فيشرب " (٥٧) وبايع (ص) قوما على الإسلام، فاشترط عليهم السمع والطاعة، ثم قال لهم خفية: " لا تسألوا الناس شيئا "، فكان بعد ذلك تقع المحفرة من يد أحدهم فينزل لها ولا يقول لأحد ناولنيها. وكان (ص) يأمر غالبا بالتعفف عن السؤال، ويقول: " من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا " وقال: " وما قل من السؤال فهو خير " قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: " ومني ". وقال: " لو أن أحدكم أخذ حبلا فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويكف بها وجهه، خير له من أن يسأل ".
وقال سيد الساجدين (ع): " ضمنت على ربي أنه لا يسأل أحد أحدا من غير حاجة إلا اضطرته المسألة يوما إلى أن يسأل من حاجة " ونظر (ع) يوم عرفة إلى رجال ونساء يسألون، فقال " هؤلاء شرار خلق الله، الناس مقبلون على الله وهم مقبلون على الناس "، وقال الباقر (ع): " أقسم بالله وهو حق ما فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه

---

(٥) نكت الأرض بقضيب أو بأصبعه ضربها به حال التفكر فأكثر فيها،
(٥٧) صححنا الحديث على الوسائل (كتاب الزكاة أبواب الصدقة الباب ٣٣ الحديث ٤) وهو يرويه عن الكافي.

باب فقر "، وقال الصادق (ع): " طلب الحوائج إلى الناس استلاب (٥٨) للعز مذهبة للحياء، واليأس مما في أيدي الناس عز للمؤمن في دينه، والطمع هو الفقر الحاضر ". وقال الصادق (ع): " لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحد أحدا، ولو يعلم المسؤول ما عليه إذا منع ما منع أحدا أحدا ". وقال: " من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر ".

ثم المنع والتحريم إنما هو في السؤال بدون الاضطرار، وأما مع الحاجة والاضطرار فلا ريب في جوازه، وقد وردت به الرخصة، قال الله سبحانه:

" وأما السائل فلا تنهر " (٥٩).

وقال رسول الله: " لا تردوا السائل ولو بشق تمرة " وقال (ص): " لولا أن السائل يكذب ما قدس من ورده " وقال (ص): " للسائل حق وإن جاء على الفرس " وقال (ص): " لا تردوا السائل ولو بظلف محترق " (٦٠). ولو كان السؤال مطلقا حراما لما أجاز الله ورسوله إعانة العاصي على معصيته.

ثم الحاجة المجوزة للسؤال: ما بلغت حد الاضطرار، كسؤال الجائع الخائف على نفسه بالموت أو المرض لو لم يصل إليه قوت، وسؤال العاري الذي بدنه مكشوف ويخاف من الحر والبرد - أو لم تبلغ إليه، وهي إما حاجة (مهمة) كالاحتياج إلى الجبة في الشتاء بحيث لولاها لتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة، والاحتياج إلى الكرى مع القدرة على المشي مع المشقة، أو حاجة (خفيفة) كالاحتياج إلى الإدام مع وجود الخبز - فالظاهر جواز السؤال في جميع ذلك (مع رجحانه في الأول، وإباحته في الثاني، ومرجوحيته في الثالث)، بشرط إخلائه عن المحذورات المذكورة،

---

(٥٨) الاستلاب بمعنى السلب، وهو من باب الافتعال.

(٥٩) الضحى، الآية: ١٠.

(٦٠) صححنا أكثر الأحاديث هنا على ما في سفينة البحار الجزء الأول ص ٥٨٥ وكتاب الزكاة من الوسائل أبواب الصدقة باب ٢٣ - ٣٧ وإحياء الأحياء في كتاب الفقر.

أعني. الشكوى والذل والإيذاء، وتندفع هذه المحذورات بأن يظهر حاجته تعريضا بعد تقديم الشكر لله، وإظهار الاستغناء عن الخلق عند بعض الأصدقاء أو الأسخياء، إذ السؤال من الصديق لا يوجب الإذلال، والسخي لا يتأذى بالسؤال بل يفرح به.

ثم ما ذكر إنما هو في السؤال للاحتياج إليه بعد النسبة لما يحتاج إليه في الحال، وأما السؤال لما يحتاج إليه في الاستقبال، فإن كان يحتاج إليه بعد السنة فهو حرام قطعا، وإن كان يحتاج إليه قبلها، سواء كان بعد أربعين يوما من يومه أو خمسين أو أقل أو أكثر، فإن أمكنه السؤال عند بلوغ وقت الحاجة فلا يحل له السؤال، وإن علم بأنه لا يتمكن من السؤال عنده فهو جائز مع الكراهة والمرجوحية، وكلما كان تراخي الحاجة عن يومه أكثر كانت الكراهة أشد. ثم معرفة درجات الحاجة وضعفها وشدتها والوقت الذي يحتاج فيه موكول إلى العبد ومنوط باجتهاده ونظره لنفسه بينه وبين الله، فليعمل به بعد استغناء قلبه على ما يقتضيه سلوك طريق الآخرة، وكلما كان يقينه أقوى، وثقته بمجئ الرزق أتم، وقناعته بقوت الوقت أظهر، فدرجته عند الله أعلى.

فيا حبيبي، لا تهبط نفسك من أوج التوكل والاعتماد على الله إلى حضيض الخوف والاضطراب في مجئ رزقك، ولا تصغ إلى تخويف الشيطان، فإنه يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، وكن مطمئنا بوعد ربك، إذ قال:

" والله يعدكم مغفرة منه وفضلا " (٦١).

واسمع قول نبيك (ص) حيث قال: " لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدوا خماصا وتروح بطانا ".

ومنها:

الحرص

وهو معنى راتب في النفس، باعث على جميع ما لا يحتاج إليه ولا يفيده من الأموال، من دون أن ينتهي إلى حد يكتفى به، وهو أقوى شعب حب

---

(٦١) البقرة، الآية: ٢٦٨.

الدنيا وأشهر أنواعه. ولا ريب في كونه ملكة مهلكة وصفة مضلة، بل بادية مظلمة الأرجاء والأطراف، وهاوية غير متناهية الأعماق والأكناف، من وقع فيها ضل وباد، ومن سقط فيها هلك وما عاد. والتجربة والاعتبار والأخبار والآثار متظاهرة على أن الحريص لا ينتهي إلى حد يقف دونه، بل لا يزال يخوض في غمرات الدنيا إلى أن يغرق، وتطرحه أرض إلى أرض حتى يهلك. قال رسول الله (ص): " لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى وراءهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب ". وقال (ص): " منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال ". وقال (ص): " يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل ". وقال أبو جعفر الباقر (ع): " مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غما ". وقال الصادق (ع): " إن فيما نزل به الوحي من السماء: لو أن لابن آدم واديين يسيلان ذهبا وفضة لابتغى لهما ثالثا. يا ابن آدم، إنما بطنك بحر من البحور وواد من الأودية، لا يملأه شئ إلا التراب ". وقال بعض الأكابر: " من عجيب أمر الإنسان، إنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال ".
ثم ما ورد من الأخبار في ذمه أكثر من أن تحصى، ولا حاجة إلى إيرادها لاشتهارها. وقال الباقر (ع): " رب حريص على أمر قد شقي به حين أتاه، ورب كاره لأمر قد سعد به حين أتاه ". وأي خسران أشد من أن يسعى الإنسان في طلب به هلاكه؟ وأي تأمل في أن كلما يحرص عليه الإنسان من أموال الدنيا يكون مهلكا له؟!

وصل

القناعة

ضد الحرص (القناعة). وهي ملكة للنفس: توجب الاكتفاء بقدر الحاجة والضرورة من المال، من دون سعي وتعب في طلب الزائد عنه، وهي صفة فاضلة يتوقف عليها كسب سائر الفضائل، وعدمها يؤدي بالعبد

إلى مساوي الأخلاق والرذائل، وهي المظنة للوصول إلى المقصد، وأعظم الوسائل لتحصيل سعادة الأبد، إذ من قنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، ويقتصر على أقله قدرا أو أخسه نوعا، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بالزائد عن ذلك، كان فارغ البال مجتمع الهم فيتمكن من الاشتغال بأمر الدين وسلوك طريق الآخرة، ومن فاتته القناعة وتدنس بالحرص والطمع وطول الأمل، وخاض في غمرات الدنيا، تفرق قلبه وتشتت أمره. فكيف يمكنه التشمر لتحصيل أمر الدين والوصول إلى درجات المتقين؟ ولذلك ورد في مدح القناعة ما ورد من الأخبار، قال رسول الله (ص): " طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع به وقال: " ما من أحد، من غني ولا فقير، إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا ". وقال (ع) -: " أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له في الدنيا، وأن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة ". وقال (ص) " نفث روح القدس في روعى: إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ". وقال (ص): " كن ورعا تكن أعبد الناس، وكن قانعا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا " وفي الخبر القدسي " يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك، فأنا إليك محسن ". وروي: " إن موسى سأل ربه تعالى، وقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم لما أعطيته ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ابن آدم "، إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك، فإن كل ما فيها لا يكفيك " وقال أبو جعفر الباقر (ع): " إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك، فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله:
" فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم " (٦٢). وقال: " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا " (٦٣).

---

(٦٢) التوبة، الآية: ٥٦.
(٦٣) طه، الآية: ١٣١.

فإن دخلك من ذلك شئ، فاذكر عيش رسول الله (ص) فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده " (٦٤) وقال: " من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس ". وقال الصادق (ع) " من رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله عنه باليسير من العمل " وقال: " مكتوب في التوراة: ابن آدم، كن كيف شئت كما تدين تدان، من رضي من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤنته وزكت مكسبته وخرج من حد الفجور " وقال: " إن الله عز وجل يقول: يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه، وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه، وذلك أبعد له مني " وقال: " كلما ازداد العبد إيمانا ازداد ضيقا في معيشته ". والأخبار الواردة في فضيلة القناعة أكثر من أن تحصى، وما أوردناه كاف لأهل البصيرة.

فصل

علاج الحرص

طريق المعالجة في إزالة الحرص وتحصيل القناعة: أن يتذكر أولا ما في القناعة من المدح والشرافة، وعز النفس وفضيلة الحرية، وما في الحرص من الذم والمهانة، وتحمل الذلة ومتابعة الشهوة. ويعرف أن من لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن، فهو قليل العقل ناقص الإيمان. ثم يتذكر ما في جميع المال من الآفات الدنيوية والعقوبات الأخروية، ويكثر التأمل فيما مضى عليه عظماء الخلق وأعز أصنافهم، أعني الأنبياء والأوصياء ومن سار بسيرتهم من السلف الأتقياء، من صبرهم على القليل، وقناعتهم باليسير، وفيما يجري عليه الكفار من الهندو واليهود والنصارى وأراذل الناس وأغنيائهم وأمثالهم، من التنعم وجمع المال الكثير. وبعد هذا التأمل لا أظنه يشك في أن الاقتداء بأعز الخلائق أحسن من الاقتداء بأراذلهم، بل المتأمل يعرف أن الحريص

---

(٦٤) صححنا الحديث وما قبله على ما في (الكافي): باب القناعة، وكذا الحديثين المذكورين بعده. إلا أن هذا الحديث مروي في (الكافي) عن أبي جعفر - عليه السلام -. وروي في (الوسائل) عن كتاب الزهد، في أبواب جهاد النفس من كتاب الجهاد: الباب ٦١ الحديث ١١، ما يقرب من عبارة هذا الحديث عن أبي عبد الله - عليه السلام -.

المتكالب على لذات الدنيا خارج عن أفق الإنسانية، وداخل في جريدة البهائم إذ الحرص على شهوات البطن والفرج من لوازم البهيمية وأحرص الناس على الشهوات لا يبلغ رتبة البهائم في ذلك. فما من حريص على التنعم في البطن إلا والحمار أكثر أكلا منه، وما من حريص على الجماع إلا والخنزير أشد نزوا منه. فظهر أن الحريص في مرتبة الخنزير والحمار واليهود والهندو، والقانع لا يساهمه في الرتبة إلا الأنبياء والأولياء. وبعد التأمل في جميع ما ذكر، يتم العلاج العلمي، وبه تسهل إزالة الحرص واكتساب القناعة. فليبادر إلى العلاج العملي، وهو العمل بالاقتصاد في أمر المعيشة، ليسد أبواب الخرج ما أمكن، ورد النفس إلى ما لا بد منه. فإن من كثر خرجه واتسع إنفاقه، لم تمكنه القناعة، فإن كان وحده، اكتفى بثوب خشن، ويقنع بأي طعام كان ويقلل من الأدام ما أمكنه، وهكذا الحال في سائر ما يضطر إليه ويوطن نفسه عليه. وإن كان له عيال رد كل واحد منهم إلى هذا القدر. وإذا بنى أمره على الاقتصاد، لم يحتاج إلى كثير جهد وإن كان معيلا. قال رسول (ص) " ما عال من اقتصد " (٦٥). وقال (ص): " ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغناء والفقر، والعدل في الرضا والغضب " وقال: " التدبير نصف المعيشية ". وقال: " من اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله ". وقال: " الاقتصاد، وحسن الصمت، والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام " القصد مثراة والسرف متواة " (٦٦) وقال السجاد عليه السلام -: " لينفق الرجل بالقصد وبلغة الكفاف، ويقدم منه الفضل لآخرته، فإن ذلك أبقى للنعمة، وأقرب إلى المزيد من الله تعالى، وأنفع في العافية ". وقال الصادق عليه السلام: " إن القصد أمر يحبه الله، وإن السرف أمر يبغضه الله،

----

(٦٥) روى في (سفينة البحار): ٢ / ٤٣١، عن أمير المؤمنين - عليه السلام - مثل هذا الحديث هكذا: " ما عال امرؤ اقتصد ". وكذا في (بحار الأنوار): ٢ مج ١٥ / ١٩٩.

(٦٦) صححنا الحديث على ما في (الوافي): ٥ / ٢٩٥، قال فيه: " كلاهما بكسر الميم: اسم آلة من الثروة. والتوى - بالمثناة - بمعنى الهلاك والتلف ".

حتى طرحك النواة، فإنها تصلح لشئ، وحتى صبك فضل شرابك " (٦٧).
وقال (ع) " ضمنت لمن أقصد ألا يفتقر " وقال (ع) -: " إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغناء " والأخبار في مدح الاقتصاد أكثر من أن تحصى.
ثم إذا تيسرت له المعيشة في الحال، فلا ينبغي أن يكون مضطربا لأجل الاستقبال، ويعتمد على فضل الله ووعده بأن الرزق الذي قدر له يأتيه وإن لم يكن حريصا ولا مضطربا لأجله ولا يعلم لنفسه مدخلا يأتي رزقه منه وقال الله تعالى:
" وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " (٦٨).
وقال: " ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب " (٦٩).
وقال رسول الله (ص) " أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب "
ثم ينبغي ألا ينظر إلى من هو فوقه، بل ينظر إلى من هو دونه في التنعم وفي مال الدنيا، فإن الشيطان يصرف نظره في أمر الدنيا إلى من هو فوقه ويقول: لم تفتر عن طلب الدنيا وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس ويصرف نظره في أمر الدين إلى من هو دونه، ويقول: لم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك ولا يخاف الله؟ قال أبو ذر (ره): " أوصاني خليلي رسول الله أن أنظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوقي في الدنيا وقال (ص): إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ".
ومنها:
الطمع
وهو التوقع من الناس في أموالهم، وهو أيضا من شعب حب الدنيا ومن أنواعه، ومن الرذائل المهلكة. قال رسول الله: " إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " إستغن عمن شئت تكن نظيره، وارغب إلى من شئت تكن أسيره

---

(٦٧) صححنا الحديث على ما في (الوافي): ٥ / ٢٤٥.
(٦٨) هود، الآية: ٦.
(٦٩) الطلاق، الآية: ٢ - ٣.

وأحسن إلى من شئت تكن أميره ". وقال الباقر (ع) " بئس العبد عبد له طمع يقوده " وبئس العبد عبد له رغبته تذله " وقيل للصادق (ع) ما الذي يثبت الإيمان في العبد: قال: " الورع، والذي يخرجه منه الطمع " (٧٠) والأخبار في ذم الطمع كثيرة، وكفى به ذما أن كل طامع يكون ذليلا مهينا عند الناس، وأن وثوقه بالناس واعتماده عليهم أكثر من وثوقه بالله، إذ لو كان اعتماده على الله أكثر من اعتماده على الناس لم يكن نظره إليهم، بل لم يطمع من أحد شيئا إلا من الله سبحانه.

وصل

الاستغناء عن الناس

ضد الطمع و (الاستغناء عن الناس). وهو من الفضائل الموجبة لتقرب العبد إلى الله سبحانه، إذ من استغنى بالله عن غير الله أحبه الله. والأخبار الآمرة بالاتصاف به والمادحة له كثيرة. قال رسول الله (ص): " ليس الغنى عن كثرة العروض، إنما الغنى غنى النفس ". وقال لأعرابي طلب منه موعظة: " إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا، واجمع اليأس عما في أيدي الناس ". وقال (ص): " عليك باليأس عما في أيدي الناس، فإنه الغني الحاضر ". وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - " ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك " وقال سيد الساجدين (ع): " رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في أيدي الناس، ومن لم يرج الناس في شئ، ورد أمره إلى الله تعالى في جميع أموره، استجاب الله تعالى له في كل شئ ". وقال الباقر (ع): " سخاء المرء عما في أيدي الناس أكثر من سخاء النفس والبذل، ومروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء، وخير المال الثقة بالله واليأس مما في أيدي الناس ".

---

(٧٠) صححنا الحديث على (الكافي) في باب الطمع كما أثبتناه، لكن في (سفينة البحار): ٢ / ٩٣، رواه عن الصادق - عليه السلام - هكذا: " قال: قلت: ما الذي يثبت الإيمان في قلب العبد؟ قال: الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرجه منه الطمع ".

وقال (ع): " اليأس مما في أيدي الناس عز المؤمن في دينه ". وقال الصادق (ع): " شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس ".
وقال (ع): " شيعتنا من لا يسأل الناس، ولو مات جوعا ". وقال (ع): " ثلاث هن فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولايته للإمام من آل محمد - عليهم السلام - ".
وقال (ع): " إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئا إلا أعطاه، فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه، لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه " (٧١). ثم طريق العلاج في قطع الطمع وكسب الاستغناء قريب مما ذكر في علاج إزالة الحرص وتحصيل القناعة، فتذكر.
ومنها:
البخل
وهو الامساك حيث ينبغي البذل، كما أن الإسراف هو البذل حيث ينبغي الامساك، وكلاهما مذمومان، والمحمود هو الوسط، وهو الجود والسخاء: إذ لم يؤمر رسول الله (ص) إلا بالسخاء، وقيل له:
" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " (٧٢).
وقال تعالى: " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (٧٣) فالجود وسط بين الإقتار والإسراف، وبين البسط والقبض، وهو تقدير البذل والإمساك بقدر الواجب اللائق. ولا يكفي في تحقق الجود والسخاء أن يفعل ذلك بالجوارح ما لم يكن قلبه طيبا غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يضايرها فهو متسخ وليس بسخى، بل ينبغي ألا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب أو ينبغي صرفه إليه.

----

(٧١) صححنا الأحاديث هنا - ابتداء من الحديث المروي عن علي عليه السلام - على (الكافي): باب الاستغناء عن الناس. و (الوسائل): كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، الباب ٣٧.
(٧٢) الإسراء، الآية: ٢٩.
(٧٣) الفرقان، الآية: ٦٧.

فصل

ذم البخل

البخل من ثمرات حب الدنيا ونتائجه، وهو من خبائث الصفات ورذائل الأخلاق. ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار. قال الله سبحانه:

" الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله... " الآية (٧٥). وقال الله تعالى: " ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة " (٧٦). وقال رسول الله (ص): " إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ". وقال (ص): " لا يدخل الجنة بخيل، ولا خب، ولا خائن، ولا سئ الملكة ". وقال (ص): " البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. وجاهل سحي أحب إلى الله من عابد بخيل، وأدوى الداء البخل، (٧٧). وقال (ص): " الموبقات ثلاث: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه ". وقال (ص): " إن الله يبغض الشيخ الزاني، والبخيل المنان، والمعيل المختال ". وقال (ص) " إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، ومرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا " (٧٨). وقال (ص): " البخل شجرة تنبت في النار، فلا يلج النار إلا بخيل ". وقال: " خلق البخل من مقتة، وجعل رأسه راسخا في أصل شجرة الزقوم، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار. إلا أن البخل من الكفر، والكفر في النار ". وقتل في الجهاد رجل من أصحاب رسول الله (ص) فبكته باكية، وقالت: واشهيداه!

---

(٧٥) النساء، الآية: ٣٦.

(٧٦) آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٧٧) الأحاديث كلها عامية، صححناها على (إحياء العلوم) وإحياء الأحياء).

(٧٦) صححنا الحديث (على البحار): ج ٣ من المجلد الخامس عشر ص ١٤٣، وكذا الحديث المتقدم.

فقال النبي (ص): " ما يدريك أنه شهيد؟ فلعله كان يتكلم بما لا يعنيه، أو يبخل بما لا ينقصه ". وقال (ص): " إن الله يبغض البخيل في حياته والسخي عند موته ". وقال (ص): " السخي الجهول أحب إلى الله عز وجل من العابد البخيل ". وقال: " الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد ". وقال أيضا: " خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق ". وقال (ص): " لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا ".

وقال (ص): " يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم. وأي ظلم أظلم عند الله من الشح؟ حلف الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل ". وقال: " اللهم إني أعوذ بك من البخل! ". وروي " أنه (ص) كان يطوف بالبيت، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي! قال رسول الله (ص): وما ذنبك؟ صفه لي. قال: هو أعظم من أن أصفه لك. قال: ويحك! ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال بل ذنبي يا رسول الله. قال (ص): ويحك! ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال (ص): فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله قال (ص): فذنبك أعظم أم السماوات؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال: ذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال: ذنبك أعظم أم الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى وأجل. قال: ويحك! فصف لي ذنبك. قال: يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال، وإن السائل ليأتيني ليسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من النار. فقال رسول الله (ص): إليك عني! لا تحرقني بنارك! فوالذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثم صليت ألفي ألف عام، وبكيت حتى تجري من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم، لأكبك الله في النار! ويحك! أما علمت أن الله يقول. " ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه " (٧٩). " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "؟! (٨٠).

وقال أمير المؤمنين (ع): " سيأتي على الناس زمان عضوض، يعض

---

(٧٩) محمد، الآية: ٣٨.

(٨٠) الحشر، الآية: ٩. التغابن، الآية: ١٦.

المؤمن على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالى:
" ولا تنسوا الفضل بينكم " (٨١).
وروي: " أنه ما من صباح إلا وقد وكل الله تعالى ملكين يناديان:
اللهم اجعل لكل ممسك تلفا، ولكل منفك خلفا! ". والأخبار في ذم البخل أكثر من أن تحصى، مع أن تضمنه للمفاسد الدنيوية والأخروية مما يحكم به الوجدان ولا يحتاج إلى دليل وبرهان، حتى أن النظر إلى البخيل يقسي القلب، ومن كان له صفاء سريرة، يكرب قلبه ويظلم من ملاقاته، وقد قيل: (أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه).

وصل

السخاء

ضد البخل (السخاء). وقد عرفت معناه، وهو من ثمرة الزهد، كما أن البخل من ثمرة حب الدنيا. فينبغي لكل سالك لطريق الآخرة أن يكون حاله القناعة إن لم يكن له مال، والسخاء واصطناع المعروف إن كان له مال. ولا ريب في كون الجود والسخاء من شرائف الصفات ومعالي الأخلاق، وهو أصل من أصول النجاة، وأشهر أوصاف النبيين، وأعرف أخلاق المرسلين. وما ورد في مدحه خارج عن حد الاحصاء، قال رسول الله (ص): " السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصنا قاده ذلك الغصن إلى الجنة ". وقال (ص): " إن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة ". وقال (ص): " السخاء شجرة تنبت في الجنة، فلا يلج الجنة إلا سخي ". وقال (ص): " قال الله سبحانه: إن هذا دين ارتضيته لنفسي، وإن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم ". وقال (ص): " ما جعل الله أولياءه إلا على السخاء وحسن الخلق ". وقال (ص): " إن من موجبات المغفرة: بذل الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام ". وقال (ص): " إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار ". وقال (ص):

----

(٨١) البقرة، الآية ٢٣٧.

" تجافوا ن ذنب السخي، فإن الله آخذ بيده كلما عثر ". وقال (ص):
" طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء " (٨٢). وقال (ص): " خلقان
يحبهما الله، وهما: حسن الخلق، والسخاء ". وقال (ص): " إن الله
جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها ". وقال (ص):
" الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير، وإن الله
تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة (ع): ". وقال (ص): " إن عبادا
يخصهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع عن العباد، نقلها الله عنه
وحولها إلى غيره ". وقال (ص): " الجنة دار الأسخياء ". وقال (ص):
" لشاب سخي مرهق في الذنوب، أحب إلى الله من شيخ عابد بخيل " (٨٣).
وقال (ص): " اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله، فإن
أصبت أهله فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله ".
وقال (ص): " إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن
دخلوها بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للمسلمين ". وقال
- صلى الله عليه وآله وسلم -: " إن الله عز وجل جعل للمعروف وجوها
من خلقه، حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله، ووجه طلاب المعروف
إليهم ويسر عليهم إعطاءه، كما ييسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي
بها أهلها ". (ص): " السخي محبب في السماوات ومحبب في الأرضين،
خلق من طينة عذبة، وخلق عينيه ما الكوثر، والبخيل مبغض في السماوات مبغض
في الأرضين، خلق من طينة سبخة، وخلق ماء عينيه من ماء العوسج ".
وقال (ص): " إن أفضل الناس إيمانا أبسطهم كفا ". وقال (ص):
" يؤتى يوم القيامة برجل، فيقال: احتج، فيقول: يا رب، خلقتني
وهديتني، وأوسعت علي فلم أزل أوسع على خلقك، وأنشر عليهم لكي
تنشر علي هذا اليوم رحمتك وتيسره. فيقول الرب - تعالى ذكره -:
صدق عبدي، أدخلوه الجنة ". وروي: " إنه أتى النبي (ص) وفد
من اليمن، وفيهم رجل كان أعظمهم كلاما وأشدهم استقصاء في محاجة النبي

---

(٨٢) (البحار): ٢ مج ١٥ / ٢٢١، باب السخاء والسماحة.
(٨٣) صححنا الحديث على (البحار) في الموضع المتقدم: (الشحيح)
بدل (البخيل).

- صلى الله عليه وآله وسلم -: فغضب النبي حتى التوى عرق الغضب بين عينيه، وتربد وجهه وأطرق إلى الأرض، فأتاه جبرئيل (ص) فقال: ربك يقرئك السلام، ويقول لك: هذا رجل سخي يطعم الطعام. فسكن عن النبي (ص): الغضب، ورفع رأسه، وقال: لولا أن جبرئيل أخبرني عن الله عز وجل إنك سخي تطعم الطعام لشردت بك، وجعلتك حديثا لمن خلفك! فقال له الرجل: إن ربك يحب السخاء؟ فقال: نعم! فقال: إني أشهد ألا إله إلا الله، وإنك رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا رددت عن مالي أحدا " (٨٥)، وقال (ص): " كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها ". (ص): " كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله، والله تعالى يحب إغاثة اللهفان ". وروي: " أنه أوحى الله إلى موسى (ع): لا تقتل السامري، فإنه سخي " (٨٥). وقال عيسى (ع): " استكثروا من شئ لا تأكله النار "، قيل: وما هو؟ قال: " المعروف ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده، يخلف الله له ما أنفق في دنياه، ويضاعف له في آخرته " (٨٦). وقال الباقر (ع): " إن الشمس لتطلع ومعها أربعة أملاك: ملك ينادي: يا صاحب الخير أتم وأبشر، وملك ينادي: يا صاحب الشر أنزع وأقصر، وملك ينادي: أعط منفقا خلفا وآت ممسكا تلفا، وملك ينضح الأرض بالماء ولولا ذلك اشتعلت الأرض ". وقال الصادق (ع) لبعض جلسائه: " ألا أخبرك بشئ تقرب به من الله وتقرب من الجنة وتباعد من النار؟ "، فقال: بلى. فقال: " عليك بالسخاء ". وقال: " خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم. ومن خالص الإيمان: البر بالأخوان والسعي في حوائجهم، وأن البار بأخوان ليحبه الرحمن، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتزحزح

---

(٨٤) صححنا الحديث على (سفينة البحار): ١ / ٦٠٧، وعلى (الوافي: ٥ / ٢٩٣، في باب الجود والبخل، لكن بينهما اختلاف يسير، فرجحنا تصحيح الحديث على ما في (السفينة).

(٨٥) الروايات كلها عامية، صححناها على أحياء العلوم: ٣ / ٢١٠.

(٨٦) صححنا الحديث على (الوافي): ٥ / ٢٩٤، باب الجود والبخل.

عن النيران ودخول الجنان ". وقال الكاظم (ع): " السخي الحسن الخلق في كنف الله، لا يستخلي الله منه حتى يدخله الجنة. وما بعث الله نبيا ولا وصيا إلا سخيا، ولا كان أحد من الصالحين إلا سخيا، وما زال أبي يوصيني بالسخاء حتى مضى ".

فصل

معرفة ما يجب أن يبذل

لعلك تقول: إنك قلت: السخاء هو الوسط بين الإقتار والإسراف، وهو صرف المال إلى ما يجب أو ينبغي صرفه إليه، وهذا غير كاف لمعرفة حد السخاء، لتوقفه على معرفة ما يجب أو ينبغي، وهو عندنا مبهم.

قلنا: ما يجب أو ينبغي يتناول الواجب واللائق بحسب الشرع والمروة والعادة. فالسخي هو الذي يؤدي واجب الشرع وواجب المروة والعادة جميعا، فإن منع واحدا منها فهو بخيل، وإن كان الذي يمنع واجب الشرع أبخل. ثم ما يجب بذله شرعا مضبوط معين، من الزكاة والخمس وغيرهما من أطيب ماله أو وسطه دون الخبيث منه، والإنفاق على أهله وعياله على قدر احتياجهم. فمن أدى جميع ذلك فقد أدى الواجب الشرعي، ويستحق اسم السخي شرعا، إذا كان الأداء بطيبة من قلبه، من دون أن يشق عليه، إذ لو شق عليه ذلك كان بخيلا بالطبع ومتسخيا بالتكلف. وأما ما يجب مروة وعادة، فهو ترك المضايقة في بذل ما يستقبح المضايقة فيه عرفا وعادة وهو يختلف في الأحوال والأشخاص، فتستقبح من الغني المضايقة ما لا يستقبح من الفقير، ومع الأهل والأقارب ما لا يستقبح مع الأجانب، ومع الجار ما لا يستقبح من البعيد، وفي الضيافة ما لا يستقبح أقل منه في المبايعة والمعاملة، ويستقبح من المضايقة في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها. وبالجملة: يختلف ذلك بما فيه المضايقة من ضيافة أو معاملة، وبما فيه المضايقة من طعام أو ثوب أو فرش أو غير ذلك، وبمن معه المضايقة من صديق أو قريب أو جار أو أجنبي أو بعيد، وبمن منه المضايقة من غني أو فقير أو أمير أو رعية أو عالم أو جاهل أو صبي أو كامل. فالسخي هو الذي لا يمنع حيث ينبغي ألا يمنع شرعا أو مروة أو عادة، والبخل من

يمنع شيئا مما ينبغي ألا يمنع شرعا أو مروة أو عادة. ولا يمكن التنصيص على مقدار ذلك، فلعل حد البخل هو إمساك لغرض ذلك الغرض أهم من حفظ المال، وفي مقابله الجود والسخاء.

ثم من يؤدي الواجب ويحفظ العادة والمروة، ولكن له مال كثير قد جمعه، لا يصرفه إلى المحتاجين ولا ينفقه في الصدقات المستحبة ليكون له عدة على نوائب الزمان، وإن لم يكن بخيلا عند عوام الخلق، ولكنه بخيل عند أهل الفطانة والكياسة. إذ التبري عن البخل والاتصاف بصفة الجود والسخاء لا يتحقق عندهم ما لم يبذل زيادة على قدر واجب الشرع وواجب المروة والعادة اللائقة به، لطلب الفضيلة والثواب، ونيل الدرجات في الآخرة، وتختلف هذه الزيادة باختلاف مقدار ماله، وباختلاف حاجة المحتاجين وصلاحهم وورعهم. فاتصافه بالجود، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير، وتختلف درجات ذلك. فاصطناع المعروف أمر وراء ما توجبه العادة والمروة، وهو الجواد بشرط أن يكون عن طيبة من النفس، ولا يكون لأجل غرض، من خدمة أو مدح وثناء. إذ من يبذل المال بعوض المدح والثناء أو غيره فليس بجواد، بل هو بياع يشتري المدح بماله، لكون المدح ألذ عنده من المال.

فالجواد هو بذل الشئ عن طيبة من القلب من غير غرض، وهذا وإن كان حقيقة، إلا أنه لا يتصور في غير حق الله، إذ ما من إنسان يبذل الشئ إلا لغرض، لكن إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة، ورفع الدرجات، واكتساب فضيلة الجود، وتطهير النفس عن رذيلة البخل، سمي جوادا، وإن كان غرضه شيئا من الأمور الدنيوية لم يسم جوادا.

تنبيه

الإيثار

أرفع درجات الجود والسخاء (الإيثار)، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه. قال الله سبحانه في معرض الثناء على أهل الإيثار: " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " (٨٧).

----

(٨٧) الحشر، الآية: ٩.

وقال رسول الله (ص): " أيما أمرؤ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه، غفر له ".

وكان الإيثار من شعار رسول الله (ص)، ولقد قالت بعض زوجاته: " أنه (ص) ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولم شئنا لشبعنا، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا ". وروي: " أن موسى بن عمران قال: يا رب، أرني بعض درجات محمد وأمته. قال: يا موسى، إنك لن تطيق ذلك، لكني أريك منزلة من منازله، جليلة عظيمة، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي. قال (٨٨): فكشف له عن ملكوت السماوات، فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله، فقال: يا رب، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال تعالى: بخلق اختصصته به من بينهم، وهو الإيثار. يا موسى، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء ". وسئل الصادق (ع): " أي الصدقة أفضل؟ قال (ع): " جهد المقل. أما سمعت قول الله عز وجل: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ ". وإيثار علي (ع) غيره في جميع أوقات عمره مشهور، وفي الكتب مسطور. ولقد آثر حياة رسول الله (ص) على حياته ليلة المبيت، فباهى الله به الملائكة، وأنزل فيه: " ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله " (٨٩).

ولقد كان الخواص من شيعته والمقتدون به في سنته وسيرته، يجتهدون في المحافظة على هذه الفضيلة مهما أمكن.

فصل

علاج مرض البخل

علاج مرض البخل يتم بعلم وعمل. والعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلف إلى أن يصير طبعا له. فكل طالب لإزالة البخل وكسب الجود ينبغي أن يكثر التأمل في أخبار ذم البخل ومدح السخاء، وما توعد الله به على البخل من العذاب

---

(٨٨) أي الراوي.

(٨٩) البقرة، الآية: ٢٠٧.

العظيم، ويكثر التأمل في أحوال البخلاء وفي نفرة الطبع عنهم، حتى يعرف بنور المعرفة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة. ثم يكلف نفسه على البذل ومفارقة المال، ولا يزال يفعل ذلك إلى أن يهيج رغبته في البذل، وكلما تحركت الرغبة ينبغي أن يجتنب الخاطر الأول ولا يتوقف، لأن الشيطان بعده الفقر ويخوفه ويوسوسه بأنواع الوساوس الصادة عن البذل.

ولو كان مرض البخل مزمنا غير مندفع بما مر، فمن معالجاته أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالجود، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في الاشتهار بصفة الجود، فيكون قد زال عن نفسه رذيلة البخل واكتسب خبث الرياء، ولكن يتعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الشهرة والاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلى الصبي عند فطامه عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها، لا لكون اللعب مطلوبا بذاته، بل لينتقل من الثدي إليه ثم ينتقل عنه إلى غيره. فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض حتى يندفع الجميع، فتسلط الشهوة على الغضب حتى تكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة حتى تكسر رعونتها به. وقد جرت سنة الله بدفع المؤذيات والمهلكات بعضها ببعض، إلى أن يندفع الجميع، سواء كانت من الصفات المؤذية أو من الأشخاص المؤذية من الظلمة والأشرار، ألا ترى إنه يسلط الظالمين والأشرار بعضهم على بعض إلى أن يهلك الجميع؟

ومثال ذلك - كما قيل -: إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا، ثم يأكل بعض الديدان بعضا، إلى أن يرجع إلى اثنين قويين، ثم لا يزالان يتقابلان ويتعارضان، إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيأكله ويسمن به، ثم لا يزال يبقى وحده جائعا إلى أن يموت. فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعض على بعضها حتى يقمعها، فيجعل الأضعف قوتا للأقوى، إلى أن لا تبقى إلا واحدة. ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة، وهو منع القوت منها، أي عدم العمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة آثارا، فإذا خولفت خمدت وماتت. مثلا البخل يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه

وبذل المال مع الجهد والمشقة مرة بعد أخرى، ماتت صفة البخل وصارت صفة البذل طبعا، وسقط التعب والمشقة فيه.
ثم العمدة في علاجه أن يقطع سببه، حب المال، وسبب حب
المال: أما حب الشهوات التي يتوقف الوصول إليها على المال مع طول الأمل إذ لو لم يكن له طول أمل وعلم أنه يموت بعد أيام قلائل ربما لم يبخل بماله أو ادخاره وإبقاؤه لأولاده، فإنه يقدر بقاءهم كبقاءِ نفسه، فيمسك المال لأجلهم، أو حبه عين المال من حيث إنه مال فيجب، فإن بعض الناس من المشايخ والمعمرين يكون له من المال ما يكفيه لغاية ما يتصور من بقية عمره وتزيد مع أموال كثيرة، ولا ولد له ليحتاط لأجله، مع ذلك لا تسمح نفسه بإخراج مثل الزكاة ومداواة نفسه عند المرض، بل هو محب للدنانير، عاشق لها، يتلذذ بوجودها في يده، مع علمه بأنه عن قريب يموت، فتضيع أو تأخذها أعداؤه، ومع ذلك لا تسمح نفسه بأن يأكل منها أو يتصدق ببعضها.
وهذا مرض عسر العلاج، لا سيما في كبر السن، إذ حينئذ يكون المرض مزمنا والطبيعة المدافعة له قاصرة والبدن ضعيفا. ومثله مثل من عشق شخصا فأحب رسوله، ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فإن الدنانير
رسول مبلغ إلى الحاجات. وهي محبوبة من هذه الحيثية،
لا من حيث إنها دنانير، فمن نسي الحاجات صارت الدنانير محبوبة عنده في نفسها، فهو في غاية الضلالة والخسران، بل من رأى بين الفاضل منها عن قدر الحاجة وبين الحجر فرقا، فهو في غاية الجهل.
ثم لما كان الطريق في قطع سبب كل علة أن يواظب على ضد هذا السبب، فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، ويعالج التفات القلب إلى الأولاد بأن الذي خلقهم خلق أرزاقهم، وكم من ولد لم يرث مالا من أبيه وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم إن ولده إن كان تقيا صالحا فيكفيه الله، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته عليه، ويعالج حب المال من حيث إنه مال، بأن يتفكر في مقاصد المال وإنه لماذا خلق، فلا يحفظ منه إلا بقدر حاجته، ويبذل الباقي على المستحقين وليبقى له ثوابه في الآخرة.

تذنيب
إعلم أن بذل الأموال وإنفاقها المترتب على صفة الجود والسخاء يتناول أمورا: بعضها واجب، وبعضها مندوب. وقد ورد في فضيلة كل منها بخصوصه أخبار، فلا بد لنا أن نشير إلى ذلك تأكيدا لبيان فضل السخاء، وإلى بعض ما لها من الآداب والدقائق الباطنة، ونحيل ما لها من الأحكام والشروط الظاهرة إلى كتب الفقه، فنقول:
أما الأمور الواجبة، فأولها:
الزكاة
والآيات والأخبار الواردة في ذم تاركها ومدح فاعلها كثيرة. قال الله سبحانه:
" فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " (٩٠). وقال تعالى: " والذين يكنزون الذهب الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم " (٩١).
ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج الزكاة، كما ورد عن أهل البيت - علهم السلام -، وأجمع عليه المفسرون. وقال رسول الله (ص): " إذا منعت الزكاة منعت الأرض بركاتها ". وقال الباقر (ع): " إن الله عز وجل قرن الزكاة بالصلاة، قال:
" قأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (٩٢).
فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة، فلم يقم الصلاة ". وقال الصادق (ع):
" ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله، إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر، وسلط عليه شجاعا أقرع يريده وهو يحيد عنه، فإذا رأى أنه لا يتخلص منه، أمكنه من يده، فقضمها كما يقضم الفحل، ثم يصير طوقا في عنقه، وذلك قول الله تعالى:
" سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة " (٩٣).
وما من ذي إبل أو غنم أو بقر يمنع زكاة ماله، إلا حبسه الله

---

(٩٠) و (٩١) الحج، الآية: ٧٨. المجادلة، الآية: ١٣.
(٩٢) التوبة، الآية: ٣٥.
(٩٣) آل عمران، الآية، ١٨٠.

بيوم القيامة بقاع قرقر، تطأه كل ذات ظلف بظلفها، وتنهشه كل ذات ناب بنابها: وما من ذي مال نخل أو كرم أو زرع يمنع زكاتها، إلا طوقه الله تعالى ريعة أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة " (٩٤). وقال (ع):
" ما فرض الله على هذه الأمة شيئا أشد عليهم من الزكاة، وفيها تهلك عامتهم ". وقال: " من منع قيراطا من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قوله تعالى:
" قال رب ارجعون، لعلي أعمل صالحا فيما تركت " (٩٥).
وقال (ع): " إنما وضعت الزكاة اختيارا للأغنياء، ومعونة للفقراء.
ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم، ما بقي مسلم فقيرا محتاجا، ولاستغنى بما فرض الله له. وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق: إنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة. وما صيد صيد في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في من أدى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله ".
وقال (ع) " إن الزكاة ليس يحمد بها صاحبها، وإنما هو شئ ظاهر حقن بها دمه وسمي بها مسلما، ولو لم يؤدها لم تقبل له صلاة " (٩٦). والأخبار في فضل الزكاة وذم تاركها أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لإيقاظ الطالبين.

فصل

سر وجوب الزكاة، وفضيلة سائر الإنفاقات

السر في إيجاب الزكاة، بل فضيلة مطلق إنفاق المال، ثلاثة أمور:

----

(٩٤) قال في (الوافي): ٦ / ٢٤١، باب الزكاة: " بيان القاع):
الأرض السهلة المطمئنة. و (القرقر): الأرض المستوية اللينة. و (الشجاع) - بالضم والكسر -: الحية، أو الذكر منها، أو ضرب منها و (الفحل) - بالمهملة -: الذكر من كل حيوان، ومن الإبل خاصة، وهو المراد هنا.
(الرابع) - بكسر الراء وفتحها -: المرتفع من الأرض ".
(٩٥) المؤمنون، الآية: ٩٩ - ١٠٠.

الأول – أن التوحيد العام ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، إذ المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما تمتحن درجة الحب بمفارقة سائر المحاب، والأموال محبوبة عند الناس، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، ولأجلها يأنسون بهذا العالم، ويخافون من الموت ويتوحشون منه، مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا في صدق دعواهم الحب التام لله تعالى بمفارقتهم عن بعض محابهم، أعني المال، ولذلك قال الله سبحانه:

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " (٩٧).

ولفهم هذا السر في بذل الأموال، انقسم الناس بحسب درجاتهم في التوحيد والمحبة ثلاثة أقسام: (قسم) صدقوا التوحيد ووفوا بعهده، ولم يجعلوا قلوبهم إلا محلا لحب واحد. فنزلوا عن جميع أموالهم، ولم يدخروا شيئا من الدرهم والدينار وغيرهما من أنواع المال، ولم يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم، حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما على العوام – بحكم الشرع – فخمسة دراهم، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع. وسئل الصادق (ع): " في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: أما الزكاة الظاهرة، ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة، فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك ". و (قسم) درجتهم دون هذا، وهم الذين أمسكو أموالهم، ولكنهم راقبوا مواقيت الحاجات ومراسم الخيرات، ويكون قصدهم من الامساك الإنفاق على قدر الحاجة، دون التنعم، وصرف الفاضل عن قدر الحاجة إلى وجوه البر.

وهؤلاء لا يقتصرون على إعطاء مجرد ما يجب عليهم من الزكاة والخمس، بل يؤدون جميع أنواع البر والمعروف أو أكثرها. و (قسم) اقتصروا على أداء الواجب، فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه. وهو أدون الدرجات وأقل المراتب، وهو درجة العوام الراغبين إلى المال، لجهلهم بحقيقته وفائدته، وضعف حبهم للآخرة.

الثاني – تطهير النفس عن رذيلة البخل، فإنه من المهلكات – كما تقدم –، وإنما تزول هذه الرذيلة ببذل المال مرة بعد أخرى حتى يتعود، إذ حب الشئ لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته، حتى يصير ذلك اعتيادا.

----

(٩٧) التوبة، الآية: ١١١.

وعلى هذا، فالاتفاق يطهر صاحبه من خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

الثالث - شكر النعمة، فإن لله سبحانه على عبده نعمة في نفسه ونعمة في ماله. فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال.

وما أقبح بالغني المسلم أن ينظر إلى فقير مسلم، وقد ضيق الرزق عليه وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال، وإحواج غيره إليه، بإعطاء عشر أو ربع عشر من ماله.

فصل

الحث على التعجيل في الاعطاء

ينبغي للمعطي المنفق، عند ظهور داعية الخير من باطنه، أن يغتنم الفرصة، ويسارع إلى الامتثال، تعجيلا لإدخال السرور في قلوب الفقراء. وحذرا عن عوائق الزمان المانعة عن الخيرات، وعلما بأن في التأخير آفات، وتنبها بأن انبعاث داعية الخير لمة الملك، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، فما أسرع تقلبه، والشيطان بعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر، وله لمة عقيب لمة الملك، وصونا للفقراء عن الاضطرار إلى السؤال إذ ورد: إن الاعطاء معه مكافأة لوجهه المبذول وثمن لما أخذ منه، وليس بمعروف. وروي: " أن أمير المؤمنين (ع) بعث إلى رجل بخمسة أوساق من ثمر البغيبغة، وكان الرجل ممن ترجى نوافله، ويؤمل نائله ورفده، وكان لا يسأل عليا ولا غيره شيئا. فقال رجل لأمير المؤمنين (ع): والله ما سألك فلان شيئا! ولقد كان يجزيه من الخسة أوساق وسق واحد. فقال له أمير المؤمنين (ع): لأكثر الله في المؤمنين ضربك! أعطي أنا، وتبخل أنت! لله أنت! إذا أنا لم أعط الذي يرجوني إلا من بعد المسألة، ثم أعطيه بعد المسألة، فلم أعطه إلا ثمن ما أخذت منه، وذلك لأني عرضته أن يبذل لي وجهه الذي يعفره في التراب لربي وربه عز وجل عند تعبده له وطلب حوائجه إليه. فمن فعل هذا بأخيه المسلم، وقد عرف أنه موضع لصلته ومعروفه، فلم يصدق الله في دعائه، حيث يتمنى له الجنة

بلسانه، يبخل عليه بالحطام من ماله " (٩٨). ثم ينبغي أن يعين لأداء صدقته وقتا فاضلا، كيوم الغدير وشهر ذي الحجة، (لا) سيما العشرة الأولى، أو شهر رمضان، (لا) سيما العشرة الأخيرة. وقد ورد أن رسول الله (ص) كان أجود الخلق، وكان في رمضان كالريح المرسلة، لا يمسك فيه شيئا.

فصل

فضيلة إعلان الصدقة الواجبة

الصدقة الواجبة، أعني الزكاة، إعلانها أفضل من أسرارها - إن كان في إظهارها ترغيب للناس في الاقتداء، وأمن من تطرق الرياء، ولم يكن الفقير بحيث يستحي من أخذها علانية. قال الصادق (ع): " كلما فرض الله عليك، فإعلانه أفضل من إسراره، وكلما كان تطوعا فإسراره أفضل من إعلانه، ولو أن رجلا حمل زكاة ماله على عاتقه وعلانية، كان ذلك حسنا جميلا ". وقال في قوله تعالى:

" وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم " (٩٩):

" هي ما سوى الزكاة، فإن الزكاة علانية غير سر ". فلو دخل في نفسه الرياء مع الإظهار، أو كان الفقير يستحي من أخذها علانية، كان الأسرار بها أفضل: أما الأول: فظاهر، وأما الثاني: فلما روي: " إنه قيل لأبي جعفر الباقر (ع): الرجل من أصحابنا يستحيي من أن يأخذ من الزكاة، فاعطيه من الزكاة ولا أسمي له أنها من الزكاة. فقال: اعطه ولا تسم له، ولا تذل المؤمن ".

وبالجملة: الاعلان كما يتصور فيه فائدة الترغيب، يتطرق إليه محذور الرياء والمن والأذى، وذلك يختلف بالأحوال والأشخاص. فبالنظر إلى بعض الأحوال والأشخاص، يكون الاعلان أفضل، وبالنظر إلى بعض

---

(٩٨) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨٦، باب آداب الاعطاء. قال: (البغيبغة) ضيعة بالمدينة، و (النوافل): العطايا، و (لله أنت!): أي كن لله وأنصفني في القول.

(٩٩) البقرة، الآية: ٢٧١.

آخر، يكون الإسرار أفضل. فلا بد لكل منفق أن يلاحظ حاله ووقته، ويقابل الفائدة بالمحذور، ويختار ما هو الأفضل. ومن عرف الفوائد والغوائل، ولم ينظر بعين الشهوة، اتضح له ما هو الأولى والأليق.

فصل

ذم المن والأذى في الصدقة

ينبغي للمتصدق أن يجتنب عن المن والأذى. قال الله سبحانه:

" لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " (١٠٠). وقال: " قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى " (١٠١).

وقال رسول الله (ص): " إن تبارك وتعالى كره لي ست خصال وكرهتهن للأوصياء من ولدي وأتباعهم من بعدي: العبث في الصلاة، والرفث في الصوم، والمن بعد الصدقة، وإتيان المساجد جنبا، والتطلع في الوفد، والضحك بين القبور ".

و (المن): أن يرى نفسه محسنا. ومن ثمراتها الظاهرة: الإظهار بالاتفاق، والتحدث به، وطلب المكافأة منه، بالشكر والخدمة والتعظيم، والمتابعة في الأمور. و (الأذى): التعيير، والتوبيخ، والاستخفاف، والاستخدام، والقول السئ، وتقطيب الوجه، وهتك الستر. ثم معرفة الأذى ظاهرة، وكذا معرفة الثمرات الظاهرة للمن. وأما المن الباطني، أي رؤية نفسه محسنا، فيعرف بأن يكون استبعاده من خيانة القابض بعد العطاء أكثر من استبعاده منه قبله.

وعلاج المن: أن يعرف أن المحسن هو الفقير القابض لإيصاله الثواب والإنجاء من العذاب، وكونه نائبا عن الله تعالى، وكون ما يعطيه حقا من الله سبحانه، أحال عليه الفقير إنجازا لما وعده من الرزق. وعلاج الأذى: أن يعرف أن سببه استكثار العطاء وكراهية إنفاق المال والتكبر على الفقير القابض برؤية نفسه خيرا منه، لغنائه واحتياجه، وجميع ذلك جهل وحماقة. أما استكثاره العطاء، فلأن ما أعطاه بالنظر إلى ما يطلبه لأجله

---

(١٠٠) البقرة، الآية: ٢٦٤.

(١٠١) البقرة، الآية: ٢٦٣.

من رضا الله وثواب الآخرة في غاية القلة والخسة، وكيف يستعظم العاقل بذل خسيس فإن إذا أخذ في مقابله، خطيرا باقيا. وأما استحقاره الفقير، فلما تقدم من فضل الفقير على الغني، فكيف يرى نفسه خيرا منه؟ وكفى للفقير فضلا: إن الله سبحانه جعل الغني مسخرا له، بأن يكتسب المال بالجهد والتعب، ويسعى في حفظه، ويسلمه إلى الفقير بقدر حاجته، ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلمه إليه. فالغني يخدم الفقير في طلب المال، مع كون ما يحمد منه للفقير، وكون ما يذم منه، من تحمل المشاق وتقلد المظالم وحراسة الفضلات إلى أن يموت فتأكله الأعداء، على الغنى.

وبالجملة: العاقل، بعد التأمل، يعلم أن ما يعطيه قليل في مقابلة ما يأخذه، وأن الفقير محسن إليه. قال أمير المؤمنين (ع): " ومن علم أن ما صنع إنما صنع إلى نفسه، لم يستبطئ الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودتهم، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت إلى نفسك ووقيت به عرضك، واعلم أن الطالب إليك لحاجة لم يكرم وجهه عن وجهك، فأكرم وجهك عن رده " (١). وينبغي للمحترز عن المن والأذى أن يتواضع ويتخضع للفقير عند إعطائه، بأن يضع الصدقة لديه، ويمثل قائما بين يديه، أو يبسط كفه ليأخذ الفقير، وتكون يد الفقير هي العليا.

فصل

ما ينبغي للمعطي

ومما ينبغي للمعطي أن يستصغر العطية ليعظم عند الله، وإن استعظمها صغرت عند الله، قال الصادق (ع): " رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وتستيره، وتعجيله. فأنت إذا صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تممته، وإذا عجلته هنأته، وإن كان غير ذلك محقته ونكدته " (٢). واستعظام العطاء غير المن والأذى، إذ الصرف إلى عمارة المسجد ومثله يتأتى فيه الاستعظام، ولا يتأتى فيه المن والأذى، وأن يعطي

---

(١) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ١٩٠، كتاب الزكاة، باب ٥٧ المعروف وفضله.

(٢) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٩١، كتاب الزكاة، باب آداب المعروف.

الأجود والأحب والأبعد عن الشبهة، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإخراج غير الجيد سوء أدب بالنسبة إلى الله، إذ إمساك الجيد لنفسه وأهله، وإنفاق الردئ في سبيل الله، يوجب إيثار غير الله وترجيحه عليه، ولو فعل هذا لضيف وقدم إليه أردأ طعام في البيت لانكسر قلبه ووغر به صدره.
هذا إذا كان نظره إلى الله بأن يتصدق لوجه الله، من غير ملاحظة عوض لنفسه في دار الآخرة، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة، فلا ريب في أن العاقل لا يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدق فأبقى، وأكل فأفنى. ولعظم فائدة إنفاق الأجود الأحب، وقبح إنفاق الردئ الأخس، قال الله تعالى:
" أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه " (٣):
أي لا تأخذونه إلا مع كراهية وحياء، وهو معنى الإغماض، وما هذا شأنه عندكم فلا تؤثروا به ربكم. وقال سبحانه:
" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون! ". (٤) وقال: " ويجعلون لله ما يكرهون " (٥).
وفي الخبر: " سبق درهم مائة ألف درهم ". وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده، فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله، فيدل على أنه ليس يؤثر الله بشئ مما يحبه.
ومما ينبغي له أن يغني الفقير إذا قدر، ففي الخبر إذا أعطيته فأغنه، وأن يقبل يده بعد الاعطاء، لأنه يقع في يد الله تعالى أولا. قال أمير المؤمنين (ع): " إذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده إلى فيه فيقبلها، فإن الله عز وجل يأخذ الصدقات ". وقال النبي (ص): " ما تقع صدقة المؤمن في يد السائل حتى تقع في يد الله "، ثم تلا هذه الآية:

---

(٣) البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٤) آل عمران، الآية: ٩٢.
(٥) النحل، الآية: ٦٢.

" ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات؟ " (٦).
وقال الصادق (ع): " إن الله تعالى يقول: ما من شئ إلا وقد وكلت به من يقبضه غيري، إلا الصدقة، فإني أتلقفها بيدي تلقفا، حتى أن الرجل ليتصدق بالتمر أو بشق تمرة، فأربيها له كما يربي الرجل فلوه وفصيلة، فتأتي يوم القيامة وهي مثل أحد وأعظم من أحد " (٧).
وأن يلتمس الدعاء من الفقير، لأن دعاءه يستجاب فيه، كما روي: " أن علي بن الحسين (ع) كان يقول للخادم: أمسك قليلا حتى يدعوا، فإن دعوة السائل الفقير لا ترد ". وإنه (ع) كان يأمر الخادم إذا أعطى السائل، أن يأمره أن يدعو بالخير. وعن أحدهما - عليهما السلام - " إذا أعطيتموهم فلقنوهم الدعاء، فإنه يستجاب لهم فيكم، ولا يستجاب لهم في أنفسهم ".
وما قيل من أن أرباب القلوب لا يتوقعون الدعاء من القابض، لأنه شبيه المكافأة، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله، ولو أرسلوا معروفا إلى فقير، قالوا للرسول إحفظ ما يدعوا به ليردوا عليه مثل قوله، خلاف طريقة أئمتنا الراشدين - عليهم السلام -، فلا اعتبار به عندنا.
ومما ينبغي له أيضا أن يصرف الصدقات إلى من يكثر بإعطائه الأجر كأهل الورع والعلم، وأرباب التقوى والصدق، والكاملين في الإيمان والتشيع. قال رسول الله (ص): " لا يأكل طعامك إلا تقي ". وقال - صلى الله عليه وآله -: " أطعموا طعامكم الأتقياء ". وقال (ص): " أضف بطعامك من تحبه في الله ". ولكن يرفعهم من الزكاة الواجبة والصدقات، لأنها أوساخ الأموال، ويوسع عليهم بالهدايا والصلات، ففي الخبر: " مستحقو الزكاة المستضعفون من شيعة محمد وآله: الذين لم تقو بصائرهم، وأما من قويت بصيرته وحسنت بالولاية لأوليائهم والبراءة من أعدائهم معرفته، فذاك أخوكم في الدين، أمس بكم رحمة من الآباء والأمهات المخالفين، فلا تعطوه زكاة ولا صدقة، فإن موالينا وشيعتنا منا كالجسد الواحد، تحرم على جماعتنا الزكاة والصدقة. وليكن ما تعطونه

---

(٦) التوبة، الآية: ١٠٥.
(٧) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٦٢، باب فضل الصدقة.

إخوانكم المستبصرين البر، وارفعوهم عن الزكاة والصدقات، ونزهوهما عن أن تصبوا عليهم أوساخكم. أيحب أحدكم. أن يغسل وسخ بدنه ثم يصبه على أخيه المؤمن؟ إن وسخ الذنوب أعظم من وسخ بدنه ثم يصبه على أخيه المؤمن؟ إن وسخ الذنوب أعظم من وسخ البدن، فلا توسخوا إخوانكم... " الحديث.

ولا ينبغي أن يصرف إلى من نظره إلى الوسائط، بل ينبغي الصرف إلى من بلغ مقام التوحيد، ويرى النعمة من الله، ولا ينظر إلى الوسائط. إذ من لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط، فغير خال من نوع من الشرك الخفي. قال الصادق (ع) في قول الله تعالى:

" وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون " (٨):

" هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت! ولولا فلان لما أصبت كذا! ولولا فلان لضاع عيالي! ألا ترى أنه قد جعل لله شريكا في ملكه، يرزقه أو يدفع عنه؟ "، فقال الراوي: يجوز أن يقال: لولا إن الله من علي بفلان لهلكت؟ قال " نعم! لا يأس بهذا ". ومن أهل المزية والاختصاص بالبذل إليه، من كان مستترا ساترا للحاجة، كائنا من أهل المروة، متغشيا في جلباب التجمل، محصورا في سبيل الله، محبوسا في طريق الآخرة بعيلة أو مرض أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب أو سبب آخر من الأسباب، والأولى من الكل الأقارب وأولو الأرحام من أهل الاحتياج، فإن الإنفاق عليهم صدقة وصلة. وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يخفى، قال أمير المؤمنين (ع): " لأن أصل أخا من أخواني بدرهم، أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة ". وفي خبر آخر: " لا صدقة وذو رحم محتاج، الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر، وصلة الأخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين ". وفي الخبر: " إن أفضل الصدقات والصلات الإنفاق على ذي الرحم الكاشح ": يعني المبغض، وكأنه لمخالفة الهوى وصدوره عن الخلوص والتقوى.

---

(٨) يوسف، الآية: ١٠٦.

فصل

ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة

ينبغي للفقير الأخذ أن يعلم أن الله تعالى أوجب صرف المال إليه ليكفي مهمته، فتتجرد للعبادة والاستعداد للموت، فينبغي أن يتأهب لذلك ولا يصرفه عنه فضول الدنيا، ويشكر الله على ذلك، ويشكر المعطي، فيدعو له ويثني عليه مع رؤية النعمة من الله سبحانه، قال رسول الله (ص): " من لم يشكر الناس لم يشكر الله ". وقال الصادق (ع): " لعن الله قاطعي سبيل المعروف قيل: وما قاطعو سبل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره. فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره " (٩) وقال أمير المؤمنين (ع): " من صنع بمثل ما صنع إليه فإنما كافأه، ومن ضعفه كان شكورا، ومن شكر كان كريما ".

وينبغي له أيضا أن يستر عيوب صاحب العطاء، ولا يذمه ولا يحقره، ولا يعيره بالمنع إذا منع، ويفخم عند نفسه وعند الناس إعطاءه، بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة، لئلا يكون مشركا، وأن يتوقى مواقع الحرمة والريبة والشبهة في أصله ومقداره، فلا يأخذ من لا يحل ماله أو يشتبه، كعمال السلاطين والجنود ومن أكثر كسبه من الحرام، ولا الزيادة على قدر الحاجة، ولا يسأل على رؤس الملأ ممن يستحي الرد، وأن يتورع العالم والمتقي من أخذ الزكاة والصدقات ما لم يضطر إليها، تنزيها لنفسه عن الأوساخ وأن يستر الأخذ بنية أنه أبقى لستر المروة والتعفف، وأصون لنفسه عن الإهانة والإذلال، وأعون للمعطي على الإخفاء والأسرار، وسلم لقلوب الناس من الحسد وسوء الظن، أو يظهره بنية الإخلاص والصدق، وإظهار المسكنة والعبودية، والتبري عن الكبر، وتلبيس الحال وإقامة سيئة الشكر، أو غير ذلك، فإنه يختلف باختلاف النيات والأشخاص والأحوال، ولكل امرئ ما نوى، وكل مراقب للأحوال عارف بالفوائد والمفاسد، يمكنه الأخذ بالأنفع الأرجح.

---

(٩) صححنا الحديث على (الكافي): ٤ / ٣٣، كتاب الزكاة، باب من كفر المعروف، ط طهران ١٣٧٧ ه.

تتميم

زكاة الأبدان

إعلم أنه كما في المال زكاة فكذلك للبدن زكاة، وهو نقصه ليزيد الخير والبركة لصاحبه. وهذا النقص إما أن يكون اختيارا، بأن يصرف في الطاعة ويمنع عن المعصية، أو اضطرارا، بأن يصاب بمرض وآفة. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - يوما لأصحابه: " ملعون كل مال لا يزكى، ملعون كل جسد لا يزكى، ولو في كل أربعين يوما مرة. قيل له: يا رسول الله، أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة الأجساد؟ قال (ص): أن يصاب بآفة ". فتغيرت وجوه الذين سمعوا منه ذلك، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم، قال: " هل تدرون ما عنيت بقولي؟ فقالوا: لا يا رسول الله! قال: إن الرجل يخدش الخدشة، وينكب النكبة، ويعثر العثرة، ويمرض المرضة، ويشاك الشوكة، وما أشبه هذا... "، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين. وقال (ص): " لكل شئ زكاة، وزكاة الأبدان الصيام ".

وقال الصادق (ع): " على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله عز وجل بل على كل منبت شعر من شعرك، بل على كل لحظة من لحاظك زكاة. فزكاة العين: النظرة بالعبرة (١٠) والغض عن الشهوات وما يضاهيها. وزكاة الأذن: استماع العلم والحكمة والقرآن، وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة وما فيه نجاتك، وبالإعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة وأشباههما. وزكاة اللسان: النصح للمسلمين، والتيقظ للغافلين، وكثرة التسبيح والذكر وغيرها. وزكاة اليد: البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به، وتحريكها بكتابة العلم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله تعالى، والقبض عن الشر وزكاة الرجل: السعي في حقوق الله، من زيارة الصالحين، ومجالس الذكر، وإصلاح الناس، وصلة الأرحام، والجهاد، وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك " (١١).

----

(١٠) في نسخ (جامع السعادات): " النظر بالعبر "، ولعله الأولى.

(١١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): (الباب ٢٢، وفيه اختلاف كثير عن نسخ (جامع السعادات) بما لم يحرج عن المعنى.

وثانيها:
الخمس
وقد فرضه الله تعالى على عباده صونا لذرية نبيه (ص) عن الافتقار، وتنزيها لهم عن الصدقات التي هي أوساخ الناس، فقال سبحانه:
" وأعلموا إنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شئ قدير " (١٢).
والمستفاد من الآية: إن مانع الخمس لا إيمان له. وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - " هلك الناس في بطونهم وفروجهم، لأنهم لا يؤدون إلينا حقنا ". ولا ريب في عظم الثواب والأجر في أدائه وإيصاله إلى أهله، وكيف لا وهو إعانة ذرية الرسول (ص) وقضاء حوائجهم، وقد قال رسول الله (ص): " حقت شفاعتي لمن أعان ذريتي بيده ولسانه وماله " (١٣).
وقال (ص): " أربعة أنالهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه ". وقال (ص): " من اصطنع إلى أحد من أهل بيتي يدا، كافيته يوم القيامة ". وعن الصادق (ع) قال: " إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أيها الخلائق، انصتوا، فإن محمدا يكلمكم. فتنصت الخلائق، فيقوم النبي (ص) فيقول: يا معشر الخلائق، من كانت له عندي يد أو منة أو معروف فليقم حتى أكافيه. فيقولون: بآبائنا وأمهاتنا! وأي يد وأي منة وأي معروف لنا؟ بل اليد والمنة والمعروف لله ولرسوله على جميع الخلائق. فيقول لهم: بلى! من آوى أحدا من أهل بيتي، أو برهم، أو كساهم من عرى، أو أشبع جائعهم، فليقم حتى أكافيه. فيقوم أناس قد فعلوا ذلك، فيأتي النداء من عند الله: يا محمد، يا حبيبي، قد جعلت مكافأتهم إليك، فأسكنهم من الجنة حيث شئت. قال: فيسكنهم في الوسيلة حيث لا يحجبون عن محمد

---

(١٢) الأنفال، الآية: ٤١.
(١٣) صححنا هذا الحديث على (جامع الأخبار): الباب ٢، الفصل ٦.

وأهل بيته - صلوات الله عليهم " (١٤). وقد ظهر مما تقدم بعض ما تعلق به من الأسرار والآداب والشرائط الباطنة.
وينبغي أن يكون معطيه في غاية الحذر عن استعظامه وعن المن والأذى، وأن يكون في غاية التخضع والتواضع للذرية العلوية عند إعطائه إياهم، ويعلم أنه عبد من عباد الله، أعطاه مولاه نبذا من أمواله، ثم أمره بأن يوصل قليلا منها إلى ذرية نبيه (ص)، وجعل له أيضا في مقابلة هذا الايصال زيادة المال في الدنيا وعظيم الأجر والثواب في العقبى. فما أقبح بالعاقل - مع ذلك - أن يستعظم ما يعطيه، ويمن على أولاد نبيه (ص).
وثالثها:
الإنفاق على الأهل والعيال
والتوسع عليهم. وهو أيضا من الواجبات، على النحو المقرر في كتب الفقه. وما ورد في مدحه وعظم أجره أكثر من أن يحصى، قال رسول الله (ص): " الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله " (١٥) وقال (ص): " خيركم خيركم لأهله ". وقال (ص): " المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكل أهله بشهوته " (١٦). وقال: " أفضل الصدقة صدقة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى، ولا يلوم الله على الكفاف " (١٧). وقال (ص): " دينار أنفقته على أهلك، ودينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، وأعظمها أجرا الدينار الذي أنفقته على أهلك ". وقال (ص): " ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى فم امرأته ". وقال (ص):

---

(١٤) صححنا الأحاديث الثلاثة الأخيرة على (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، أبواب الأمر بالمعروف، الباب ١٧.
(١٥) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب مقدماتها الباب ٢٢. وروي الحديث في (المستدرك) عن! (غوالي اللئالي).
(١٦) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب النكاح، أبواب النفقات، الباب ٢١. وكذا الحديث الآتي: " ملعون ملعون.... "
(١٧) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨٩، وهو بمضمونه من المشهورات التي يرويها العامة والخاصة.

" من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم يطلب المعيشة ". وقال (ص): " من كانت له ثلاث بنات. فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه، أوجب الله تعالى له الجنة، إلا أن يعمل عملا لا يغفر الله له ". وقال (ص) يوما لأصحابه: " تصدقوا. فقال رجل: إن عندي دينار. قال أنفقه على نفسك. فقال: إن عندي آخر قال: أنفقه على زوجتك. قال: إن عندي آخر. قال: أنفقه على ولدك. قال: إن عندي آخر. قال: أنفقه على خادمك. قال: إن عندي آخر. قال (ص): أنت أبصر به " (١٨). وقال (ص): " ملعون ملعون من ألقى كله على الناس! ملعون ملعون من ضيع من يعوله! "، وقال (ص) لأمير المؤمنين (ع) بعد ما رآه في البيت ينقي العدس، وفاطمة عليها السلام جالسة عند القدر: " اسمع مني يا أبا الحسن، وما أقول إلا من أمر ربي: ما من رجل يعين امرأته في بيتها، إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين وداود النبي ويعقوب وعيسى - عليه السلام -. يا علي، من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف، كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكل يوم وليلة ثواب ألف شهيد، وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمرة، وأعطاه الله بكل عرق في جسده مدينة في الجنة. يا علي ساعة في خدمة البيت خير من عبادة ألف سنة، وألف حجة، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة، وألف غزوة، وألف مريض عاده، وألف جمعة وألف جنازة، وألف جائع يشبعهم، وألف عار يكسوهم، وألف فرس يوجهه في سبيل الله، وخير له من ألف دينار يتصدق على المساكين، وخير له من أن يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن ألف أسيرة اشتراها فأعتقها، وخير له من ألف بدنة بعضي للمساكين، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه في الجنة. يا علي، من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب. يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفئ غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات. يا علي، لا يخدم العيال

---

(١٨) صححنا الحديث على (إحياء العلوم): ١ / ٢٠٣.

إلا صديق أو شهيد، أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة " (١٩).
وقال السجاد (ع): " أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله ". وقال - عليه السلام -: " لئن أدخل السوق، ومعي دراهم ابتاع لعيالي لحما، وقد قرموا (٢٠) إليه، أحب إلي من أن أعتق نسمة ". وقال الصادق (ع): " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعوله ". وقال (ع): " من سعادة الرجل أن يكون القيم على عياله ". وقال الكاظم (ع): " إن عيال الرجل أسراؤه، فمن أنعم الله عليه نعمة فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل أو شك أن تزول النعمة ". وقال أبو الحسن الرضا (ع): " ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته ". وقال (ع): " صاحب النعمة يجب عليه التوسعة على عياله " (٢١). والأخبار الواردة في ثواب الإنفاق على العيال وخدمتهم والتوسع عليهم مما لا تعد كثرة. وما ذكرناه كاف لإيقاظ أهل الاستبصار.

فصل

ما ينبغي في الإنفاق على العيال

ينبغي لطالب الأجر والثواب في إنفاق العيال، أن يقصد في كده وسعيه في تحصيل النفقة وفي إنفاقه وجه الله وثواب الآخرة، إذ لا ثواب بدون القربة، وأن يجتنب عن تحصيل الحرام والشبهة، ولا يدخل على عياله إلا الحلال، إذ أخذ الحرام وإنفاقه أعظم الذنوب وأشد المعاصي، وأن يقصد في التحصيل والإنفاق، فليحترز عن الإقتار لئلا يضيع عياله، وعن الإسراف لئلا يضيع عمره في طلب المال، فيكون من الخاسرين الهالكين. قال الله

---

(١٩) صححنا الحديث على (جامع الأخبار): الباب ٨، الفصل ٣، طبع بمبي سنة ١٣٣٨. ولم نعثر على الحديث في الكتب المعتبرة، إلا أنه في (مستدرك الوسائل) نقله عن (جامع الأخبار) نفسه في أبواب مقدمات التجارة: الباب ١٧.

(٢٠) قال في (الوافي): ٦ / ٢٨٨، باب التوسيع على العيال، في شرح هذا الحديث: " القرم: شدة شهوة اللحم ".

(٢١) صححنا الأحاديث، ابتداء من الرواية عن السجاد، على الوسائل): كتاب النكاح، أبواب النفقات، الباب ٢٠ و ٢١.

سبحانه:
" وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " (٢٢). وقال " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " (٢٣). وقال: " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (٢٤).
وعن الصادق (ع): " أنه تلا هذه الآية: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)، فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذي ذكره الله في كتابه. ثم أخذ قبضة أخرى، فأرخى كفه كلها، ثم قال: هذا الإسراف. ثم أخذ قبضة أخرى، فأرخى بعضها وأمسك بعضها، وقال: هذا القوام " (٢٥). وينبغي ألا يستأثر نفسه أو بعض عياله بمأكول طيب، ولا يطعم سائرهم منه، فإن ذلك يوغر الصدر ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، إلا أن يضطر إليه، لمرض أو ضعف أو غير ذلك. وينبغي ألا يصف عندهم طعاما ليس يريد اطعامهم إياه، وأن يقعد عياله كلهم على مائدة عند الأكل، فقد روي: " إن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون في جماعة ".
وأما الأمور المستحبة من الإنفاق، الداخلة تحت السخاء، فأولها:
صدقة التطوع
وفضلها عظيم، وفوائدها الدنيوية والأخروية كثيرة. قال رسول الله – صلى الله عليه وآله –: " تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار ". وقال (ص): " اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة ". وقال (ص): " ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا، إلا كان الله آخذها بيمينه، فيربيها له كما يربي أحدكم فصيله، حتى تبلغ التمرة

---

(٢٢) الأعراف، الآية: ٣٠.
(٢٣) الإسراء، الآية: ٢٩.
(٢٤) الفرقان، الآية: ٦٧.
(٢٥) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٩٦. باب فضل القصد بين الإسراف والتقتير

مثل أحد ". وقال (ص): " ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته ". وقال (ص): " كل امرئ في ظل صدقته، حتى يقضي بين الناس ". وقال (ص): " أرض القيامة نار، ما خلا ظل المؤمن، فإن صدقته تظله ". وقال (ص): " إن الله لا آله إلا هو، ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة: والحرق والغرق، والهدم والجنون... " وعد سبعين بابا من الشر. وقال (ص): " صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل " (٢٦). وقال (ص): " إذا أطرقكم سائل ذكر بالليل فلا تردوه ".

وفائدة التخصيص بالذكر والليل: إن من يسألك ليلا في صورة الإنسان، يحتمل أن يكون ملكا أتاك للامتحان، كما روي: " أنه سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران (ع)، وقال: يا موسى، أكرم السائل ببذل يسير أو برد جميل، إنه يأتيك من ليس بإنس ولا جان، بل ملائكة من ملائكة الرحمن، يبلونك فيما خولتك، ويسألونك فيما نولتك، فانظر كيف أنت صانع يا ابن عمران ". ولذلك حث رسول الله (ص) على عدم رد السائل، وقال: " اعط السائل ولو على ظهر فرس ". وقال (ص): " لا تقطعوا على السائل مسألته، فلولا أن المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم ". وقال الباقر (ع): " البر والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة سوء ". وقال الصادق (ع): " داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء، واستنزلوا الرزق بالصدقة، فإنها تفك من بين لحى سبعمائة شيطان، وليس شئ أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن، وهي تقع في يد الرب تعالى قبل أن تقع في يد العبد ". وقال (ع): " الصدقة باليد تقي ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعا من البلاء، وتفك عن لحى سبعين شيطانا كلهم يأمره ألا يفعل ". وقال (ع): " يستحب للمريض أن يعطي السائل بيده، ويأمره أن يدعو له ". وقال عليه السلام: " باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطاها، ومن تصدق بصدقة

---

(٢٦) الأخبار النبوية المذكورة في هذا الفصل أغلبها عامية صححناها على (إحياء العلوم): ج ١ بيان فضيلة الصدقة.

أول النهار رفع الله عنه شر ما ينزل من السماء في ذلك اليوم، فإن تصدق أول الليل دفع الله شر ما ينزل من السماء في تلك الليلة ". وكان (ع) إذا أعتم أي صلى العتمة - وذهب من الليل شطره، أخذ جرابا فيه خبز ولحم ودراهم، فحمله على عنقه، ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة، فقسمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله (ع)، فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله (ع). وسئل (ع) عن السائل يسأل ولا يدري ما هو، فقال: " اعط من أوقع في قلبك الرحمة ". وقال (ع) في السؤال:
" أطعموا ثلاثة، وإن شئتم أن تزدادوا فازدادوا، وإلا فقد أديتم حق يومكم ". وقال (ع) في الرجل يعطي غيره الدراهم يقسمها، قال: " يجري له من الأجر مثل ما يجري للمعطي، ولا ينقص من أجره شيئا. ولو أن المعروف جرى على سبعين يد، لأوجروا كلهم من غير أن ينقص من أجر صاحبه شئ ". وقد وردت أخبار كثيرة في فضل تصدق الماء وثوابه، قال أمير المؤمنين (ع): " أول ما يبدأ به في الآخرة صدقة الماء، يعني في الأجر ". وقال أبو جعفر (ع): " إن الله تعالى يحب إبراد الكبد الحراء، ومن سقى الماء كبدا حراء، من بهيمة وغيرها، أظله الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ". وقال الصادق (ع): " من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء، كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء، كان كمن أحيى نفسا، ومن أحيى نفسا فكأنما أحيى الناس جميعا ".
(تنبيه): سئل رسول الله (ص): " أي الصدقة أفضل؟ قال:
أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء وتخشى الفاقة، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا ".

فصل

فضيلة الأسرار في الصدقة المندوبة

لا كلام في أن الأسرار في الصدقة المندوبة أفضل من إظهارها للمعطي في إعطائها، ويدل عليه قول الصادق (ع): " الصدقة في السر والله أفضل
ج: ٢

من الصدقة في العلانية " (٢٧). وقوله (ع): " كلما فرض الله عليك، فإعلانه أفضل من أسراره، وكلما كان تطوعا، فإسراره أفضل من إعلانه ".
وإنما الكلام في أن الأفضل للأخذ في أخذها، أن يأخذها سرا أو علانية. فقيل: الأفضل له أخذها، لأنه أبقى للتعفف وستر المروة، وأسلم لقلوب الناس وألسنتهم من الحسد وسوء الظن والغيبة، وعون للمعطي على أسرار العمل، وقد علمت أفضلية السر على الجهر في الاعطاء، وأصون لنفسه عن الإذلال والإهانة، وأخلص من شوب شركة الحضار، فإن المستفاد من الأخبار: أن الحضار شركاء من أهدي له في الهدية. والظاهر أن الصدقة مثلها إذا كان الحضار من أهلها. قال رسول الله (ص): " من أهدي له هدية وعنده قوم، فهم شركاؤه فيها ". وقال الباقر (ع): " جلساء الرجل شركاؤه في الهدية ". وقال (ع): " إذا أهدي للرجل هدية من طعام، وعنده قوم، فهم شركاؤه في الهدية الفاكهة أو غيرها ". وقيل: الأفضل أخذها علانية، والتحدث بها، لتنقية الكبر والرياء، وتلبيس الحال، وإيجابه الإخلاص والصدق، وإقامة منة الشكر، وإسقاط الجاه والمنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، مع أن العارف ينبغي ألا ينظر إلا إلى الله، والسر والعلانية في حقه واحد، فاختلاف الحال شرك في التوحيد.
والحق أن الحكم بأفضلية أحدهما على الإطلاق غير صحيح، إذ تختلف أفضلية كل منهما باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص.
فينبغي لطالب السعادة أن يراقب نفسه، ويلاحظ حاله ووقته، ويرى أن أي الحالتين من السر والجهر بالنظر إليه أقرب إلى الخلوص والقربة، وأبعد من الرياء والتلبيس وسائر الآفات، فيختار ذلك، ولا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان. مثلا إذا كان طبعه مائلا إلى الإسرار، ورأى أن باعث هذا الميل حفظ الجاه والمنزلة، وخوف سقوط

* (الهامش) * (٢٧) صححنا أغلب هذه الأخبار المروية عن أهل البيت - عليهم السلام -
في هذا المقام على (الوافي): ٦ / ٢٨٢، ٢٨٤ باب فضل الصدقة وباب فضل صدقة السر.

القدر من أعين الناس، ونظر الخلق إليه بعين الازدراء، وإلى المعطي كونه منعما محسنا إليه، أو خوف ألا يعطيه الناس بعد ذلك لعلمهم بما أخذه، فلينتقل عن الإسرار ويأخذها علانية، إذ لو أبقى نفسه على ما استكن فيها من الداء الدفين، وعمل بمقتضاها، صار هالكا - وإن كان طبعه مائلا إلى الإسرار، وأيقن بأن باعث الميل إليه: إبقاء التعفف، وستر المروة، وصيانة الناس عن الحسد، وسوء الظن والغيبة، ولم يكن باعثه شئ من المفاسد المذكورة، فالأولى أن يأخذها سرا. ويعرف ذلك بأن يكون تألمه بانكشاف أخذه للصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض أقرانه وأخوانه المؤمنين، فإنه إن كان طالبا لبقاء السر وإعانة المعطي على الأسرار، وصيانة العلم عن الابتذال، وحفظ الناس عن الحسد والغيبة وسوء الظن، فينبغي أن يكون طالبا لها في صدقة أخيه أيضا، إذ يحصل ما يحذر منه: من هتك الستر، وابتذال العلم، ووقوع الناس في الغيبة والحسد بانكشاف صدقة أخيه أيضا. فإن كان انكشاف صدقته أثقل عليه من انكشاف صدقة غيره، فتقديره الحذر من هذه المعاني تلبيس من النفس ومكر من الشيطان. وإذا كان طبعه مائلا إلى الإظهار، ووجد منه أن باعث هذا الميل هو التطييب لقلب المعطي، والاستحثاث له على مثله، والإظهار للغير بأنه من المبالغين في الشكر، حتى يرغبوا في الإحسان إليه، فليتنبه أن هذا الداء من الداء الدفين الذي يهلكه لو لم يعالجه، فليترك أخذها جهرا والتحدث بها، وينتقل إلى الأخذ خفية. وإن تيقن من نفسه بأن الباعث هو إقامة السنة في الشكر، والتحدث بالنعمة، وإسقاط الجاه والمنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، أو غير ذلك من المقاصد الصحيحة، من دون تطرق شئ من المفاسد المذكورة، فالإظهار أفضل، ويعرف ذلك بأن تميل نفسه إلى الشكر، حيث لا ينتهي الخبر إلى المعطي ولا إلى من يرغب في عطائه، وبين يدي جماعة يعلم أنهم يكرهون إظهار العطية، ويرغبون في إخفائها، وعادتهم ألا يعطوها إلا من يخفيها ولا يتحدث بها ولا يشكر عليها. ثم إذا جزم يكون الباعث إقامة السنة في الشكر، فينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطي، فينظر أنه إن كان ممن يحب الشكر والنشر فيخفي الأخذ ولا يشكر، لأن قضاء حقه ألا

ينصره على الإثم، وإن كان ممن لا يحب الشكر ولا يطلب النشر، فالأولى أن يشكره ويظهر صدقته.
وينبغي لكل من يراعي قلبه أن يلاحظ هذه الدقائق ولا يهملها، إذ أعمال الجوارح مع إهمالها ضحكة للشيطان وشماتة له، لكثرة التعب فيها مع عدم تصور نفع لها، والعلم بهذه الدقائق وملاحظتها هو العلم الذي ورد فيه أن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة، إذ بهذا العلم تحيى عبادة العمر، وبالجهل به تموت عبادة العمر.
وثانيها:
الهدية
وهي ما يعطي ويرسل إلى أخيه المسلم، فقيرا كان أم غنيا، طلبا للاستيناس، وتأكيدا للصحبة والتودد. وهو مندوب إليه من الشرع، ومع سلامة القصد والنية يكون عبادة. قال رسول الله (ص): " تحابوا تهادوا، فإنها تذهب بالضغائن ". وقال (ص): " لو أهدي إلي ذراع لقبلت ". وقال أمير المؤمنين (ع): " لأن أهدي لأخي المسلم هدية أحب إلي من أن أتصدق بمثلها ". وقال (ع): " من تكرمة الرجل لأخيه المسلم، أن يقبل تحفته وأن يتحفه بما عنده، ولا يتكلف له شيئا ".
وثالثها:
الضيافة
وثوابها جزيل، وأجرها جميل، وفضلها عظيم، وثمرها جسيم. قال رسول الله (ص): " لا خير فيمن لا يضيف ". ومر (ص) برجل له إبل وبقر كثير، فلم يضيفه، ومر بامرأة لها شويهات، فذبحت له، فقال (ع): " انظروا إليهما، فإنما هذه الأخلاق بيد الله عز وجل، فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل ". وقال (ص): " الضيف إذا جاء فنزل بالقوم، جاء برزقه معه من السماء، فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله ". وقال: " ما من ضيف حل بقوم إلا ورزقه في حجره ". وقال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ". وقال (ص): " لا تزال أمتي بخير: ما تحابوا، وأدوا الأمانة، واجتنبوا الحرام، وأقرأوا الضيف، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين ". وقال (ص):

إذا أراد الله بقوم خيرا أهدى لهم هدية. قالوا: وما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت ". وقال (ص): " كل بيت لا يدخل فيه الضيف لا تدخله الملائكة ". وقال (ص): " الضيف دليل الجنة ". وقال أمير المؤمنين (ع): " ما من مؤمن يحب الضيف إلا ويقوم من قبره ووجهه كالقمر ليلة البدر، فينظر أهل الجمع، فيقولون: ما هذا إلا نبي مرسل! فيقول ملك: هذا مؤمن يحب الضيف ويكرم الضيف، ولا سبيل له إلا أن يدخل الجنة ". وقال (ع): " ما من مؤمن يسمع بهمس الضيف وفرح بذلك، إلا غفرت له خطاياه، وإن كانت مطبقة بين السماء والأرض ". وبكى - (ع) يوما، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: " لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني ". وعن محمد بن قيس، عن أبي عبد الله (ع) - قال: " ذكر أصحابنا قوما، فقلت والله ما أتغدى ولا أتعشى إلا ومعي منهم اثنان أو ثلاثة أو أقل أو أكثر، فقال - (ع): فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. قلت: جعلت فداك! كيف ذا وأنا أطعمهم طعامي، وأنفق عليهم من مالي، ويخدمهم خادمي؟ فقال: إذا دخلوا عليك دخلوا من الله بالرزق الكثير، وإذا خرجوا بالمغفرة لك ". وكان إبراهيم الخليل (ع) إذا أراد أن يأكل، خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغدى معه، وكان يكنى (أبا الضيفان).

وجميع الأخبار الواردة في فضيلة الطعام المؤمن وسعيه تدل على فضيلة الضيافة، كقوله (ص) بعد سؤاله عن الحج المبرور: " هو إطعام الطعام وطيب الكلام ". وقال (ص): " من أطعم ثلاثة نفر من المسلمين أطعمه الله من ثلاث جنان في ملكوت السماوات: الفردوس، وجنة عدن، وطوبى شجرة تخرج في جنة عدن غرسها ربنا بيده ". وقول الصادق (ع) " من أشبع مؤمنا وجبت له الجنة " وقوله (ع): " من أطعم مؤمنا حتى يشبعه، لم يدر أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا الله رب العالمين ". وسئل (ص): " ما الإيمان؟ فقال: إطعام الطعام. وبذل السلام وقال: " إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، من ظاهرها، يسكنها من أمتي من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى

بالليل والناس نيام ". وقال (ص): " من أحب الأعمال إلى الله تعالى:
إشباع جوعة المؤمن، وتنفيس كربته، وقضاء دينه " وقال (ص) " الله
يحب الاطعام في الله، ويحب الذي يطعم الطعام في الله، والبركة في بيته أسرع
من الشفرة في سنام البعير " وقال (ص) " خيركم من أطعم الطعام " وقال
صلى الله عليه وآله: من أطعم الطعام أخاه المؤمن حتى يشبعه، وسقاه حتى
يرويه، بعده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام "
وفي الخبر: " إن الله تعالى يقول للعبد في القيام ة: يا ابن آدم، خفت فلم
تطعمني. فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك فلم
تطعمه، ولو أطعمته كنت أطعمتني ". وقال (ص): من سقى مؤمنا من ظمأ
سقاه الله من الرحيق المختوم ". وقال (ص) من سقى مؤمنا شربه من ماء من
حيث يقدر على الماء، أعطاه الله بكل شربة سبعين ألف حسنة، وإن سقاه من
حيث لا يقدر على الماء، فكأنما أعتق عشر رقاب من ولد إسماعيل " (٢٨).

فصل

ما ينبغي أن يقصد في الضيافة

ينبغي أن يقصد في ضيافته التقرب إلى الله، والتسنن بسنة رسول الله
واستمالة قلوب الأخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يقصد به
الرياء والمفاخرة والمباهاة، وإلا ضاع عمله، وأن يدعو الفقراء والأتقياء، وإن
كان في ضيافة الأغنياء ومطلق الناس فضيلة أيضا. وينبغي ألا يهمل في
ضيافة الأقارب والجيران، إذا إهمالهم قطع رحم وإيحاش، وألا يدعو من يعلم
إنه تشق عليه الإجابة. وينبغي أن يعجل في إحضار الطعام، لأنه من إكرام الضيف
وقد ورد: " إن العجلة من الشيطان، إلا في خمسة أشياء، فإنها من سنة
رسول الله (ص): إطعام الضيف، وتجهيز البيت وتزويج البكر، وقضاء الدين
والتوبة من الذنوب " وأن يحضر من الطعام قدر الكفاية، إذ التقليل عنه نقص
في المروة، والزيادة عليه تضييع، وأن يسعى في إكرام الضيف: من طلاقة الوجه

* (الهامش) * (٢٨) صححنا أحاديث هذا الفصل على (البحار): ٤ مج ١٥ / ١١٠،
باب إطعام المؤمن. و ٢٤٢ - ٢٤٤: باب آداب الضيف. وعلى (الكافي):
باب إطعام المؤمن. وعلى (الوسائل): في آداب المائدة من كتاب الأطعمة والأشربة.

وطيب الكلام معه عند دخوله وخروجه وعلى المائدة، والخروج معه إلى باب الدار إذا خرج، قال رسول الله (ص): " إن من سنة الضيف أن يشيعه إلى باب الدار ". ومما ينبغي له ألا يستخدم الضيف، قال الباقر (ع): " من الجفاء استخدام الضيف ". وكان عند الرضا (ع) ضيف، فكان يوما في بعض الحوائج، فنهاه عن ذلك، وقام بنفسه إلى تلك الحاجة، وقال: " نهى رسول الله (ص) عن أن يستخدم الضيف ".

فصل آداب الضيافة

ينبغي لكل مؤمن أن يجيب دعوة أخيه إلى الضيافة، من غير أن يفرق بين الغني والفقير، بل يكون أسرع إجابة إلى الفقير، وألا يمنعه بعد المسافة عن الإجابة إذا أمكن احتمالها عادة. قال رسول الله (ص): " أوصي الشاهد من أمتي والغائب، أن يجيب دعوة المسلم ولو على خمسة أميال، ولا يمنعه صوم التطوع عن الإجابة، بل يحضر، فإن علم سرور أخيه بالافطار فليفطر ويحتسب في إفطاره أفضل ما يحتسب في صومه ". وقال الصادق (ع): - " من دخل على أخيه وهو صائم، فأفطر عنده ولم يعلمه بصوم فيمن عليه، كتب الله له صوم سنة، وإن علم أنه متكلف ولا يسر بإفطاره فليتعلل ".

وينبغي ألا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، ليدخل عمله في أمور الدنيا، بل ينوي الاقتداء بسنة رسول الله (ص) وإكرام أخيه المؤمن، ليكون في عمله مطيعا لله مثابا في الآخرة، وأن يحترز عن الإجابة إذا كان الداعي من الظلمة أو الفساق، أو كانت ضيافة للفخر والمباهاة، ومن كان طعامه حراما أو شبهة، أو لم يكن موضعه أو بساطه المفروش حلالا، أو كان في الموضع شئ من المنكرات، كإناء فضة، أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو أحد آلات اللهو من المزامير، وأمثالها، أو التشاغل بشئ من اللهو واللعب والهزل، فكل ذلك مما يمنع الإجابة، ويوجب تحريمها أو كراهيتها. قال الصادق (ع) " لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلسا يعصى الله تعالى فيه ولا يقدر على تغييره. ومن ابتلى بحضور طعام ظالم إكراها وتقية، فليقلل الأكل، ولا يأكل أطايب الأطعمة ".

وينبغي للضيف - أيضا - إذا دخل الدار ألا يتصدر، ولا يقصد أحسن الأماكن، بل يتواضع ويرضى بالدون من المجلس، وإن أشار إليه صاحب الدار بموضع فلا يخالفه ويجلس فيه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع أو الانحطاط، وألا يجلس في مقابلة باب حجرة النسوان، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل الشره وخسة النفس، وأن يخص بالتحية والسلام أولا من يقرب منه.

وينبغي لمن دعي إلى الضيافة ألا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد.

ورابعها:

الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ

والمراد من الأول: ما يعرضه الرجل ويقدره في ماله، من قليل أو كثير غير الصدقات الواجبة، يعطيه محتاجا أو يصل به رحمه. والمراد بالثاني: ما يعطى به إلى الفقراء من الضغث بعد الضغث: أي القبضة بعد القبضة من الزرع يوم حصاده، ومن الحفنة بعد الحفنة: أي ملء الكف من التمر أو الحنطة أو غيرهما من الثمار والفواكه والحبوبات عند قطعها وتصفيتها.

وهذان النوعان من الإنفاق معدودان في صدقة التطوع، وقد وردت بخصوصهما أخبار كثيرة لشدة استحبابهما. قال الصادق (ع): " إن الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سموا مسلمين، ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة فقال الله تعالى:

" والذين في أموالهم حق معلوم " (٢٩).

والحق المعلوم غير الزكاة، وهو شئ يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله، فيؤدي الذي فرض على نفسه إن شاء كل يوم، وإن شاء كل جمعة، وإن شاء كل شهر " (٣٠).

---

(٢٩) المعارج، الآية: ٢٤.

(٣٠) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨١، باب جملة ما يجب في المال من الحقوق.

وقال (ع): " الحق المعلوم ليس من الزكاة، هو الشئ تخرجه من مالك، إن شئت كل جمعة، وإن شئت كل شهر، ولكل ذي فضل فضله، وقول الله تعالى: (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم)، فليس من الزكاة، والماعون ليس من الزكاة، وهو المعروف تصنعه والقرض تقرضه ومتاع البيت تعيره، وصلة قرابتك ليس من الزكاة. وقال الله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم)، فالحق المعلوم غير الزكاة، وهو شئ يفرضه الرجل على نفسه أنه في ماله ونفسه، ويجب له أن يفرضه على قدر طاقته ووسعه " (٣١) وقال (ع): " وإن عليكم في أموالكم غير الزكاة. فقلت: أصلحك الله، وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال: سبحان الله! أما تسمع قول الله تعالى؟ يقول في كتابه:
" والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم " (٣٢).
قال: قلت: فماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ قال: هو والله الشئ يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو الشهر، قل أو كثر، غير أنه يدوم عليه " (٣٣). وقال (ع) في قول الله تعالى: (في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم): " هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه ". وقال (ع): " في الزرع حقان: حق تؤخذ به، وحق تعطيه. قلت: وما الذي أؤخذ به وما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به، فالعشر ونصف العشر، وأما الذي تعطيه، فقول الله:
" وآتوا حقه يوم حصاده " (٢٤).
يعني من حصدك الشئ ثم الشئ - ولا أعلمه إلا قال الضغث ثم

---

(٣١) نفس المصدر: باب جملة ما يجب فيه الزكاة (الوسائل): ٢ / ٧، باب الحقوق في المال سوى الزكاة.
(٣٢) المعارج، الآية: ٢٤، ٢٥.
(٣٣) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨١، باب جملة ما يجب في المال من الحقوق وعلى (الوسائل): ٢ / ٧، باب جملة ما يجب فيه الزكاة.
(٣٤) الأنعام، الآية: ١٤١.

الضغث - حتى تفرغ " (٣٥). وقال (ع): " لا تصرم بالليل، ولا تحصد بالليل، ولا تضح بالليل، ولا تبذر بالليل. فإنك إن فعلت ذلك لم يأتك القانع والمعتر. فقلت: وما القانع والمعتر؟ فقال: القانع: الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر: الذي يمر بك فيسألك. وإن حصدت بالليل لم يأتك السؤال، وهو قول الله تعالى: (وآتوا حقه يوم حصاده) عند الحصاد، يعني القبضة بعد القبضة إذا حصدته، فإذا خرج فالحفنة بعد الحفنة، وكذلك عند الصرام، وكذلك عند البذر. ولا تبذر بالليل، لأنك تعطى من البذر كما تعطى من الحصاد ". وقال الباقر (ع) في قول الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده): " هذا من الصدقة، ويعطي المسكين القبضة بعد القبضة، ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة، حتى يفرغ ". وفي مضمون هذه الأخبار كثيرة أخر.

وخامسها:

القرض

وهو أيضا من ثمرات السخاء، لأن السخي تسمح نفسه بأن يقرض أخاه المحتاج بعض أمواله إلى حين استطاعته، كما تسمح نفسه بأن يبذل عليه أصل ماله، والبخيل يشق عليه ذلك. وثواب القرض عظيم، وفضله جسيم. قال الباقر (ع): " من أقرض رجلا قرضا إلى ميسرة، كان ماله في زكاة، وكان هو في الصلاة مع الملائكة حتى يقبضه ". وقال الصادق - عليه السلام -: " مكتوب على باب الجنة: الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر ". وقال (ع): " ما من مؤمن أقرض مؤمنا يلتمس به وجه الله، إلا حسب الله له أجره بحساب الصدقة، حتى يرجع ماله إليه، يعني أعطاه الله في كل آن أجر صدقة، ذلك لأن له قضاءه في كل آن، فلما لم يفعل فكأنما أعطاه ثانيا وثالثا وهلم جرا، إلى أن يقبضه ". وقال (ع): " لا تمانعوا قرض الخمير والخبز واقتباس النار، فإنه يجلب الرزق على أهل البيت مع ما فيه من مكارم الأخلاق ". وقال: " لا تمانعوا قرض

----

(٣٥) صححنا الحديث على (الوافي) ٦ / ٢٨٢، وعلى (فروع الكافي): كتاب الزكاة، باب الحصاد والجذاذ. وكذا ما بعده.

الخمير والخبز، فإن منعهما يورث الفقر " (٣٦).

وسادسها:

إنظار المعسر والتحليل

وهو أيضا من أفراد البذل المترتب على السخاء، وقد ورد في فضله أخبار كثيرة، قال الصادق (ع): " من أراد أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلينظر معسرا، أو يدع له من حقه ". وقال (ص): " إن رسول الله (ص) قال في يوم حار - وحنا كفه -: من أحب أن يستظل من فور جهنم؟ - قالها ثلاث مرات - فقال الناس في كل مرة: نحن يا رسول الله. فقال: من أنظر غريما أو ترك المعسر ". وقال (ع): " صعد رسول الله (ص) المنبر ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على أنبيائه، ثم قال: أيها الناس، ليبلغ الشاهد الغائب منكم، ألا ومن أنظر معسرا كان له على الله في كل يوم ثواب صدقة بمثل ماله، حتى يستوفيه ". وقيل له (ع): " إن لعبد الرحمن بن سبابة دينا على رجل قد مات، وقد كلمناه أن يحلله فأبى، فقال: ويحه! أما يعلم أن له بكل درهم عشرة إذا حلله،، وإن لم يحلله فإنما هو درهم بدرهم؟ " (٣٧). وفي معناها أخبار كثيرة أخر.

وسابعها:

بذل الكسوة والسكنى ونحوهما

غير ما ذكر من وجوه الإعانة بالمسلم، كبذل الكسوة والسكنى، وحمله على الدابة، وإعطائه الماعون، وإعارته المتاع وسائر ما يحتاج إليه، وإطراق الفحل وغير ذلك، فإن جميع ذلك من ثمرات السخاء، ومنعها من نتائج البخل. وفي كل واحد منها فضيلة وثواب، وورد في فضيلة كل منها أخبار.

ومما يدل على مدح كسوة المؤمن، قول الباقر (ع): " لأن أحج حجة أحب إلي من أن أعتق رقبة ورقبة ورقبة (حتى انتهى إلى عشرة)، ومثلها

---

(٣٦) صححنا الأحاديث الواردة في هذا المقام على (الوافي): ٦ / ٢٩٢، باب القرض.

(٣٧) صححنا جميع الأحاديث الواردة في هذا المقام على (الوافي): ٦ / ٢٩٢ باب إنظار المعسر والتحليل. وعلى (فروع الكافي): باب إنظار المعسر، كتاب الزكاة.

ومثلها (حتى انتهى إلى سبعين). ولإن أعول أهل بيت من المسلمين، أشبع جوعتهم، وأكسو عورتهم، واكف وجوههم عن الناس، أحب إلي من أن أحج حجة وحجة (حتى انتهى إلى عشر)، وعشر مثلها ومثلها (حتى انتهى إلى سبعين) " (٣٨). وقال الصادق (ع): " من كسا أخاه كسوة شتاء أو صيف، كان حقا على الله أن يكسوه من ثياب الجنة، وأن يهون عليه من سكرات الموت، وأن يوسع عليه في قبره، وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى. وهو قول عز وجل في كتابه:
" وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون " (٣٩).
وقال: " من كسا أحدا من فقراء المسلمين ثوبا من عري، أو أعانه بشئ مما يقويه على معيشته، وكل الله عز وجل به سبعة آلاف ملك من الملائكة، يستغفرون لكل ذنب عمله، إلى أن ينفخ في الصور " (٤٠).
وثامنها:
ما يبذل لوقاية العرض والنفس
ما يبذل لوقاية العرض، وحفظ الحرمة، ورفع شر الأشرار وظلم الظلمة. فإن السخي لا يقصر في شئ من ذلك، والبخيل ربما منع بخله عن ذلك، فيهتك عرضه ويذهب حرمته. وفي بعض الأخبار دلالة على أن البذل ذلك صدقة. وتقدم أن ما وقي المرء به عرضه فهو له صدقة، وكذا بذل ما تقتضيه المروة والعادة من ثمرات الجود والسخاء، ومن منعه كان بخيلا.
وتاسعها:
ما ينفق في المنافع العامة
والخيرات الجارية، من بناء المساجد والمدارس والربط والقناطير، وإجراء القنوات، وأمثال ذلك مما يبقى أثره على مر الدهور، ويصل نفعه وثوابه إلى صاحبه في كل وقت إلى يوم النشور. ولا يخفى ثواب ذلك.

---

(٣٨) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨٢، باب فضل الصدقة.
(٣٩) الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٤٠) صححنا الأحاديث الواردة في هذا المقام على (الكافي): باب من كسا مؤمنا.

والأخبار الواردة في مدحه وفضيلته أكثر من أن تحصى، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها بين الناس.

تنبيه

الفرق بين الإنفاق والبر والمعروف

إعلم أن لفظ الإنفاق والمعروف والبر يتناول جميع ما تقدم من الانفاقات الواجبة والمستحبة. والفرق بينها: أن الإنفاق خاص بالمال والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والاحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع من فعل وترك، وهو من الصفات الغالبة، أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه، والغالب في الأخبار إرادة ما يتعلق بالمال من معانيه. والبر كالمعروف في شموله لجميع أعمال الخير في الأصل، وانصراف إطلاقه غالبا في الأخبار إلى ما يتعلق بالمال من وجوه الانفاقات المتقدمة بأسرها، وربما خص بما سوى الصدقة منها، لما ورد: أن البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر. والظاهر أن مبنى الخبر على ذكر الخاص بعد العام، فلا وجه للتخصيص. ثم الصدقة تتناول جميع ما تقدم من وجوه الإنفاق، سوى المروة، وعلى أي تقدير، لا ريب في أن ما ورد ن الآيات والأخبار في فضيلة مطلق الإنفاق والمعروف والبر يدل على فضيلة كل واحد مما تقدم من وجوه الإنفاق، كقوله سبحانه: " أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم " (٤١). وقوله: " وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون " (٤٢) وقوله: " وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى... " الآية (٤٣). وقوله: " قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين... " الآية (٤٤). وقوله: " يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة " (٤٥). وقوله: " مثل

البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٤٢) البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٤٣) البقرة، الآية: ١٧٦.

(٤٤) البقرة، الآية: ٢١٥.

(٤٦) البقرة، الآية: ٢٥٤.

الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة... " الآية (٤٦). وقوله: " الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (٤٧).
وقول رسول الله (ص): " أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد على الحوض ". وقوله (ص): " إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة في سنام الجزور، أو من السبيل إلى منتهاه ". وقول الباقر (ع): " إن من أحب عباد الله إلى الله، لمن حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله ". وقول الصادق (ع): " إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف، وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف ". وقوله (ع): " رأيت المعروف كاسمه، وليس شئ أفضل من المعروف إلا ثوابه! ".
وقوله (ع) مخاطبا لزرارة: " ثلاثة إن تعلمهن المؤمن كانت زيادة في عمره وبقاء لنعمه عليه. فقلت: وما هن؟ فقال: تطويله في ركوعه وسجوده في صلاته، وتطويله لجلوسه على طعامه إذا أطعم على مائدته، واصطناعه المعروف إلى أهله ". وقوله (ع): " أقيلوا لأهل المعروف عثراتهم، واغفروا لهم، فإن كف الله عليهم هكذا - وأومأ بيده كأنه يظلل بها شيئا ". وقوله (ع): " صنائع المعروف تقي مصارع السوء ". وقال (ع): " إن للجنة بابا يقال له المعروف، لا يدخله إلا أهل المعروف. وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ": يعني كما أنهم يصنعون المعروف في الدنيا كذلك يصنعونه في الآخرة، يهبون حسناتهم لمن شاؤوا، كما قال الصادق (ع) في خبر آخر: " يقال لهم في الآخرة: إن ذنوبكم قد غفرت لكم، فهبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة ". وقال (ع): " قال أصحاب رسول الله (ص): يا رسول الله، فداك آباؤنا وأمهاتنا! إن

---

(٤٦) البقرة، الآية: ٢٦١.
(٤٧) البقرة، الآية: ٢٦٢.

أصحاب المعروف في الدنيا عرفوا بمعروفهم، فبم يعرفون في الآخرة؟ فقال (ص): إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، أمر ريحا عبقة طيبة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمر أحد منهم بملأ من أهل الجنة إلا وجدوا ريحه، فقالوا: هذا من أهل المعروف " (٤٨).

ومنها - أي من رذائل القوة الشهوية -:

طلب الحرام

وعدم الاجتناب عنه. ولا ريب في كونه مترتبا على حب الدنيا والحرص عليها، وهو أعظم المهلكات، به هلك أكثر من هلك، وجل الناس حرموا عن السعادة لأجله، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه. ومن تأمل يعلم أن أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوى الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار، وهو موجب لظلمة القلب وكدرته وهو الباعث لخبثه وغفلته، وهو العلة العظمى لخسران النفس وهلاكها، وهو السبب الأقوى لضلالتها وخباثتها، وهو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوي الضلالة والردى، وما للقلب المتكون من الحرام والاستعداد لفيوضات عالم القدس! وأنى للنطفة الحاصلة منه والوصول إلى مراتب الأنس! وكيف يدخل النور والضياء في قلب أظلمته أدخنة المحرمات؟! وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس أخبثتها قذارات المشتبهات؟!

ولأمر ما حذر عنه أصحاب الشرع وأمناء الوحي غاية التحذير، وزجروا منه أشد الزجر. قال رسول الله (ص): " إن لله ملكا على بيت المقدس، ينادي كل ليلة: من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل ": أي لا نافلة ولا فريضة. وقال (ص): " من لم يبال من أين اكتسب المال، لم يبال الله من أين أدخله النار ". وقال (ص): " كل لحم نبت من حرام فالنار

---

(٤٨) صححنا الأحاديث الواردة هنا على (الوافي): ٦ / ٢٨٩ - ٢٩٠. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، أبواب فعل المعروف، الباب ١ - ٦.

أولى به ". وقال (ص): " من أصاب مالا من مأثم، فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جمعا، ثم أدخله في النار، وقال (ص): " إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفية والربا ". وقال (ص): " من اكتسب مالا من الحرام، فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار " (٤٩). وقال (ع): " إذا اكتسب الرجل مالا من غير حله، ثم حج فلبى، نودي، لا لبيك ولا سعديك! وإن كان من حله، نودي: لبيك وسعديك! " (٥٠). وقال (ع): " كسب الحرام يبين في الذرية ". وقال (ع) في قوله تعالى: " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا " (٥١).
" إن كانت أعمالهم أشد بياضا من القباطي، فيقول الله عز وجل لها: كوني هباء وذلك أنهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه " (٥٢). وقال الكاظم (ع): " إن الحرام لا ينمى، وإن نمى لم يبارك فيه، وإن أنفقه لم يؤجر عليه، وما خلفه كان زاده إلى النار ". وفي بعض الأخبار: " إن العبد ليوقف عند الميزان، وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى تفني تلك المطالبات كل أعماله، فلا تبقى له حسنة. فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم بأعماله ". وورد: " إن أهل الرجل وأولاده يتعلقون به يوم القيامة، فيوقفونه بين يدي الله تعالى، ويقولون: يا ربنا، خذ لنا بحقنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام

---

(٤٩) هذه النبويات - عدا الخامس - مذكورة في (إحياء العلوم): ٢ / ٨١، وصححناها عليه. أما الخامس، فقد رواه في (الوسائل) عن الكافي): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب منه، الباب ١، الحديث ١.

(٥٠) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، باب عدم جواز الإنفاق من الكسب الحرام، الحديث ٣. وفي نسخ (جامع السعادات): " إذا كسب ".

(٥١) الفرقان، الآية: ٢٣.

(٥٢) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب ١، الحديث ٦. وكذا ما قبله في هذا الباب، الحديث ٣.

ونحن لا نعلم. فيقتص لهم منه " (١)

فصل

عزة تحصيل الحلال

ينبغي لطالب النجاة أن يفر من الحرام فراره من الأسد، ويحترز منه احترازه من الحية السوداء، بل أشد وأنى يمكنه ذلك في أمثال زماننا الذي لم يبق فيه من الحلال إلا الماء الفرات والحشيش النابت في أرض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة! ما من درهم إلا وقد غضب من أهله مرة بعد أولى، وما من دينار إلا وقد خرج من أيدي من أخذه قهرا كرة غب أولى، جل المياه (كذا) أو لأراضي من أهلها مغصوبة، وأنى يمكن القطع بحلية الأقوات وأكثر المواشي والحيوانات من أهلها منهوبة، فأنى يتأتى الحزم بحلية اللحوم والألبان والدسوم، فهيهات ذلك هيهات! ما من تاجر إلا ومعاملته مع الظالمين، وما من ذي عمل إلا وهو مخالط للجائرين من عمال السلاطين.

وبالجملة: الحلال في أمثال زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود. ولعمري! إن فقده آفة عم في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها. والظاهر أن أكثر الأعصار كان حالها كذلك. ولذلك قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): " المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطر ".

وقال رجل للكاظم (ع): " ادع الله جل وعز يرزقني الحلال، فقال: أتدري ما الحلال؟ قال: الكسب الطيب. فقال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: الحلال قوت المصطفين. لكن قل: أسألك من رزقك الواسع ".

ومع ذلك كله، لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق والفصل بين الأموال، فإن الله سبحانه أجل وأعظم من أن يكلف عباده بأكل الحلال ويسد عنهم طريق تحصيله.

---

(١) هذان الخبران الأخيران لم نعثر لهما على مستند وقد ذكرهما في (إحياء العلوم): ٣ / ٣٠، فقال عن الأول: " وفي الخبر "، وعن الثاني: " ويقال ".

فصل

أنواع الأموال

إعلم أن الأموال على أقسام ثلاثة: حلال بين، وحرام بين، وشبهات بينهما. ولكل منها درجات، فإن الحرام وإن كان كله خبيثا، إلا أن بعضه أخبث من بعض، فإن ما يؤخذ بالمعاملة الفاسدة مع التراضي ليس في الحرمة كمال اليتيم الذي يؤخذ قهرا. وكذا الحلال وإن كان كله طيبا، إلا أن بعضه أطيب من بعض. والشبهة كلها مكروهة، ولكن بعضها أشد كراهة من بعض. وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكن يقول بعضه حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية. وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، فكذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة. وكذلك درجات الحلال في الصفاء والطيبة، ودرجات الشبهة في الكراهة.

ثم الحرام إما يحرم لعينه، كالكلب والخنزير والتراب وغيرها من المحرمات العينية، أو لصفة، حادثة فيه، كالخمر لإسكاره، والطعام المسموم لسميته، أو لخلل في جهة إثبات اليد عليه. وله أقسام غير محصورة، كالمأخوذ بالظلم والقهر والغصب والسرقة والخيانة في الأمانة وغيرها، والغش والتلبيس والرشوة، وبالبخس في الوزن والكيل، وبإحدى المعاملات الفاسدة، من الربا والصرف والاحتكار، وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه. وقد نهى الله سبحانه عن جميع ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " (٢). وقوله: " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما... الآية " (٣). وعن خصوص الربا بقوله: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا أن كنتم مؤمنين "، ثم قال: " فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله "، ثم قال: " وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم " (٤)، ثم قال: " ومن عاد فأولئك أصحاب النار " (٥).

---

(٢) البقرة، الآية: ١٨٨.
(٣) النساء، الآية: ٩.
(٤) البقرة، الآية: ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٥٠) البقرة، الآية: ٢٧٥.

جعل أكل الربا في أول الأمر مؤديا إلى محاربة الله، وفي آخره متعرضا للنار. وقد ورد الذم الشديد على كل واحد منها بخصوصه في أخبار كثيرة، وهي في كتب الأخبار والفقه مذكورة، وتفصيل جميع المحرمات موكول إلى كتب الفقه، وليس هنا موضع بيانه فليرجع فيه إلى كتب الفقهاء ".

الفرق بين الرشوة والهدية

وربما يتوهم الاشتباه في بعض الموارد بين الرشوة والهدية، فلنشر إلى جلية الحال فيهما، فنقول: ههنا صور:

الأولى - أن يسلم أو يرسل مالا إلى بعض الإخوان طلبا للاستئناس، وتأكيدا للصحبة والتودد. وقد عرفت كونه هدية وحلالا، سواء قصد به الثواب في الآخرة والتقرب إلى الله تعالى أيضا، أو لم يقصد به الثواب، بل قصد مجرد الاستئناس والتودد.

الثانية - أن يقصد بالذل عوض مالي معين في العاجل، كأن يهدي الفقير إلى الغني أو الغني شيئا طمعا في عوض أكثر أو مساو من ماله. وهذا أيضا نوع هدية، وحقيقته ترجع إلى هبة بشرط العوض، وإذا وفى بما (يطمع فيه) (٦) من العوض فلا ريب في حليته. قال الصادق (ع): " الربا رباءان: ربا يؤكل وربا لا يؤكل. فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها، فذلك الربا الذي يؤكل، وهو قول الله تعالى: " وما أتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله " (٧). وأما الذي لا يؤكل، فهو الذي نهى الله عز وجل عنه، وأوعد عليه النار " (٨). وعنه عليه السلام: " قال: قال رسول الله (ص): الهدية على ثلاثة وجوه: هدية مكافأة، وهدية مصانعة، وهدية لله عز وجل " (٩). وفي بعض الأخبار نوع إشعار بالحل، وإن لم يتحقق الوفاء بما (يطمع فيه) (١٠)

---

(٦) في النسخ: " يطعمه "، فرجحنا ما أثبتناه.

(٧) الروم، الآية: ٣٩.

(٨) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب الربا، الباب ٣، الحديث ١.

(٩) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب ١١٦، الحديث ١.

(١٠) في النسخ: " يطمعه ".

من العوض، كخبر إسحق بن عمار عن الصادق عليه السلام: " قال: قلت له عليه السلام: الرجل الفقير يهدي إلي الهدية، يتعرض لما عندي فآخذها ولا أعطيه شيئا أيحل لي؟ قال نعم، هي لك حلال ولكن لا تدع أن تعطيه " (١١). وهل يحل مع إعطائه العوض المطموع فيه إذا لم يكن من ماله، بل كان من الأموال التي أعطته الناس ليصرف إلى الفقراء من الزكوات والأخماس وسائر وجوه البر، والظاهر الحل إذا كان المهدي من أهل الاستحقاق والمهدي له معطيا إياه، وإن لم يكن ليهدي له شيئا. وفيه تأمل، كما يظهر بعد ذلك.

الثالثة - أن يقصد به الإعانة بعمل معين، كالمحتاج إلى السلطان أو ذي شوكة يهدي إلى وكيلهما، أو من له مكانة عندهما، فينظر إلى ذلك العمل، فإن كان حراما، كالسعي في تنجز إدرار حرام أو ظلم إنسان أو غير ذلك. أو واجبا، كدفع ظلم أو استخلاص حق ينحصر الدفع والاستخلاص به، أو شهادة معينة، أو حكم شرعي يجب عليه، أو أمثال ذلك، فهو رشوة محرمة يحرم أخذها، وإن كان العمل مباحا لا حراما ولا واجبا. فإن كان فيه تعب، بحيث جاز الاستئجار عليه، فما يأخذه حلال وجار مجرى الجعالة، كأن يقول: أوصل هذه الفضة إلى السلطان، ولك دينار. أو اقترح على فلان أن يعينني على كذا أو يعطيني كذا، وتوقف تنجز غرضه على تعب أو كلام طويل، فما يأخذه في جميع ذلك مباح، إذا كان الغرض مشروعا مباحا، وهو مثل ما يأخذه وكيل القاضي للخصومة بين يديه، بشرط ألا يتعدى من الحق. وإن لم يكن العمل مما فيه تعب، بل كان مثل كلمة أو فعلة لا تعب فيها أصلا، ولكن كانت تلك الكلمة أو تلك الفعلة من مثله مفيدة، لكونه ذا منزلة، كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان، فقال بعض العلماء: الأخذ على هذا حرام، إذ لم يثبت في الشرع جواز ذلك. ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينبه بها على دواء يتفرد بمعرفته. وفيه نظر، إذ الظاهر جواز هذا

---

(١١) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، ١١٩، الحديث ٢

الأخذ مع مشروعية الغرض وعدم كونه واجبا عليه.
الرابعة - أن يطلب به حصول التودد والمحبة، ولكن لا من حيث إنه تودد فقط، بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها، وكان بحيث لولا جاهه لكان لا يهدى إليه، فإن كان جاهه لأجل علم أو ورع أو نسب فالأمر فيه أخف، والظاهر كون الأخذ حينئذ مكروها، لأنه هدية في الظاهر مع كونه مشابها للرشوة. وإن كان لأجل ولاية تولاها، من قضاء أو حكومة أو ولاية صدقة أو وقف أو جباية مال أو غير ذلك من الأعمال السلطانية، فالظاهر كون ما يأخذه حراما لو كان بحيث لا يهدى إليه لولا تلك الولاية، لأنه رشوة عرضت في معرض الهدية، إذ القصد بها في الحال طلب التقرب والمحبة، ولكن لأمر ينحصر في جنسه، لظهور أن ما يمكن التوصل إليه بالولايات ماذا، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: " يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية، والقتل بالموعظة، يقتل البرئ لتوعظ به العامة ". وروي: " أنه (ص) بعث واليا على صدقات الأزد، فلما جاء أمسك بعض ما معه، وقال: هذا لكم وهذا لي هدية. فقال (ص): ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هدية إن كنت صادقا! ثم قال: ما لي استعمل الرجل منكم، فيقول: هذه لكم وهذه هدية لي، ألا جلس في بيت أمه ليهدى له! والذي نفسي بيده! لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله بحمله، ولا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر... ثم رفع يديه حتى رأوا بياض إبطيه، وقال: اللهم هل بلغت؟ " (١٢).
وعلى هذا، فينبغي لكل وال أو حاكم وقاض وغيرهم من عمال السلاطين، أن يقدر نفسه في بيت أبيه وأمه معزولا بلا شغل، فما كان يعطى حينئذ يجوز له أن يأخذه في ولايته أيضا، وما لا يعطى مع عزله ويعطى لولايته يحرم أخذه، وما أشكل عليه من عطايا أصدقائه فهو شبهة، وطريق الاحتياط فيها واضح.

---

(١٢) صححنا هذين النبويين على ما في (إحياء العلوم): ٢ / ١٣٧.

وصل

الورع عن الحرام

ضد عدم الاجتناب عن الحرام التنزه والاحتياط عنه، وهو الورع بأحد إطلاقيه. فإن الورع قد يفسر بملكة التنزه والاجتناب عن مال الحرام أكلا وطلبا وأخذا واستعمالا، وقد يفسر بكف النفس عن مطلق المعاصي ومنعها عما لا ينبغي. فعلى الأول يكون ضدا لعدم الاجتناب عن المال الحرام، ويكون من رذائل قوة الشهوة، وعلى الثاني يكون ضدا لملكة الولوع على مطلق المعصية، ويكون من رذائل القوة الغضبية والشهوية جميعا.

ثم الظاهر أن التقوى مرادفة للورع، فإن لها أيضا تفسيرين: أحدهما: الاتقاء عن الأموال المحرمة، وقد أطلقت التقوى في بعض الأخبار على هذا المعنى. وثانيهما: ملكة الاتقاء عن مطلق المعاصي، خوفا من سخط الله وطلبا لرضاه. فعلى الأول يكون ضدا لعدم التنزه عن المال الحرام ورذيلة للقوتين معا.

ثم اللازم على طريقتنا أن يذكر الورع والتقوى بالتفسير الأول هنا. وبالتفسير الثاني في المقام الرابع الذي نذكر فيه ما يتعلق بالقوتين أو بالثلاث من الرذائل والفضائل. إلا أنا نذكر ما ورد في فضيلتهما هنا، لدلالة ما ورد في فضيلتهما بالتفسير الثاني على فضيلتهما بالتفسير الأول أيضا، ولعدم فائدة في استئناف عنوان على حدة لمطلق المعصية وذكر ما ورد في ذمها، ثم تذييلها بضدها الذي هو الورع والتقوى بتفسيريهما العام. إذ بعد ذكر جميع الأجناس والأنواع والأصناف من المعاصي والطاعات، بأحكامها ولوازمها وذمها ومدحها، لا فائدة لاستئناف ذكر مطلق المعصية أو الطاعة، إذ لا يتعلق بهما غرض سوى ذكر ما ورد في ذم مطلق المعصية، وما ورد في مدح مطلق الطاعة، وهذا أمر ظاهر لا حاجة إليه في كتب الأخلاق.

نعم، نشير إلى مطلق العصيان وضده، أعني الورع والتقوى بالمعنى الأعم، إجمالا، ضبطا للأنواع والأقسام.

فصل

مدح الورع

الورع والتقوى عن الحرام أعظم المنجيات، وعمدة ما ينال به إلى السعادات ورفع الدرجات. قال رسول الله (ص): " خير دينكم الورع ". وقال (ص): " من لقى الله سبحانه ورعا، أعطاه الله ثواب الإسلام كله ". وفي بعض الكتب السماوية: " وأما الورعون، فإني أستحيي أن أحاسبهم ". وقال الباقر (ع): " إن أشد العبادة الورع ". وقال (ع): " ما شيعتنا إلا من أتقى الله وأطاعه، فاتقوا الله وأعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحب العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أبقاهم وأعملهم بطاعته ". وقال الصادق (ع): " أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه ". وقال: " اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع ". وقال (ع): " عليكم بالورع، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بالورع ". وقال (ع): " إن الله ضمن لمن اتقاه، أن يحوله عما يكره إلى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب ". وقال (ع): " إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى ". وقال (ع): " ما نقل الله عبدا من ذل المعاصي إلى عز التقوى، إلا أغناه من غير مال، وأعزه من غير عشيرة، وآنسه من غير بشر ". وقال (ع): " إنما أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه: هؤلاء أصحابي ". وقال (ع): " ألا وإن من أتباع أمرنا وإرادته الورع، فتزينوا به يرحمكم الله، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله ". وقال (ع): " أعينونا بالورع، قال من لقي الله تعالى منكم بالورع، كان له عند الله فرجا. إن الله عز وجل يقول:
" ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " (١٣).
فمنا النبي، ومنا الصديق والشهداء والصالحون ". وقال أبو جعفر - عليه السلام -: " قال الله عز وجل: يا بن آدم، اجتناب ما حرم عليك،

----

(١٣) النساء، الآية: ٦٨.

تكن من أورع الناس ". وسئل الصادق - عليه السلام - عن الورع من الناس، فقال: " الذي يتورع عن محارم الله عز وجل " (١٤).

ولكون طلب الحرام وعدم الاجتناب عنه باعثا للهلاك، وتوقف النجاة والسعادة في الآخرة على الورع عن المحرمات، مع افتقار الناس في الدنيا إلى المطاعم والملابس، ورد في فضيلة كسب الحلال ومدحه ما ورد.

قال رسول الله (ص): " طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة ". وقال (ع): " من بات كالا من طلب الحلال، بات مغفورا له ". وقال (ص): " العبادة سبعون جزأ، أفضلها طلب الحلال ". وقال (ص): " العبادة عشرة أجزاء، تسعة أجزائه في طلب الحلال ". وقال (ص): " من أكل من كد يده، نظر الله إليه بالرحمة، ثم لا يعذبه أبدا ". وقال (ص): " من أكل من كد يده حلالا، فتح الله له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ". وقال (ص): " من أكل من كد يده، كان يوم القيامة في عداد الأنبياء، ويأخذ ثواب الأنبياء ". وقال (ص): " من طلب الدنيا استعفافا عن الناس وسعيا على أهله وتعطفا على جاره، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر " (١٥). وكان (ص) إذا نظر إلى الرجل وأعجبه، قال: " هل له حرفة؟ فإن قال: لا، قال: سقط من عيني. قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن المؤمن إذا لم تكن له حرفة يعيش بدينه ". وقال - صلى الله عليه وآله -: " من سعى على عياله من حله، فهو كالمجاهد في سبيل الله ". وقال (ص): " من طلب الدنيا حلالا في عفاف، كان في درجة الشهداء ". وقال (ص): " من أكل الحلال أربعين يوما، نور الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ". وطلب منه

---

(١٤) صححنا الأحاديث الواردة في هذا الفصل على الكافي باب الطاعة والتقوى، وباب الورع. وعلى (البحار): ٢ مج ١٥ / ٩٦ - ٩٨ باب الطاعة والتقوى، وباب الورع واجتناب الشبهات.

(١٥) صححنا أكثر الأحاديث المذكورة هنا على الوسائل: كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ٤ وعلى فروع الكافي: كتاب المعيشة، باب الحث على الطلب والتعرض للرزق.

- صلى الله عليه وآله - بعض الصحابة أن يجعله الله تعالى مستجاب الدعوة، فقال له: " أطب طعمتك تستجب دعوتك ". وقال الصادق عليه السلام: " اقرؤا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرؤكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل، وما ينال به ما عند الله، إني والله ما آمركم إلا بما تأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد، وإذا صليتم الصبح وانصرفتم، فبكروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال، فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه " (١٦).

فصل

مداخل الحلال

إعلم أن مداخل الحلال خمسة:

الأول - ما لا يؤخذ من مالك، كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاحتشاش، والاستقاء من الشطوط والأنهار، وهذا حلال بشرط عدم صيرورته مختصا بذي حرمة من الناس، وتفصيل ذلك موكول إلى كتاب أحياء الموات.

الثاني - ما يؤخذ قهرا ممن لا حرمة له، وهو الفيئ، والغنيمة، وسائر أموال الكفار المحاربين. وذلك حلال للمسلمين بالشروط المقررة في كتاب الغنائم والجزية.

الثالث - ما ينتقل إليه بالرضى من غير عوض، من حي أو ميت، كالهبة، والميراث، والوصية، والصدقات. وهذا حلال بشرط أن يكون المنقول منه اكتسبه من مداخل الحلال، وبضمن سائر الشروط المقررة في كتاب الهبات والفرايض والوصايا والصدقات.

الرابع - ما يؤخذ تراضيا بمعاوضة، وذلك حلال بالشرائط والآداب المقررة في فن المعاملات من الفقه، من البيع، والسلم، والإجارة، والصلح، والشركة، والمضاربة، والمزارعة، والمساقاة، والحوالة، والضمان، والكتابة، والخلع، والصداق، وغير ذلك من المعاوضات.

الخامس - ما يحصل من الزراعة ومنافع الحيوانات. وهو حلال

---

(١٦) صححنا الحديث على الوسائل: كتاب التجارة، في الباب المتقدم.

إذا كان الأرض والبذر والماء والحيوانات حلالا بأحد الوجوه المتقدمة.

فهذه مداخل الحلال، فينبغي لطالب النجاة أن يكون ما يكتسبه من المال من أحد هذه المداخل، بعد فتوى الفقيه العدل بحصول شرائط الحلية.

فصل

درجات الورع

قسم بعض العلماء الورع والتقوى عن الحرام على أربع درجات:

الأول - ورع العدول: وهو الاجتناب عن كل ما يلزم الفسق باقتحامه، وتسقط به العدالة، ويثبت به العصيان والتعرض للنار، وهو الورع عن كل ما يحرمه فتوى المجتهدين.

الثانية - ورع الصالحين: وهو الاجتناب من الشبهات أيضا.

الثالثة - الورع عما يخاف أداؤه إلى محرم أو شبهة أيضا، وإن لم يكن في نفسه حراما ولا شبهة، فهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الرابعة - ورع الصديقين: وهو الاجتناب عن كل ما ليس لله، ويتناول لغير الله، وغير نيته التقوى على عبادته وإن كان حلالا صرفا لا يخاف أداؤه إلى حرام أو شبهة. والصديقون الذين هذه درجتهم هم الموحدون المتجردون عن حظوظ أنفسهم، المتفردون لله تعالى بالقصد، الراؤن كل ما ليس لله تعالى حراما، العاملون بقوله سبحانه:

" قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون " (١٧).

تتميم

قال الصادق (ع): " التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى من خوف النار والعقاب، وهو ترك الحرام، وهو تقوى العام. وتقوى من الله، وهو ترك الشبهات فضلا عن الحرام، وهو تقوى الخاص. وتقوى في الله، وهو ترك الحلال فضلا عن الشبهة " (١٨) وإلى هذه المراتب الثلاث

----

(١٧) الأنعام، الآية: ٩١.

(١٨) هذا مقتبس من (مصباح الشريعة): الباب ٨٣ وفيه تقديم وتأخير في مراتب التقوى عما هنا ولم يتبين لنا وجه صحة التعبير: تقوى العام وتقوى الخاص، فأثبتناه كما وجدناه.

أشير في الكتاب الإلهي بقوله:
" ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين " (١٩).

ومنها:

الغدر والخيانة

في المال أو العرض أو الجاه. ويدخل تحته الذهاب بحقوق الناس خفية، وحبسها من غير عسر، وبالبخس في الوزن والكيل، وبالغش بما يخفى، وغير ذلك من التدليسات المموهة والتلبيسات المحرمة. وجميع ذلك من خباثة القوة الشهوية ورذائلها، ومن الرذائل المهلكة وخبائثها.

وقد وردت في ذم الخيانة وبأقسامها أخبار كثيرة، وجميع ما يدل على ذم الذهاب بحقوق الناس وأخذ أموالهم بدون رضاهم يدل على ذمها.

وضد الخيانة (الأمانة)، وقد وردت في مدحها وعظم فوائدها أخبار كثيرة، كقول الصادق عليه السلام: " إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر ". وقوله عليه السلام: " لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء الأمانة " (٢٠) وقوله عليه السلام: " انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله (ص) فألزمه فإن عليا عليه السلام إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله (ص) بصدق الحديث وأداء الأمانة " (٢١). وقوله عليه السلام " ثلاث لا عذر فيها لأحد: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد إلى البر والفاجر، وبر الوالدين

---

(١٩) المائدة، الآية: ٩٦.

(٢٠) في نسخ جامع السعادات والبحار والوسائل: " عند صدق الحديث... ". ورجحنا نسخة الكافي.

(٢١) صححنا هذه الأحاديث الثلاثة على البحار: ٢ مج ١٥ / ١٢٣ - ١٢٤، باب الصدق ولزوم أداء الأمانة وعلى الكافي: باب الصدق وأداء الأمانة. وعلى الوسائل: كتاب الوديعة الباب ١.

برين كانا أو فاجرين " (٢٢). وقوله عليه السلام: " كان أبي يقول: أربع من كن فيه كمل إيمانه، وإن كان من قرنه إلى قدمه ذنوبا لم ينقصه ذلك وهي: الصدق، وأداء الأمانة، والحياء، وحسن الخلق " (٢٣). وقوله عليه السلام: " أهل الأرض مرحومون ما يخافون وأدوا الأمانة وعملوا بالحق ". وقيل له عليه السلام: " إن امرأة بالمدينة كان الناس يضعون عندها الجواري فيصلحن، ومع ذلك ما رأينا مثل ما رأينا مثل ما صب عليها من الرزق. فقال: إنها صدقت الحديث وأدت الأمانة، وذلك يجلب الرزق " (٢٤). والأخبار في فضيلة الأمانة كثيرة. ولقد قال لقمان: " ما بلغت إلى ما بلغت إليه من الحكمة، إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة ".
فمن تأمل في ذم الخيانة وإيجابها الفضيحة والعار في الدنيا والعذاب والنار في الآخرة، وفي فضيلة الأمانة وأدائها إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة، سهل عليه ترك الخيانة والاتصاف بالأمانة.

ومنها:

أنواع الفجور

من الزنا، واللواط، وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهي، واستعمال آلاتها، من العود، والمزمار، والرباب، والدف، وأمثالها. فإن كل ذلك من رذائل القوة الشهوية. وكذا لبس الذهب والحرير للرجال. وقد وردت في ذم كل واحد منهما بخصوصه أخبار كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها، لشيوعها واشتهارها.

ومنها:

الخوض في الباطل

وهو التكلم في المعاصي والفجور وحكايتها، كحكايات أحوال النساء،

---

(٢٢) روى في الكافي باب بر الوالدين -: هذا الحديث عن أبي جعفر - عليه السلام - وجاء فيه: " ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة... "، ولكن في الوسائل - كتاب الوديعة الباب ٢ الطبعة الحجرية - رواه عن الكافي كما في المتن.

(٢٣) روي في الكافي باب حسن الخلق - هذا الحديث عن الصادق - عليه السلام -، وليس فيه: " كان أبي يقول ".

(٢٤) صححنا الحديث على الوسائل: كتاب الوديعة، الباب، ١، وهو يرويه عن الكافي.

ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، وأمثال ذلك. فكل ذلك من رداءة القوة الشهوية وخباثتها.
ثم لما كانت أنواع الباطل غير محصورة لكثرتها، فالخوض فيه أيضا كذلك، وتكون له أنواع غير متناهية، ولا يفتح باب كلام إلا وينتهي إلى واحد منها، فلا خلاص منه إلا باقتصار الكلام على قدر الحاجة من مهمات الدين والدنيا. وربما وقعت من الرجل من أنواع الخوض في الباطل كلمة تهلكه وهو مستحقر لها، فإن أكثر الخوض في الباطل حرام، ولذا قال رسول الله (ص): " أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل ". وإليه الإشارة بقوله تعالى:
" وكنا نخوض مع الخائضين " (٢٥). وقوله تعالى: " فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره " (٢٦).
وقال (ص): " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة " (٢٧). وقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه -: " أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة، أكثرهم كلاما في معصية الله ". وكان رجل من الأنصار يمر على مجلس الخائضين في الباطل، فيقول لهم: " توضؤا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث ".
ثم الخوض في الباطل هو ذكر محظورات سبق وجودها بمجرد شهوة النفس، من دون حاجة داعية إليه، فلا مدخلية له بمثل الغيبة والنميمة والفحش والمراء والجدال وأمثالها، ويدخل فيه الخوض في حكايات البدع والمذاهب الفاسدة، فإن الحديث عنها خوض في الباطل، وورد النهي عنه.

---

(٢٥) المدثر، الآية: ٤٥.
(٢٦) النساء، الآية: ١٣٩.
(٢٧) صححناه على كنز العمال: ٢ / ١١٢.

ومنها:
التكلم بما لا يعني أو بالفضول
والمراد بالأول: التكلم بما لا فائدة فيه أصلا، لا في الدين ولا في الدنيا، والثاني - أعني فضول الكلام -: أعم منه، إذ يتناول الخوض في ما لا يعني والزيادة في ما يعني على قدر الحاجة. فإن من يعنيه أمر ويتمكن من تقريره وتأديته وتأدية مقصوده بكلمة واحدة، ومع ذلك ذكر كلمتين، فالثانية فضول، أي فضل على الحاجة. ولا ريب في أن التكلم بما لا يعني وبالفضول مذموم، وإن لم يكن فيه إثم، وهو ناش عن رداءة القوة الشهوية، إذ الباعث عليه ليس إلا مجرد تشهي النفس وهواها.
والسر في ذمه: أنه يوجب تضييع الوقت، والمنع من الذكر والفكر، وربما يبنى لأجل تهليله أو تسبيحه قصر في الجنة، وربما ينفح من نفحات رحمة الله عند الفكرة ما يعظم جدواه. فمن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز، فأخذ بدله مدرة لا ينتفع بها، كان خاسرا. فمن ترك ذكر الله والفكر في عجائب قدرته، واشتغل بمباح لا يعنيه، وإن لم يأثم، إلا أنه قد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله وفكره. فإن رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه، ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة، فقد ضيع رأس ماله. على أن الغالب تأدية الخوض في ما لا يعني وفي الفضول إلى الخوض في الباطل، وربما أدى إلى الكذب بالزيادة والنقصان. ولذا ورد في ذمه ما ورد، وقد روي: " أنه استشهد يوم أحد غلام من أصحاب النبي (ص)، ووجد على بطنه حجر مربوط من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئا لك الجنة يا بني! فقال النبي (ص): وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره؟ ". وورد أيضا: " أن رسول الله (ص) قال لبعض أصحابه - وهو مريض -: أبشر. فقالت أمه: هنيئا لك الجنة! فقال رسول الله (ص): وما يدريك؟ لعله قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه؟ ": يعني إنما تتهنأ الجنة لمن لا يحاسب، ومن يتكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه مباحا، فلا تتهنأ له الجنة مع المناقشة في الحساب، فإنه نوع من العذاب. وروي: " أنه تكلم رجل

عند النبي (ص) فأكثر، فقال له النبي: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني. فقال: أفما كان في ذلك ما يرد كلامك؟ ". وفي رواية أخرى: " إنه قال ذلك في رجل أثنى عليه، فاستهتر في الكلام، ثم قال: ما أوتي رجل شرا من فضل في لسانه ". وروي: " أنه قدم رهط من بني عامر على رسول الله (ص)، فشرعوا بالمدح والثناء عليه. فقال (ص): قولوا قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان! " (٢٨). ومراده (ص): إن اللسان إذا أطلق الثناء، ولو بالصدق، فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال بعض الصحابة: " إن الرجل ليكلمني بالكلام وجوابه أشهى إلي من الماء البارد على الظمآن، فأتركه خيفة أن يكون فضولا ". وقال بعض الأكابر: " من كثر كلامه كثر كذبه ". وقال بعضهم: " يهلك الناس في خصلتين: فضول المال، وفضول الكلام ".

فصل

حد التكلم بما لا يعني

التكلم بما لا يعني وبالفضول لا تنحصر أنواعه وأقسامه، لعدم تناهيها وإنما حده أن تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم، ولم تتضرر في شئ مما يتعلق بك، ولم يعطل شئ من أمورك. مثاله: أن تحكي مع قوم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقايع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تتضرر، ولا يتصور فيها فائدة دينية ولا دنيوية لأحد، فإذا بالغت في الاجتهاد حتى لا تمتزج بحكايتك زيادة ونقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب شخص ولا مذمة شئ مما خلقه الله، فإنك مع ذلك كله مضيع وقتك.

ثم كما إن التكلم بما لا يعنيك مذموم، كذلك سؤالك غيرك عما لا يعنيك مذموم، بل هو أشد ذما، لأنك بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت أيضا صاحبك بالجواب إلى تضييع وقته. وهذا إذا كان الشئ مما لا يتطرق

---

(٢٨) صححنا أحاديث الباب كلها على (إحياء العلوم): ٣ / ٩٣ - ٩٩، وعلى (كنز العمال): ٢ / ١٣٠، ١٨٤.

إلى السؤال عنه آفة، ولو كان في جوابه آفة - كما هو الشأن في أكثر الأسئلة عما لا يعنيك - كنت آثما عاصيا. مثلا: لو سألت غيرك عن عبادته، فتقول: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهرا عبادته، فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل الرياء سقطت عبادته - على الأقل - من دون عبادة السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذبا، وإن سكت، كان مستحقرا إياك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى تعب وجهد فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء والكذب، أو للاستحقار، أو التعب في حيلة الدفع.

وكذلك سؤالك عن كل ما يخفى ويستحيي من إظهاره، أو عما يحتمل أن يكون في إظهاره مانع، كان يحدث به أحد غيرك، فتسأله وتقول: ماذا تقول؟ وفيم أنتم؟ وكأن ترى إنسانا في الطريق فتقول: من أين؟ إذ ربما يمنع مانع من إظهار مقصوده. ومن هذا القبيل سؤالك غيرك: لم أنت ضعيف؟ أو ما هذا الضعف أو الهزال الذي حدث بك؟ أو أي مرض فيك؟ وأمثال ذلك. وأشد من ذلك أن تخوف مريضا بشدة مرضه، وتقول: ما أشد مرضك وما أسوأ حالك! فإن جميع ذل وأمثالها، مع كونها من فضول الكلام والخوض في ما لا يعني، يتضمن إثما وإيذاء. وليس من مجرد التكلم بما لا يعني والفضول، وإنما مجرد ما لا يعني ما لا يتصور فيه إيذاء وكسر خاطر واستحياء من الجواب، كما روي: " أن لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، ولم يكن يراها قبل ذلك، فجعل يتعجب مما يرى. فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة، فأمسك نفسه ولم يسأله. فلما فرغ داود، قام ولبسها، وقال: نعم الدرع للحرب! فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله ". وهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وإيقاع في رياء أو كذب، فهو مما لا يعني، وتركه من حسن الإسلام.

فصل

علاج الخوض فيما لا يعني

سبب الخوض في ما لا يعني وفي فضول الكلام: إما الحرص على معرفة

ما لا حاجة إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الوقت بحكايات أحوال لا فائدة فيها، وكل ذلك من رداءة قوة الشهوة. وعلاج ذلك من حيث العلم: أن يتذكر ذمه كما مر، ومدح ضده، أعني الصمت وتركه - كما يأتي - ويعلم أن الموت بين يديه، وإنه مسؤول عن كل كلمة وإن أنفاسه رأس ماله، وإن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين: فإهماله وتضييعه خسران، ومن حيث العمل أن يعتزل عن الناس مهما أمكن، ويلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعينه ليتعود لسانه ترك ما لا يعنيه، وأن يقدم التأمل والتروي على كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن كان فيه فائدة دينية أو دنيوية تكلم به وإلا تركه. وكان بعضهم يضع في فمه حجرا، خوفا من التكلم بالفضول وما لا يعنيه.

وصل

الصمت

ضد التكلم بما لا يعنيه وبالفضول تركها، إما بالصمت أو بالتكلم فيما يعنيه مما يتعلق بدينه أو دنياه. وفوائد الصمت ومدحه يأتي في موضعه.

وقد وردت أخبار في المدح على خصوص ترك ما لا يعني وفضول الكلام، كقول النبي (ص): " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ". وقوله (ص): " طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله! ". وانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك، فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان. وروي: " أنه (ص) قال ذات يوم: إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة. فلما دخل هذا الرجل، قالوا له: أخبرنا بأوثق عملك في نفسك ترجو به. فقال: إني رجل ضعيف العمل، وأوثق ما أرجو الله به سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني ". وقال (ص) لأبي ذر: " ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان. قال: بلى يا رسول الله. قال: هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك ". قال ابن عباس: " خمس هن أحسن من الدراهم الموثقة: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر. ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت. ولا تمار حليما

ج: ٢

ولا سفيها، فإن الحليم يغلبك بصمته، وإن السفيه يؤذيك بمنطقه. واذكر أخاك إذا تغيب عن بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه. واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاحترام " (٢٩). وقيل للقمان: ما حكمتك؟ قال: " لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني ". وما ورد في فضيلة ترك الفضول وما لا يعني في أخبار الحجج عليهم السلام وكلمات الأكابر من الحكماء والعرفاء أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لأهل الاستبصار.

----

(٢٩) ذكر هذه الرواية عن ابن عباس في (إحياء العلوم): ٣ / ٩٧.
وفيه اختلاف كثير عما هنا، ولم يحصل لنا أن نحققها على مصدر آخر.
والأحاديث النبوية هنا رواها في (إحياء العلوم) أيضا في الموقع المذكور.

المقام الرابع
فيما يتعلق بالقوى الثلاث من العاقلة وقوتي الغضب والشهوة، أو باثنتين منها من الرذائل والفضائل
الحسد وذمه - الغبطة - بواعث الحسد - لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين - علاج الحسد - القدر الواجب في نفي الحسد - النصيحة - الإيذاء والإهانة - كف الأذى - ذم الظلم - العدل - إخافة المؤمن - إدخال السرور على المؤمن - ترك إعانة المسلمين - قضاء حوائج المسلمين - المداهنة في الأمر بالمعروف - السعي فيه - وجوبه وشروطه - لا تشترط العدالة فيه - مراتبه - ما ينبغي في الآمر والناهي - أنواع المنكرات - الهجران - التآلف - قطع الرحم - صلة الرحم - المراد منه - عقوق الوالدين - برهما - حق الجوار - حدود الجو أو وحقه - طلب العثرات - ستر العيوب - إفشاء السر - كتمان السر - النميمة - السعاية - الافساد بين الناس - الإصلاح - الشماتة - المراء - علاجه - طيب الكلام - السخرية - المزاح - المذموم منه - الغيبة - لا تنحصر الغيبة باللسان - بواعثها - ذمها - مسوغاتها - كفارتها - البهتان - المدح - الكذب - ذمة - مسوغاته - التورية والمبالغة - شهادة الزور - علاج الكذب - الصدق ومدحه - أنواعه - اللسان أضر الجوارح - الصمت - حب الجاه - ذمه - الجاه أحب من المال - لا بد للانسان من جاه - دفع إشكال - الكمال الحقيقي في العلم والقدرة والجاه والمال - علاج حب الجاه - الخمول - مراتب حب المدح - أسبابه - علاجه - ضد حب المدح - الرياء - ذمه - أقسامه - تأثير الرياء على العبادة - السرور بالاطلاع على العبادة - متعلقات الرياء - بواعثه - الرياء الجلي والخفي - كف يفسد الرياء العمل - شوائب الرياء المبطلة للعمل - علاجه - الوسوسة بالرياء - الإخلاص - مدحه - آفاته - النفاق.

فمنها:
الحسد
وهو تمني زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو (غبطة) ومنافسة، فإن لم يكن له فيها صلاح واردت زوالها عنه فهو (غيرة). ثم إن كان باعث حسدك مجرد الحرص على وصول النعمة إلى نفسك، فهو من رداءة القوة الشهوية وإن كان باعثه محض وصول المكروه إلى المحسود، فهو من رذائل القوة الغضبية، ويكون من نتائج الحقد الذي من نتائج الغضب، وإن كان
باعثه مركبا منهما، فهو من رداءة القوتين. وضده (النصيحة)، وهي
إرادة بقاء نعمة الله على أخيك المسلم مما له فيه صلاح.
ولا ريب في أنه لا يمكن الحكم على القطع بكون هذه النعمة صلاحا أو فسادا. فربما كانت وبالأعلى صاحبه فسادا له، مع كونها نعمة وصلاحا في بادئ النظر. فالمناط في ذلك غلبة الظن، فما ظن كونه صلاحا فإرادة زواله حسد وإرادة بقائه نصيحة، وما ظن كونه فاسدا فإرادة زواله غيرة.
ثم إن اشتبه عليك الصلاح والفساد، فلا ترد زوال نعمة أخيك ولا بقاءها إلا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح، لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك حكم النصيحة. والمعيار في كونك ناصحا: أن تريد لأخيك ما تريد لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسدا: أن تريد له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسدا: أن تريد له ما تكره لنفسك، وتكره له ما تريد لنفسك.
فصل
ذم الحسد
الحسد أشد الأمراض وأصعبها، وأسوأ الرذائل وأخبثها، ويؤدي
بصاحبه إلى عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة، لأنه في الدنيا لا يخلو لحظة عن الحزن والألم، إذ هو يتألم بكل نعمة يرى لغيره، ونعم الله تعالى غير متناهية لا تنقطع عن عباده، فيدوم حزنه وتألمه. فوبال حسده يرجع إلى نفسه، ولا يضر المحسود أصلا، بل يوجب ازدياد حسناته ورفع درجاته من حيث

إنه يعيبه، ويقول فيه ما لا يجوز في الشريعة، فيكون ظالما عليه، فيحمل بعضا من أوزاره وعصيانه، وتنقل صالحات أعماله إلى ديوانه، فحسده لا يؤثر فيه إلا خيرا ونفعا، ومع ذلك يكون في مقام التعاند والتضاد مع رب الأرباب وخالق العباد، إذ هو الذي أفاض النعم والخيرات على البرايا كما شاء وأراد بمقتضى حكمته ومصلحته، فحكمته الحقة الكاملة أوجبت بقاء هذه النعمة على هذا العبد، والحاسد المسكين يريد زوالها، وهل هو إلا سخط قضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وتمنى انقطاع فيوضات الله التي صدرت عنه بحسب حكمته وإرادة خلاف ما أراد الله على مقتضى مصلحته؟! بل هو يريد نقصه سبحانه، وعدم اتصافه بصفاته الكمالية.

إذ إفاضة النعم منه سبحانه في أوقاتها اللائقة على محالها المستعدة من صفاته الكمالية التي عدمها نقص عليه تعالى، وإلا لم يصدر عنه، وهو يريد ثبوت هذا النقص، ثم لتمنيه زوال النعم الإلهية التي هي الوجودات ورجوع الشرور إلى الإعدام يكون طالبا للشر ومحبا له. وقد صرح الحكماء بأن من رضي بالشر، ولو بوصوله إلى العدو، فهو شرير. فالحسد أشد الرذائل، والحاسد شر الناس. وأي معصية أشد من كراهة، راحة مسلم من غير أن يكون له فيها مضرة؟ ولذا ورد به الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه في معرض الإنكار:

" أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله " (١). وقال: " ود كثير من أهل الكتاب أن يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم " (٢). وقال: " إن تمسكم حسنة تسؤوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها " (٣).

وقال رسول الله (ص): " الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب ". وقال (ص): " قال الله عز وجل لموسى بن عمران: يا بن عمران لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدن عينيك إلى ذلك،

---

(١) النساء، الآية: ٥٣.
(٢) البقرة، الآية: ١٠٩.
(٣) آل عمران، الآية: ١٢٠.

ولا تتبعه نفسك، فإن الحاسد ساخط لنعمي، صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي. ومن يك كذلك، فلست منه وليس مني ". وقال (ص): " لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله أخوانا ". وقال (ص): " دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، ولكن حالقة الشعر. والذي نفس محمد بيده! لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم! ". وقال (ص): " كاد الفقر أن يكون كفرا، وكاد الحسد أن يغلب القدر ". وقال (ص): " سيصيب أمتي داء الأمم. قالوا: وما داء الأمم؟ قال: الأشر، والبطر، والتكاثر، والتنافس في الدنيا، والتباعد والتحاسد، حتى يكون البغي ثم الهرج ". وقال (ص): " أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون ". وقال (ص): " إن لنعم الله أعداء. فقيل: ومن هم؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ". وورد في بعض الأحاديث القدسية: " إن الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي ". وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليهما السلام: " إن الرجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر (٤) وأن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب ". وقال أبو عبد الله (ع): " آفة الدين: الحسد والعجب والفخر ". وقال (ع): " إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط " (٥). وقال: " الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء. فكن محسودا ولا تكن حاسدا فإن ميزان الحاسد أبدا خفيف بثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم،

---

(٤) في بعض نسخ (الكافي): " ليتأذى " وفي نسخ (جامع السعادات): " ليأتي بأي ". ورجحنا نسخة (الوسائل) و (البحار) كما في المتن.
(٥) صححنا أحاديث هذا الفصل على (البحار): ٣ مج ١٥ / ١٣١ - ١٣٢، باب الحسد، وعلى (الكافي): باب الحسد. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٢٥٠ - ٢٥١. وعلى (إحياء العلوم): ٣ / ١٦٢ - ١٦٤. وعلى (الوسائل): أبواب جهاد النفس، الباب ٥٤.

فماذا ينفع الحسد الحاسد، وماذا يضر المحسود الحسد. والحسد أصله من عمى القلب والجحود بفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكا لا ينجو منه أبدا، ولا توبة للحاسد، لأنه مصر عليه معتقد به مطبوع فيه، يبدوا بلا معارض به ولا سبب، والطبع لا يتغير عن الأصل، وإن عولج " (٦). وقال بعض الحكماء: " الحسد جرح لا يبرأ ". وقال بعض العقلاء: " ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه ". وقال بعض الأكابر: " الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا، ولا من الملائكة إلا لعنة وبغضا، ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا ". والأخبار والآثار في ذم الحسد أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه يكفي لطالب الحق. ثم ينبغي أن يعلم أنه إذا أصاب النعمة كافر أو فاجر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وإيذاء الخلق وإفساد ذات البين، فلا مانع من كراهتها عليه وحب زوالها منه، من حيث إنها آلة للفساد لا من حيث إنها نعمة.

فصل

المنافسة والغبطة

قد علمت أن المنافسة هي تمني مثل ما للمغبوط، من غير أن يريد زواله عنه، وليست مذمومة، بل هي في الواجب واجبه، وفي المندوب مندوبة، وفي المباح مباحه. قال الله سبحانه:
" وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " (٧).
وعليها يحمل قول النبي (ص): " لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على ملكه في الحق. ورجل آتاه الله علما، فهو يعمل به ويعلمه الناس ": أي لا غبطة إلا في ذلك، سميت الغبطة حسدا كما يسمى الحسد منافسة، اتساعا لمقارنتهما. وسبب الغبطة حب النعمة التي للمغبوط، فإن كانت أمرا دينيا فسببها حب الله وحب طاعته، وإن كانت دنيوية فسببها

---

(٦) هذ الخبر في (مصباح الشريعة): الباب ٥١، وصححناه عليه.
(٧) المطففين، الآية: ٢٦.

حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. والأول لا كراهة فيه بوجه، بل هو مندوب إليه. والثاني وإن لم يكن حراما، إلا أنه ينقص درجته في الدين، ويحجب عن المقامات الرفيعة، لمنافاته الزهد والتوكل والرضا.

ثم الغبطة لو كانت مقصورة على مجرد حب الوصول إلى مثل ما للمغبوط، لكونه من مقاصد الدين والدنيا، من دون حب مساواته له وكراهة نقصانه عنه، فلا حرج فيه بوجه، وإن كان معه حب المساواة وكراهة التخلف والنقصان، فهنا موضع خطر. إذ زوال النقصان إما بوصوله إلى نعمة المغبوط أو بزوالها عنه، فإذا انسدت إحدى الطريقتين تكاد النفس لا تنفك عن شهوة الطريقة الأخرى. إذ يبعد أن يكون إنسان مريدا لمساواة غيره في النعمة فيعجز عنها، ثم لا ينفك عن ميل إلى زوالها، بل الأغلب ميله إليه، حتى إذا زالت النعمة عنه كان ذلك عنده أشهى من بقائها عليه، إذ بزوالها يزول نقصانه وتخلفه عنه. فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه، كان حاسدا حسدا مذموما. وإن منعه مانع العقل من ذلك السعي، ولكنه وجد من طبعه الفرح والارتياح بزوال النعمة عن المغبوط، من غير كراهة لذلك ومجاهدة لدفعه، فهو أيضا من مذموم الحسد، وإن لم يكن في المرتبة الأولى. وإن كره ما يجد في طبعه من السرور والانبساط بزوال النعمة بقوة عقله ودينه، وكان في مقام المجاهدة لدفع ذلك عن نفسه، فمقتضى الرحمة الواسعة أن يعفى عنه، لأن دفع ذلك ليس في وسعه وقدرته إلا بمشاق الرياضات. إذ ما من إنسان إلا ويرى من هو فوقه من معارفه وأقاربه في بعض النعم الإلهية، فإذا لم يصل إلى مقام التسليم والرضا، كان طالبا لمساواته له فيه، وكارها عن ظهور نقصانه عنه. فإذا لم يقدر أن يصل إليه، مال طبعه بلا اختيار إلى زوال النعمة عنه، واهتز وارتاح به حتى ينزل هو إلى مساواته.

وهذا وإن كان نقصا تنحط به النفس عن درجات المقربين، سواء كان من مقاصد الدنيا أو الدين، إلا أنه لكراهته له بقوة عقله وتقواه، وعدم العمل بمقتضاه، يعفى عنه إن شاء الله، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له.

وقد ظهر من تضاعيف ما ذكر: أن الحسد المذموم له مراتب أربع:

الأولى – أن يحب زوال النعمة عن المحسود وإن لم تنتقل إليه، وهذا أخبث المراتب وأشدها ذما.
الثانية – أن يحب زوالها لرغبته في عينها، كرغبته في دار حسنة معينة، أو امرأة جميلة بعينها، ويحب زوالها من حيث توقف وصوله إليها عليه، لا من حيث تنعم غيره بها. ويدل على تحريم هذه المرتبة وذمها قوله تعالى:
" ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض " (٨).
الثالثة – ألا يشتهي عينها، بل يشتهي لنفسه مثلها، إلا أنه إن عجز عن مثلها أحب زوالها عنه، كيلا يظهر التفاوت بينهما، ومع ذلك لو خلي وطبعه، اجتهد وسعى في زوالها.
الرابعة – كالثالثة، إلا أنه إن اقتدر على إزالتها منعه قاهر العقل أو غيره من السعي فيه، ولكنه يهتز ويرتاح به من غير كراهة من نفسه لذلك الارتياح.
والغبطة لها مرتبتان:
الأولى – أن يشتهي الوصول إلى مثل ما للمغبوط، من غير ميل إلى المساواة وكراهة للنقصان، فلا يحب زوالها عنه.
الثانية – أن يشتهي الوصول إليه مع ميله إلى المساواة وكراهته للنقصان، بحيث لو عجز عن نيله، وجد من طبعه حبا خفيا لزوالها عنه، وارتاح من ذلك إدراكا للمساواة ودفعا للنقصان، إلا أنه كان كارها من هذا الحب، ومغضبا على نفسه لذلك الارتياح، وربما سميت هذه المرتبة ب (الحسد المعفو عنه) وكأنه المقصود من قوله (ص): " ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد، والظن، والطيرة... ثم قال: وله منهن مخرج، إذا حسدت فلا تبغ – أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به، وكن كارها له – وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض ".

---

(٨) النساء، الآية: ٣١.

فصل

بواعث الحسد

بواعث الحسد سبعة:

الأول - خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. فإنك تجد في زوايا العالم من يسر ويرتاح بابتلاء العباد بالبلايا والمحن، ويحزن من حسن حالهم وسعة عيشهم فمثله إذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم، يجد من طبعه الخبيث فرحا وانبساطا، وإن لم يكن بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، ولم يوجب ذلك تفاوتا في حاله من وصوله إلى جاه أو مال أو غير ذلك. وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله وانتظام أموره، شق ذلك عليه، وإن لم يوجب ذلك نقصا في شئ مما له. فهو يبخل بنعمة الله على عباده من دون قصد وغرض. ولا تصور انتقال النعمة إليه، فيكون ناشئا عن خبث نفسه ورذالة طبعه. ولذا يعسر علاجه، لكونه مقتضى خباثة الجبلة، وما يقتضيه الطبع والجبلة تعسر إزالته، بخلاف ما يحدث من الأسباب العارضة.

الثاني - العداوة والبغضاء. وهي أشد أسبابه، إذ كل أحد - إلا أو حدى من المجاهدين - إذا أصابت عدوه بلية فرح بذلك، إما لظنها مكافأة من الله لأجله، أو لحبه طبعا ضعفه وهلاكه. ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، لأنه ضد مراده، وربما تصور لأجله أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم من عدوه وأنعم عليه، فيحزن لذلك.

الثالث - حب الرئاسة وطلب المال والجاه. فإن من غلب عليه حب التفرد والثناء، واستقره الفرح بما يمدح به من أنه وحيد الدهر وفريد العصر في فنه، من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو غير ذلك، لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك، وارتاح بموته أو زوال النعمة التي يشاركه فيها، ليكون فائقا على الكل في فنه، ومتفردا بالمدح والثناء في صفته.

الرابع - الخوف من المقاصد. وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل واحد، منهما يحسد صاحبه في وصوله هذا المقصود،

طلبا للتفرد به كتحاسد الضرات في مقاصد الزوجية، والأخوة في نيل المنزلة في قلب الأبوين توصلا إلى مالهما، والتلامذة لأستاذ واحد في نيل المنزلة في قلبه، وندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة والكرامة عنده، والوعاظ والفقهاء المتزاحمين على أهل بلدة واحدة في نيل القبول والمال عندهم، إذا كان غرضهم ذلك.

الخامس - التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه بعض أقرانه، ويعلم أنه لو أصاب بعض النعم يستكبر عليه ويستصغره، وهو لا يطيق ذلك لعزة نفسه، فيحسده لو أصاب تلك النعمة تعززا لنفسه. فليس غرضه أن يتكبر، لأنه قد رضي بمساواته، بل غرضه أن يدفع كبره.

السادس - التكبر: وهو أن يكون في طبعه الترفع على بعض الناس، ويتوقع منه الانقياد والمتابعة في مقاصده، فإذا نال بعض النعم خاف ألا يحتمل تكبره ويترفع عن خدمته، وربما أراد مساواته أو التفوق عليه، فيعود مخدوما بعد أن كان خادما، فيحسده في وصول النعمة لأجل ذلك. وقد كان حسد أكثر الكفار لرسول الله (ص) من هذا القبيل، حيث قالوا: كيف يتقدم علينا غلام فقير يتيم؟

" لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (٩).

السابع - التعجب: وهو أن يكون المحسود في نظر الحاسد حقيرا، والنعمة عظيمة، فيعجب من فوز مثله بمثلها، فيحسده ويحب زوالها عنه، ومن هذا القبيل حسد الأمم لأنبيائهم، حيث قالوا:

" ما أنتم إلا بشر مثلنا " (١٠). " فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا؟ " (١١).

" ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون " (١٢).

فتعجبوا من فوز من هو مثلهم برتبة الوحي والرسالة، وحسدوه

---

(٩) الزخرف، الآية: ٣١.

(١٠) يس، الآية: ١٥.

(١١) المؤمنون، الآية: ٤٨.

(١٢) المؤمنون، الآية: ٣٤.

بمجرد ذلك، من دون قصد تكبر أو رئاسة أو عداوة أو غيرها من أسباب الحسد.

وقد تجتمع هذه الأسباب أو أكثرها في شخص واحد، فيعظم لذلك حسده، وتقوى قوة لا يقدر معها على المجاملة، فتظهر العداوة بالمكاشفة. وربما قوي الحسد بحيث يتمنى صاحبه أن يزول عن كل أحد ما يراه له من النعمة، وينتقل إليه. ومثله لا ينفك عن الجهل والحرص، إذ هو يتمنى استجماع جميع النعم والخيرات الحاصلة لجميع الناس له، ولا ريب في استحالة ذلك، ولو قدر إمكانه لا يمكنه الاستمتاع بها، فلو لم يكن حريصا لم يتمن ذلك أصلا، ولو كان عالما لدفع هذا التمني بقوته العاقلة.

(تنبيه) بعض الأسباب المذكورة، كما يقتضي أن يتمنى زوال النعمة والسرور به كذلك يقتضي تمني حدوث البلية والارتياح منه. إلا أن المعدود من الحسد هو الأول والثاني معدود من العداوة. فالعداوة أعم منه، إذ هي تمني وقوع مطلق الضرر بالعدو، سواء كان زوال نعمة أو حدوث بلية. والحسد تمني زوال مجرد النعمة.

فصل

لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين

الأسباب المذكورة إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون لأجلها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف بعضهم بعضا في غرض من أغراضه، أبغضه وثبت فيه الحقد، فعند ذلك يريد استحقاره والتكبر عليه، ويكون في صدد مكافأته على المخالفة لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه، فيتحقق الحسد. ولذا ترى أنه لا تحاسد بين شخصين في بلدتين متباعدتين، لعدم رابطة بينهما، إلا إذا تجاوروا في محل واحد، وتواردا على مقاصد تظهر فيها مخالفة بينهما، فيحدث منهما التباغض، وتثور منه بقية أسباب الحسد. وترى كل صنف يحسد مثله دون غيره، لتواردهما على المقاصد، وتزاحمهما على صنعة واحدة. فالعالم يحسد العالم دون العابد، والتاجر يحسد التاجر دون غيره إلا بسبب آخر سوى الاجتماع على الحرفة، وهكذا يغم من اشتد حرصه على حب الجاه وأحب الصيت والاشتهار في جميع أطراف العالم وشقاق

التفرد بما هو فيه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يشاركه في الفن الذي يتفاخر به.

ثم منشأ جميع ذلك حب الدنيا، إذ منافعها لضيقها وانحصارها تصير محل التزاحم والتعارك، بحيث لا يمكن وصول منفعة منها، كمنصب أو مال، إلى أحد إلا بزوالها عن الآخر. وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فلا تنازع بين أهلها. ومثالها في الدنيا العلم، فإنه منزه عن المزاحمة، فمن يحب العلم بالله وصفاته وأفعاله ومعرفة النظام الجملي من البدو إلى النهاية، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا. إذ العلم لا يضيق عن كثرة العالمين، والمعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم، ويفرح كل واحد منهم بمعرفته ويلتذ به، ولا ينقص ما لديه بمعرفة غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الإنس وثمرة الإفادة والاستفادة. إذ معرفة الله بحر واسع لا ضيق فيه، وكل علم يزيد بالإنفاق وتشريك غيره من أبناء النوع، يصير منشأ لزيادة اللذة والبهجة، وقس على العلم التقرب والمنزلة عند الله وغيرهما من النعم الأخروية. فإن أجل ما عند الله من النعم وأعلى مراتب المنزلة والقرب عنده تعالى لذة لقائه، ولس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض أهل اللقاء على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا تحاسد بين علماء الآخرة، لأنهم يلتذون ويبتهجون بكثرة المشاركين في معرفة الله وحبه وأنسه، وإنما يقع التحاسد بين علماء الدنيا، وهم الذين يقصدون بعلمهم طلب المال والجاه. إذ المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها أيدي الآخرين. والجاه ملك القلوب، وإذا امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، أنصرف عن تعظيم الآخر، أو نقص عنه لا محالة، فيكون ذلك سببا للتحاسد. وأما إذا امتلأ قلبه من الابتهاج بمعرفة الله، لم يمنع ذلك من أن يمتلئ غيره به. فلو ملك إنسان جميع ما في الأرض، لم يبق بعده مال يملكه غيره لضيقه وانحصاره. وأما العلم فلا نهاية له، ومع ذلك لو ملك إنسان بعض العلوم، لم يمنع ذلك من تملك غيره له.

فظهر أن الحسد إنما هو في التوارد على مقصود مضيق عن الوفاء

بالكل، فلا حسد بين العارفين ولا بين أهل العليين، لعدم ضيق ومزاحمة في المعرفة ونعيم الجنة، ولذا قال الله سبحانه فيهم:
" ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين " (١٣).
بل الحسد من صفات المسجونين في سجن السجين.
فيا حبيبي، إن كنت مشفقا على نفسك، طالبا لعمارة رمسك، فاطلب نعمة لا مزاحمة فيها، ولذة لا مكدر لها. وما هي إلا لذة معرفة الله وحبه وأنسه، والانقطاع إلى جناب قدسه، وإن كنت لا تلتذ بذلك، ولا تشتاق إليه، وتنحصر لذاتك بالأمور الحسية والوهمية، فاعلم أن جوهر ذاتك معيوب، وعن عالم الأنوار محجوب، وعن قريب تحشر مع البهائم والشياطين وتكون مغلولا معهم في أسفل السافلين. ومثلك في عدم درك هذه اللذة يختص بإدراكها رجال أصحاء. فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها:
" رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " (١٤).
ولا يشتاق غيرهم إليها، إذ الشوق بعد الذوق، فمن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك كان مطرودا عن العليين، ممنوعا عن مجاورة المقربين، محبوسا مع المحرومين في أضيق دركات السجين:
" ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين " (١٥).

فصل

علاج الحسد

لما علم أن الحسد من الأمراض المهلكة للنفوس، فأعلم أن أمراض النفوس لا تداوي إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد أن تعرف أنه يضرك في الدين والدنيا، ولا يضر محسودك فيهما، بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت ذلك عن بصيرة وتحقيق، ولم تكن عدو نفسك لا صديق

----

(١٣) الحجر، الآية: ٤٧.
(١٤) النور، الآية: ٣٧.
(١٥) الزخرف، الآية: ٣٦.

عدوك، فارقت الحسد.
وأما أنه يضر بدينك ويؤدي بك إلى عذاب الأبد وعقاب السرمد، فلما علمت من الآيات والأخبار الواردة في ذمه وعقوبة صاحبه، ولما عرفت من كون الحاسد ساخطا لقضاء الله تعالى، وكارها لنعمه التي قسمها لعباده ومنكرا لعدله الذي أجراه في ملكه. ومثل هذا السخط والانكار، لا يجابه الضدية والعناد لخالق العباد، كاد أن يزيل أصل التوحيد والإيمان، فضلا عن الإضرار بهما. على أن الحسد يوجب الغش والعداوة بالمؤمن، وترك نصيحته وموالاته وتعظيمه ومراعاته ومفارقة أنبياء الله وأوليائه في حبهم الخير والنعمة له، ومشاركة الشيطان وأحزابه في فرحهم بوقوع المصائب والبلايا عليه، وزوال النعم عنه وهذه خبائث في النفس، تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.
وأما إنه يضرك في الدنيا، لأنك تتألم وتتعذب به، ولا تزال في تعب وغم وكد وهم، إذ نعم الله لا تنقطع عن عباده ولا عن أعدائك، فأنت تتعذب بكل نعمة تراها لهم، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى دائما مغموما محزونا، ضيق النفس منشعب القلب، باختيارك تجر إلى نفسك ما تريد لأعدائك ويريد أعداؤك لك. وما أعجب من العاقل أن يتعرض لسخط الله ومقته في الآجل، ودوام الضرر والألم في العاجل، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى وفائدة.
وأما إنه لا يضر المحسود في دينه ودنياه فظاهر، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك. إذ ما قدره الله من النعم على عباده لا بد أن يستمر إلى وقته، ولا ينفع التدبير والحيلة في دفعه، لا مانع لما أعطاه ولا راد لما قضاه: " لكل أجل كتاب ". " وكل شئ عنده بمقدار " (١٦).
ولو كانت النعم تزول بالحسد، لم تبق عليك وعلى كافة الخلق نعمة، لعدم خلوك وخلوهم عن الحسد، بل لم تبق نعمة الإيمان على المؤمنين، إذ الكفار يحسدونهم، كما قال الله سبحانه:
" ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون " (١٧).

---

(١٦) الرعد، الآية: ٤٠، ٩.
(١٧) آل عمران، الآية: ٦٩.

ولو تصورت زوال النعمة عن محسودك بحسدك، وعدم زوالها عنك بحسد حاسدك، لكنت أجهل الناس وأشدهم غباوة. نعم، ربما صار حسدك منشأ لانتشار فضل المحسود، كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة * طويت، أتاح لها لسان حسود

فإذا لم تزل نعمته بحسدك، لم يضره في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة.

وأما إنه ينفعه في الدين، فذلك ظاهر من حيث كونه مظلوما من جهتك (لا) سيما إذا أخرجك الحسد إلى ما لا ينبغي من القول والفعل. كالغيبة، والبهتان، وهتك ستره، وإفشاء سره، والقدح فيه، وذكر مساويه.

فتحتمل بهذه الهدايا التي تهديها إلى بعضا من أوزاره وعصيانه، وتنقل شطرا من حسناتك إلى ديوانه، فيلقاك يوم القيامة مفلسا محروما عن الرحمة كما كنت تلقاه في الدنيا محروما عن النعمة. فأضفت له نعمة إلى نعمة. ولنفسك نقمة إلى نقمة.

وأما إنه ينفعه في الدنيا، فهو إن أهم أغراض الناس مساءة الأعداء، وسوء حالهم، وكونهم متألمين معذبين. ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد. فقد فعلت بنفسك ما هو غاية مراد حسادك في الدنيا. وإذا تأملت هذا، عرفت أن كل حاسد عدو نفسه، وصديق عدوه. فمن تأمل في ذلك، وتذكر ما يأتي من فوائد النصيحة وحب الخير والنعمة للمسلمين، ولم يكن عدو نفسه، فارق الحسد البتة.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يواظب على آثار النصيحة التي هي ضده، بأن يصمم على أن يكلف نفسه بنقيض ما يقتضيه الحسد من قول وفعل، فإن بعثه الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على غيبته والقدح فيه، كلف لسانه المدح والثناء عليه، وإن بعثه على الغش والخرق بالنسبة إليه، كلف نفسه بحسن البشر واللين معه، وإن بعثه على كف الأنعام عنه، ألزم نفسه زيادته. ومهما فعل ذلك عن تكلف وكرره ودوام عليه، انقطعت عنه مادة الحسد على التدريج. على أن المحسود إذا عرف منه ذلك طاب قلبه وأحبه، وإذا ظهر حبه للحاسد زال حسده وأحبه

أيضا، فتتولد بينهما الموافقة، وترتفع عنهما مادة المحاسدة، وهذا هو المعالجة الكلية لمطلق مرض الحسد. والعلاج النافع لكل نوع منه، أن يقمع سببه، من خبث النفس وحب الرئاسة والكبر وعزة النفس وشدة الحرص وغير ذلك مما ذكر، وعلاج كل واحد من هذه الأسباب يأتي في محله.

تنبيه

القدر الواجب في نفي الحسد

إعلم أن مساواة حسن حال العدو وسوء حاله، وعدم وجدان التفرقة بينهما في النفس، ليست مما تدخل تحت الاختيار. فالتكليف به تكليف بالمحال. فالواجب في نفي الحسد وإزالته هو القدر الذي يمكن دفعه، وبيان ذلك - كما أشير إليه - أن الحسد.

(١) إما يبعث صاحبه على إظهاره بقول أو فعل، بحيث يعرف حسده من آثاره الاختيارية. ولا ريب في كونه مذموما محرما، وكون صاحبه عاصيا آثما، لا لمجرد آثاره الظاهرة التي هي الغيبة والبهتان مثلا، إذ هي أفعال صادرة عن الحسد، محلها الجوارح، وليست عين الحسد، إذ هو صفة للقلب لا صفة للفعل، ومحله القلب دون الجوارح، قال سبحانه: " ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا " (١٨). وقال: " ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء " (١٩). وقال: " إن تمسسكم حسنة تسؤهم " (٢٠).

فلو كان الإثم على مجرد أفعال الجوارح، لم يكن أصل الحسد الذي هو صفة القلب معصية، والأمر ليس كذلك، فيكون عاصيا لنفس الحسد الذي في قلبه أيضا، أعني ارتياحه بزوال النعمة مع عدم كراهة ذلك من نفسه. والإثم حقيقة على عدم كراهته وعدم مقته وقهره على نفسه لهذا الارتياح الذي يجده منها، لكونه اختياريا ممكن الزوال، لا على نفس الارتياح والاهتزاز، لما أشير إليه من أنه طبيعي غير ممكن الدفع لكل أحد.

---

(١٨) الحشر، الآية: ٩.

(١٩) النساء، الآية: ٨٨.

(٢٠) آل عمران، الآية: ١٢٠.

فهذا القسم من الحسد أشد أنواعه، لترتب معصيته على أصله، وأخرى على ما يصدر من آثاره المذمومة.

(٢) أو لا يبعثه على إظهاره بالآثار القولية والفعلية، بل يكف ظاهره عنها، إلا أنه بباطنه يحب زوال النعمة من دون كراهة في نفسه لهذه الحالة. ولا ريب في كونه مذموما محرما أيضا، لأنه كسابقه بعينه، ولا فرق إلا في أنه لا تصدر منه الآثار الفعلية والقولية الظاهرة، فهو ليس بمظلمة بحسب الاستحلال منها، بل معصية بينه وبين الله، لأن الاستحلال إنما هو من الأفعال الظاهرة الصادرة من الجوارح.

(٣) أو لا يبعثه على الآثار الذميمة الظاهرة، ومع ذلك يلزم قلبه كراهة ما يترشح منه طبعا من حب زوال النعمة، حتى أنه يمقت نفسه ويقهرها على هذه الحالة التي رسخت فيها. والظاهر عدم ترتب الإثم عليه، إذ تكون كراهته التي من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أدى الواجب عليه. وأصل الميل الطبيعي لا يدخل تحت الاختيار غالبا، إذ تغير الطبع بحيث يستوي عنده المحسن والمسئ، وعدم التفرقة بين ما يصل منهما إليه من النعمة والبلية، ليس شريعة لكل وارد. نعم من تنور قلبه بمعرفة ربه، وأشرقت نفسه بأضواء حبه وأنسه، وصار مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله، واستشعر بالارتباط الخاص الذي بين العلة والمعلول، والاتحاد الذي بين الخالق والمخلوق، وعلم أنه أقوى النسب والروابط، ثم تيقن بأن الموجودات بأسرها من رشحات وجوده، والكائنات برمتها صادرة عن فيضه وجوده، وإن الأعيان الممكنة متساوية في ارتضاع لبان الوجود من ثدي واحدة، والحقائق الكونية غير متفاوتة في شرب ماء الرحمة والجود من مشرع الوحدة الحقيقية – فقد ينتهي أمره إلى ألا تلتفت نفسه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهي عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله وأفعاله، ويراهم مسخرين له، فلا ينظر إلى شئ بعين السخط والمساءة، وإن ورد منه ما ورد من السوء والبلية، لأنه لا ينظر إليه من حيث هو حتى يظهر التفاوت بل من حيث انتسابه إليه سبحانه، والكل في الانتساب إليه سواء.

ثم من الناس من ذهب إلى أنه لا إثم على الحسد ما لم تظهر آثاره على الجوارح، وعلى هذا ينحصر الحسد المحرم في القسم الأول. واحتج على ما ذهب إليه بما ذكرناه من قوله (ص): " ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد... ".، وبقوله (ص): " ثلاث في المؤمن له منهن مخرج، ومخرجه من الحسد ألا يبغي " والصحيح أن تحمل أمثال هذه الأخبار على القسم الثالث. وهو ما يكون فيه ارتياح النفس بزوال النعمة طبعا، مع كراهة له من جهة العقل والدين، حتى تكون هذه الكراهة في مقابلة حب الطبع. إذ أخبار ذم الحسد تدل بظاهرها على أن كل حاسد آثم، والحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال الظاهرة. وعلى هذا المذهب، لا يكون إثم على صفة القلب، بل إنما يكون على مجرد الأفعال الظاهرة على الجوارح.

فقد اتضح بما ذكر، إن الأحوال المتصورة لكل أحد بالنسبة إلى أعدائه ثلاثة: الأولى: أن يحب مساءتهم، ويظهر الفرح بمساءتهم بلسانه وجوارحه أو يظهر ما يؤذيهم قولا أو فعلا، وهذا محظور محرم قطعا، وصاحبه عاص آثم جزما. الثانية: أن يحب مساءتهم طبعا، ولكن يكره حبه لذلك بعقله، ويمقت نفسه عليه، ولو كانت له حيلة في إزالة ذلك الميل لأزاله. وهذا معفو عنه وفاقا، وفاعله غير آثم إجماعا. الثالثة: وهي ما بين الأولبين: أن يحسد بالقلب من غير مقته لنفسه على حسده، ومن غير إنكار منه على قلبه، ولكن يحفظ جوارحه عن صدور آثار الحسد عنها، وهذا محل الخلاف. وقد عرفت ما هو الحق فيه.

وصل

النصيحة

قد عرفت أن ضد الحقد والحسد (النصيحة)، وهي إرادة بقاء نعمة الله للمسلمين، وكراهة وصول الشر إليهم. وقد تطلق في الأخبار على إرشادهم إلى ما فيه مصلحتهم وغبطتهم، وهو لازم للمعنى الأول. فينبغي أن نشير إلي فوائدها وما ورد في مدحها، تحريكا للطالبين على المواظبة عليها ليرتفع بها ضدها.

إعلم أن من أحب الخير والنعمة للمسلمين كان شريكا في الخير، بمعنى

إنه في الثواب كالمنعم وفاعل الخير، وقد ثبت من الأخبار، إن من لم يدرك درجة الأخيار بصالحات الأعمال، ولكنه أحبهم، يكون يوم القيامة محشورا معهم، كما ورد: " إن المرء يحشر مع من أحب ". وقال أعرابي لرسول الله: " الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. فقال (ص): المرء مع من أحب ". وقال رجل بحضرة النبي - بعد ما ذكرت الساعة -: " ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، لا إني أحب الله ورسوله. فقال (ص): أنت مع من أحببت " قال الراوي: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ، إذا أكثر ثقتهم كانت بحب الله وبحب رسوله. وروي: " أنه قيل له (ص): الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوام ولا يصوم - حتى عد أشياء - فقال: هو مع من أحب ". وبهذا المضمون وردت أخبار كثيرة.

والأخبار الواردة في مدح خصوص النصيحة وذم تركها، وفي ثواب ترك الحسد وعظم فوائده، أكثر من أن تحصى. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " قال رسول الله (ص): إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه ". وعن أبي جعفر عليه السلام قال: " قال رسول الله (ص): لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه ". وقال الباقر عليه السلام: " يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة ". وقال الصادق عليه السلام: " يجب المؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب ". وقال عليه السلام: " عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه ". وبمضمونها أخبار أخر، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: " قال رسول الله (ص): من سعى في حاجة لأخيه فلم ينصحه، فقد خان الله ورسوله ". وقال الصادق عليه السلام: " من مشى في حاجة أخيه، ثم لم يناصحه فيها، كان كمن خان الله ورسوله، وكان الله خصمه " (٢١). والأخبار الأخر بهذا المضمون أيضا كثيرة.

وروي: " أن رسول الله (ص) شهد لرجل من الأنصار بأنه من أهل الجنة "، وكان باعثه - بعد التفتيش - خلوه عن الغش والحسد على خير

---

(٢١) صححنا الأحاديث في النصيحة كلها على (الكافي): باب نصيحة المؤمن وباب من لم يناصح أخاه المؤمن.

أعطى أحدا من المسلمين. وروي: " أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه، رأى في ظل العرش رجلا، فغبطه بمكانه، وقال: إن هذا لكريم على ربه. فسأل ربه أن يخبر باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: أحدثك عن عمله: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة ".

وغاية النصحية، أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، قال رسول الله (ص): " المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه ". وقال (ص): " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ". وقال (ص): " إن أحدكم مرآة أخيه، فإذا رأى به شيئا فليمط عنه هذا ".

ومنها:

الإيذاء والإهانة والاحتقار

ولا ريب في كون ذلك في الغالب مترتبا على العداوة والحسد، وإن ترتب بعض أفرادها في بعض الأحيان على مجرد الطمع أو الحرص ليكون من رداءة القوة الشهوية، أو على مجرد الغضب وسوء الخلق والكبر، وإن لم يكن حقد وحسد. وعلى أي تقدير، لا شبهة في أن الإيذاء للمؤمن واحتقاره محرم في الشريعة، موجب للهلاك الأبدي. قال الله سبحانه: " والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا " (٢٢).

وقال رسول الله (ص): " من آذى مؤمنا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فهو ملعون في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ". وفي خبر آخر: " فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " (٢٣). وقال (ص): " المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ". وقال (ص): " لا يحل للمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه ". وقال (ص): " ألا أنبئكم بالمؤمن! من أئتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم. ألا أنبئكم بالمسلم! من سلم المسلمون من لسانه ويده. والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة ". وقال الصادق (ع)

---

(٢٢) الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢٣) صححنا الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ٧، الفصل ٤.

" قال الله عز وجل: ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن ". وقال (ع): " إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين المؤذون لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال، هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، وتصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم. ثم يؤمر بهم إلى جهنم ". وقال (ع): " قال رسول الله (ص): قال الله تبارك وتعالى: من أهان لي وليا فقد أرصد لمحاربتي ". وقال عليه السلام، " إن الله تبارك وتعالى يقول: من أهان لي وليا فقد أرصد لمحاربتي، وأنا أسرع شئ إلى نصرة أوليائي ". وقال عليه السلام: " قال رسول الله (ص): قال الله عز وجل: قد نابذني من أذل عبدي المؤمن ". وقال عليه السلام: " من حقر مؤمنا مسكينا أو غير مسكين، لم يزل الله عز وجل حاقرا له ما قتا، حتى يرجع عن محقرته إياه " (٢٤). وفي معناها أخبار كثيرة أخر.

ومن عرف النسبة التي بين العلة والمعلول، والربط الخاص الذي بين الخالق والمخلوق، يعلم أن إيذاء العباد وإهانتهم يرجع في الحقيقة إلى إيذاء الله وإهانته، وكفاه بذلك ذما. فيجب على كل عاقل أن يكون دائما متذكرا لذم إيذاء المسلمين واحتقارهم، ولمدح ضدهما، من رفع الأذية عنهم وإكرامهم - كما يأتي -، ويحافظ نفسه عن ارتكابهما، لئلا يفتضح في الدنيا ويعذب في الآخرة.

وصل

كف الأذى عن المسلمين

لا ريب في فضيلة أضداد ما ذكر وفوائدها، من كف الأذى عن المؤمنين والمسلمين وإكرامهم وتعظيمهم. والظواهر الواردة في مدح دفع الضرر وكف الأذى عن الناس كثيرة، كقول النبي (ص): " من رد عن قوم من المسلمين عادية ماء أو نار وجبت له الجنة " (٢٥). وقوله (ص): " أفضل المسلمين

---

(٢٤) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): " باب من آذى المسلمين واحتقرهم. وعلى (إحياء العلوم): ٢ / ١٧١، ١٧٢.

(٢٥) صححناه على (فروع الكافي): كتاب الجهاد، في ملحق باب فضل الشهادة. وعلى (أصوله): في باب الاهتمام بأمور المسلمين.

من سلم المسلمون من لسانه ويده ". وقوله (ص) في حديث طويل أمر فيه بالفضائل: "... فإن لم تقدر فدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك ". وقوله (ص): " رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين ". وقال (ص): " من زحزح من طريق المسلمين شيئا يؤذيهم، كتب الله له به حسنة أوجب له بها الجنة " (٢٦).
وكذا الأخبار التي وردت في مدح إكرام المؤمن وتعظيمه كثيرة. قال الصادق عليه السلام: " قال الله سبحانه: ليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن ". وقال رسول الله (ص): " من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها، وفرج عنه كربته، لم يزل في ظل الله الممدود، عليه الرحمة ما كان في ذلك ". وقال (ص): " ما في أمتي عبد ألطف أخاه في الله بشئ من لطف، إلا أخدمه الله من خدم الجنة ". وقال (ص): " أيما مسلم خدم قوما من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خداما في الجنة ". وقال الصادق عليه السلام: " من أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة، كتب الله عز وجل له عشرة حسنات ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة ". وقال عليه السلام: " من قال لأخيه: مرحبا، كتب الله له مرحبا إلى يوم القيامة ". وقال عليه السلام: " من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه، فإنما أكرم الله عز وجل ". وقال عليه السلام لإسحاق بن عمار: " أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا إعانة إلا خمش وجه إبليس وقرح قلبه (٢٧).
ثم ينبغي تخصيص بعض طبقات الناس بزيادة التعظيم والاكرام، كأهل العلم والورع، لما ورد من الحث الأكيد في الأخبار على إكرامهم والاحسان إليهم، وكذا ينبغي تخصيص ذي الشيبة المسلم بزيادة التوقير والتكريم، وقد ورد ذلك في الأخبار الكثيرة، قال رسول الله (ص): " من عرف فضل كبير لسنه فوقره، آمنه الله من فزع يوم القيامة ". وقال الصادق عليه السلام " إن من إجلال الله عز وجل إجلال الشيخ الكبير ". وقال عليه السلام: " ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ". والأخبار في هذا

---

(٢٦) صححنا هذه الأحاديث الأربعة الأخيرة على (إحياء العلوم): ٢ / ١٧١، ١٧٢.
(٢٧) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب إلطاف المؤمن وإكرامه وباب من آذى المسلمين واحتقرهم.

المضمون كثيرة.
وكذا ينبغي تخصيص كريم القوم بزيادة الاكرام، لقول النبي (ص): " إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه " (٢٨).
وكذا تخصيص الذرية العلوية بزيادة الاكرام والتعظيم. قال رسول الله (ص): " حقت شفاعتي لمن أعان ذريتي بيده ولسانه وماله ". وقال (ص): " أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه " (٢٩) وقال (ص): " أكرموا أولادي، وحسنوا آدابي ". وقال (ص): " أكرموا أولادي الصالحون لله والطالحون لي ". والأخبار في فضل السادات وثواب من يكرمهم ويعينهم أكثر من أن تحصى.
وإضرار المسلم قريب من معنى إيذائه، وربما كان الإضرار أخص منه فما يدل على ذمه يدل على ذمه، كقول النبي (ص): " خصلتان ليس فوقهما شئ من الشر: الشرك بالله تعالى، والضر بعباد الله ". وكذا ضده، أعني إيصال النفع إليه، قريب من معنى ضده وأخص منه. فما يدل على مدحه ولا ريب في أن إيصال النفع إلى المؤمنين من شرائف الصفات والأفعال. والأخبار الواردة في فضيلته كثيرة، قال رسول الله (ص): " الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيته سرورا ". وسئل (ص): " من أحب الناس إلى الله؟ قال: أنفع الناس للناس " (٣٠). وقال رسول الله (ص): " خصلتان من الخير ليس فوقهما شئ من البر: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله ".

تنبيه

ذم الظلم بالمعنى الأخص

إعلم أن الظلم قد يراد به ما هو ضد العدالة، وهو التعدي عن الوسط في أي شئ كان، وهو جامع للرذائل بأسرها - كما أشير إليه -. وهذا

---

(٢٨) صححنا هذه الأحاديث على (أصول الكافي): باب إجلال الكبير، وباب وجوب إجلال ذي الشيبة، وباب إكرام الكريم. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ٦٧.
(٢٩) تقدم هذان الحديثان في ص ١٣٩ من هذا الجزء.

هو الظلم بالمعنى الأعم، وقد يطلق عليه الجور أيضا، وقد يراد به ما يرادف الإضرار والإيذاء بالغير، وهو يتناول قتله وضربه وشتمه وقذفه وغيبته وأخذ ماله قهرا ونهبا وغصبا وسرقة وغير ذلك من الأقوال والأفعال المؤذية.

وهذا هو الظلم بالمعنى الأخص، وهو المراد إذا أطلق في الآيات والأخبار وفي عرف الناس. وباعثه إن كانت العداوة والحسد، يكون من رذائل قوة الغضب، وإن كان الحرص والطمع في المال، يكون من رذائل قوة الشهوة. وهو أعظم المعاصي وأشدها عذابا باتفاق جميع الطوائف. ويدل على ذمه - بعد ما ورد في ذم كل واحد من الأمور المندرجة تحته كما يأتي بعضها - ما تكرر في القرآن من اللعن على الظالمين، وكفاه ذما أنه تعالى قال في مقام ذم الشرك:

" أن الشرك لظلم عظيم " (٣١). وقال: " إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " (٣٢). وقال: " ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون " (٣٣). وقال " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " (٣٤).

وقال رسول الله (ص): " إن أهون الخلق على الله، من ولي أمر المسلمين فلم يعدل لهم ". وقال (ص): " جور ساعة في حكم، أشد وأعظم عند الله من معاصي تسعين سنة ". وقال (ص): " اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة ". وقال (ص): " من خاف القصاص، كف عن ظلم الناس ". وروي: " أنه تعالى أوحى إلى داود: قل للظالمين لا تذكروني. فإن حقا علي أن أذكر من ذكرني، وإن ذكري إياهم أن ألعنهم ". وقال علي بن الحسين عليهما السلام لابنه أبي جعفر عليه السلام حين حضرته الوفاة: " يا بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرا إلا الله ". وقال أبو جعفر

---

(٣٠) هذان الحديثان صححناهما على (أصول الكافي): باب الاهتمام بأمور المسلمين.

(٣١) لقمان، الآية: ١٣.

(٣٢) الشورى، الآية: ٤٢.

(٣٣) إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٣٤) الشعراء، الآية: ٢٢٧.

عليه السلام: " ما من أحد يظلم بمظلمة إلا أخذه الله تعالى بها في نفسه أو ماله ". وقال رجل له عليه السلام: " إني كنت من الولاة، فهل لي من توبة؟ فقال: لا! حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه ". وقال عليه السلام: " الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله تعالى، وظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يدعه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يدعه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره الله عز وجل فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره الله عز وجل فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد ". وقال الصادق (ع) في قوله تعالى: " إن ربك لبالمرصاد " (٣٥):
" قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة ". وقال عليه السلام:
" ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عونا إلا الله تعالى ". وقال: " من أكل مال أخيه ظلما، ولم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة ". وقال عليه السلام: " إن الله عز وجل أوحى إلى نبي من أنبيائه في مملكة جبار من الجبارين: أن ائت هذا الجبار، فقل له: إني لم استعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنما استعملته لتكف عني أصوات المظلومين، فإني لن أدع ظلامتهم وإن كانوا كفارا ". وقال عليه السلام: " أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم.. ثم قال: من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به.
أما إنه يحصد ابن آدم ما يزرع. وليس يحصد أحد من المر حلوا، ولا من الحلو مرا ". وقال عليه السلام: " من ظلم، سلط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه أو على عقب عقبه ". قال الراوي: " قلت: هو يظلم، فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟! قال: فإن الله تعالى يقول:
" وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا " (٣٦).
والظاهر أن مؤاخذة الأولاد بظلم آبائهم إنما هو في الأولاد الذين

---

(٣٥) الفجر، الآية: ١٤.
(٣٦) صححنا أحاديث الباب على (أصول الكافي): باب الظلم. والآية من الحديث الأخير: سورة النساء، الآية: ٨.

كانوا راضين بفعل آبائهم أو وصل إليهم أثر ظلمهم، أي انتقل إليهم منهم بعض أموال المظلومين. وقال بعض العلماء: الوجه في ذلك، إن الدنيا دار مكافأة وانتقام، وإن كان بعض ذلك مما يؤخر إلى الآخرة. وفائدة ذلك أما بالنسبة إلى الظالم فإنه يردعه عن الظلم إذا سمع، وأما بالنسبة إلى المظلوم فإنه يستبشر بنيل الانتقام في الدنيا مع نيله ثواب الظلم الواقع عليه في الآخرة فإنه ما ظفر أحد بخير مما ظفر به المظلوم، لأنه يأخذ من دين الظالم أكثر مما أخذ الظالم من ماله، كما تقدم. وهذا مما يصحح الانتقام من عقب الظالم أو عقب عقبه، فإنه وإن كان في صورة الظلم، لأنه انتقام من غير أهله، مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، إلا أنه نعمة من الله عليه في المعنى من جهة ثوابه في الدارين، فإن ثواب المظلوم في الآخرة أكثر مما جرى عليه من الظلم في الدنيا.

ثم إن معين الظالم، والراضي بفعله، والساعي له في قضاء حوائجه وحصول مقاصده، كالظلم بعينه في الإثم والعقوبة. قال الصادق عليه السلام: " العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم ". وقال (ع): " من عذر ظالما بظلمه، سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته ". وقال رسول الله (ص): " شر الناس المثلث؟ " قيل: وما المثلث؟ قال: " الذي يسعى بأخيه إلى السلطان، فيهلك نفسه، ويهلك أخاه، ويهلك السلطان ". وقال (ص) " من مشى مع ظالم فقد أجرم ". وقال (ص): " إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيسا أو مدهم بمدة قلم؟ فاحشروهم معهم ".

وصل

العدل بالمعنى الأخص

ضد الظلم بالمعنى الأخص هو العدل بالمعنى الأخص، وهو الكف عنه، ورفعه، والاستقامة، وإقامة كل أحد على حقه. والعدل بهذا المعنى هو المراد عند إطلاقه في الآيات والأخبار، وفضيلته أكثر من أن تحصى. قال الله سبحانه:

" إن الله يأمر بالعدل والاحسان... " (٣٧). وقال: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " (٣٨).
وقال رسول الله (ص): " عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها ". وقال الصادق عليه السلام: " من أصبح ولا يهم بظلم أحد، غفر له ما اجترم ". وقال عليه السلام: " من أصبح لا ينوي ظلم أحد غفر الله تعالى له ذنب ذلك اليوم، ما لم يسفك دما أو يأكل مال يتيم حراما ". وقال عليه السلام: " العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن. ما أوسع العدل إذا عدل فيه، وإن قل ". وقال عليه السلام:
" العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحا من المسك ".
وقال (ع): " اتقوا الله واعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون " (٣٩).
ومما يدل على فضيلة العدل بهذا المعنى ما ورد في ثواب رد المظالم.
قال رسول الله (ص): " درهم يرده العبد إلى الخصماء، خير له من عبادة ألف سنة، وخير له من عتق ألف رقبة، وخير له من ألف حجة وعمرة ".
وقال (ص): " من رد درهما إلى الخصماء، أعتق الله رقبته من النار، وأعطاه بكل دانق ثواب نبي، وبكل درهم ثواب مدينة في الجنة من درة حمراء ". وقال (ص): " من رد أدنى شئ إلى الخصماء، جعل الله بينه وبين النار سترا كما بين السماء والأرض، ويكون في عداد الشهداء ".
وقال (ص): " من أرضى الخصماء من نفسه، وجبت له الجنة بغير حساب ويكون في الجنة رفيق إسماعيل بن إبراهيم ". وقال (ص): " إن في الجنة مدائن من نور، وعلى المدائن أبواب من ذهب مكللة بالدر والياقوت، وفي جوف المدائن قباب من مسك وزعفران، من نظر إلى تلك المدائن يتمنى أن تكون له مدينة منها ". قالوا: يا نبي الله، من هذه المدائن؟ قال:
" للتائبين النادمين، المرضين الخصماء من أنفسهم. فإن العبد إذا رد درهما إلى الخصماء، أكرمه الله كرامة سبعين شهيدا. فإن درهما يرده العبد إلى

---

(٣٧) النحل، الآية: ٩٠.
(٣٨) النساء، الآية: ٥٧.
(٣٩) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب الظلم وباب الإنصاف والعدل.

الخصماء خير له من صيام النهار وقيام الليل، ومن رد درهما ناداه ملك من تحت العرش: استأنف العمل، فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ".
وقال (ص): " من مات غير تائب، زفرت جهنم في وجهه ثلاث زفرات، فأولاها لا تبقى دمعة إلا جرت من عينيه، والزفرة الثانية لا يبقى دم إلا خرج من منخريه، والزفرة الثالثة لا يبقى قيح إلا خرج من فمه. فرحم الله من تاب، ثم أرضى الخصماء، فمن فعل فأنا كفيله بالجنة ". وقال (ص): " لرد دانق من حرام يعدل عند الله سبعين ألف حجة مبرورة " (٤٠).
ومنها:
إخافة المؤمن
وإدخال الكرب في قلبه. وهما شعبتان من الإيذاء والإضرار، فيترتبان غالبا على العداوة والحسد، وقد يترتبان على مجرد الغضب أو سوء الخلق أو الطمع، وهما من رذائل الأفعال، والأخبار الواردة في ذمهما كثيرة، كقول النبي (ص): " من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله ". وقول الصادق عليه السلام: " من روع مؤمنا بسلطان ليصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار، ومن روع مؤمنا بسلطان ليصيبه منه مكروه فأصابه فهو مع فرعون وآل فرعون في النار ". وقوله عليه السلام: " من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله (ص) ومن أدخله على رسول الله (ص) فقد وصل ذلك إلى الله، وكذلك من أدخل عليه كربا " (٤١). والأخبار الواردة في هذا المعنى كثيرة.
وصل
إدخال السرور في قلب المؤمن
وضد ذلك إزالة الخوف عنه، وتفريج كربه، وإدخال السرور في قلبه. وهي من أعظم شعب النصيحة، ولأحد للثواب المترتب عليها، كما نطقت

----

(٤٠) صححنا الأحاديث النبوية هذه كلها على (جامع الأخبار): الباب ٧ الفصل ٧. ولم نعثر لها على أثر في الكتب المعتبرة.
(٤١) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب إدخال السرور على المؤمن، وباب من أخاف مؤمنا.

به الأخبار. قال رسول الله (ص): " من حمى مؤمنا من ظالم، بعث الله له ملكا يوم القيامة يحمي لحمه من نار جهنم ". وقال (ص): " من فرج عن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة ". وقال (ص): " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما "، فقيل: كيف ينصره ظالما؟ قال: " تمنعه من الظلم ". وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: " من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته، ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لإفزاع يوم القيامة وأهواله ". وقال عليه السلام: " من نفس عن مؤمن كربة، نفس الله عنه كرب الآخرة، وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد ". وقال الرضا عليه السلام: " من فرج عن مؤمن فرج الله قلبه يوم القيامة ". وقال رسول الله (ص): " من سر مؤمنا فقد سرني، ومن سرني فقد سر الله ". وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: " قال رسول الله (ص): إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمنين ". وقال الباقر عليه السلام: " تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشئ أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن ". وقال عليه السلام " إن فيما ناجى الله عز وجل به عبده موسى عليه السلام: قال: إن لي عبادا أبيحهم جنتي وأحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال: من أدخل على مؤمن سرورا... ثم قال: إن مؤمنا كان في مملكة جبار، فولع به، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فأظله وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت، أوحى الله إليه: وعزتي وجلالي! لو كان لك في جنتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركا، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار "، قلت (٤٢): من الجنة؟ قال: " من حيثما شاء الله ". وقال عليه السلام: " لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سرورا إنه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله (ص): ". عن أبان ابن تغلب، قال: " سألت أبا عبد الله عليه السلام عن حق المؤمن على المؤمن

---

(٤٢) القائل الراوي، والمجيب أبو جعفر - عليه السلام -.

فقال: حق المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك، لو حدثتكم لكفرتم، أن المؤمن إذا خرج من قبره خرج معه مثال من قبره يقول له: أبشر بالكرامة من الله والسرور، فيقول له: بشرك الله بخير. قال: ثم يمضي معه يبشره بمثل ما قال، وإذا مر بهول قال: ليس هذا لك، وإذا مر بخير قال: هذا لك. فلا يزال معه، يؤمنه مما يخاف ويبشره بما يحب، حتى يقف معه بين يدي الله عز وجل. فإذا أمر به إلى الجنة، قال له المثال: أبشر فإن الله عز وجل قد أمر بك إلى الجنة. قال: فيقول: من أنت رحمك الله؟ تبشرني من حين خرجت من قبري، وآنستني في طريقي، وخبرتني عن ربي! قال: فيقول: أنا السرور الذي كنت تدخله على إخوانك في الدنيا، خلقت منه لأبشرك وأونس وحشتك ". وروي ابن سنان، قال: " كان رجل عند أبي عبد الله عليه السلام، فقرأه هذه الآية:

" والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا " ٤٣

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما ثواب من أدخل عليه السرور؟

فقلت: جعلت فداك! عشر حسنات. قال: أي والله وألف ألف حسنة! " (٤٤).

ومنها:

ترك إعانة المسلمين

وعدم الاهتمام بأمورهم. فإن من يعادي غيره أو يحاسده يترك إعانته ولا يهتم بأموره، وربما كان ذلك من نتائج الكسالة بها، أو ضعف النفس أو البخل. وبالجملة: لا ريب في كونه من رذائل الصفات، ودليلا على ضعف الإيمان. وما ورد في ذمه من الأخبار كثير، قال الباقر عليه السلام: " من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجة، إلا ابتلى بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر ". وقال الصادق عليه السلام: " أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من إخوانه، فاستعان به في حاجة فلم يعنه، وهو يقدر،

---

(٤٣) الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٤٤) صححنا الأحاديث كلها هنا على (أصول الكافي): باب إدخال السرور على المؤمن، باب تفريج كرب المؤمن.

إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضي حوائج عدة من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة ". وقال عليه السلام: " أيما مؤمن منع مؤمنا شيئا مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، إقامة الله عز وجل يوم القيامة مسودا وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار ". وقال عليه السلام:
" من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله تعالى:
" ملائكتي، أبخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا؟ وعزتي وجلالي! لا يسكن جناتي أبدا ". وقال عليه السلام لنفر عنده: " ما لكم تستخفون بنا؟ "، فقام إليه إليه رجل من أهل خراسان، فقال: معاذ لوجه الله أن نستخف بك أو بشئ من أمرك! فقال: " إنك أحد من استخف بي "، فقال:
معاذ لوجه الله أن استخف بك! فقال له: " ويحك! ألم تسمع فلانا، ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملني قدر ميل، فقد والله اعييت.
والله ما رفعت به رأسا، لقد استخففت به. ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عز وجل " (٤٥). وقال عليه السلام: " من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له، سلط الله عليه شجاعا ينهش إبهامه في قبره إلى يوم القيامة مغفورا له أو معذبا ". وقال أبو الحسن عليه السلام: " من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيرا به في بعض أحواله، فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عز وجل ".
وقال رسول الله (ص): " من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم ".
وقال (ص): " من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم " (٤٦).

---

(٤٥) صححنا هذا الحديث بالخصوص على (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم الاستخفاف. وهو يرويه عن (الكافي).

(٤٦) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب من استعان أخوه به فلم يعنه، وباب قضاء حاجة المؤمن، وباب من منع مؤمنا شيئا من عنده، وباب الاهتمام بأمور المسلمين

وصل

قضاء حوائج المسلمين

ضد هذه الرذيلة: قضاء حوائج المسلمين والسعي في إنجاح مقاصدهم. وهو من أعظم أفراد النصيحة، ولا حد لمثوبته عند الله. قال رسول الله (ص): " من قضى لأخيه المؤمن حاجة، فكأنما عبد الله دهره " (٤٧) وقال (ص): " من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار، قضاها أو لم يقضها، كان خيرا له من اعتكاف شهرين ". وقال أبو جعفر عليه السلام: " أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إن من عبادي من يتقرب إلي بالحسنة فأحكمه في الجنة، فقال موسى: يا رب، وما تلك الحسنة؟ قال يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أم لم تقض ". وقال (ع): " من مشى في حاجة أخيه المسلم، أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدما إلا كتب الله له حسنة، وحط عنه بها سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر ". وقال (ع): " إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمه الجنة ". وقال الصادق (ع): " من قضى لأخيه المؤمن حاجة، قضى الله تعالى له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أولها الجنة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه وأخوانه الجنة، بعد أن لا يكونوا نصابا ". وقال (ع): " إن الله تعالى خلق خلقا من خلقه، إنتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا، ليثيبهم على ذلك الجنة. فإن استطعت أن تكون منهم فكن ". وقال (ع): " قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله ". وقال (ع): " لقضاء حاجة امرئ مؤمن أحب إلى الله تعالى من عشرين حجة، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف ". وقال (ع): " من طاف بالبيت طوافا واحدا كتب الله له ستة آلاف حسنة، ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة - وفي رواية: وقضى له ستة

---

(٤٧) صححناه على (الوسائل). كتاب الأمر بالمعروف، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن، رواه عن (مجالس الطوسي). ولم نعثر على مصدر للنبوي الثاني.

ج: ٢

آلاف حاجة - حتى إذا كان عند الملتزم، فتح له سبعة أبواب من الجنة "، قلت له: جعلت فداك! هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: " نعم! وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن المسلم أفضل من طواف وطواف وطواف... حتى بلغ عشرا ". وقال (ع): " تنافسوا في المعروف لأخوانكم، وكونوا من أهله، فإن للجنة بابا يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل الله عز وجل به ملكين، واحدا عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه، ويدعوان بقضاء حاجته "... ثم قال: " والله لرسول الله (ص) أسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة ". وقال (ع): " ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله تعالى: علي ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة ". وقال (ع): " أيما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسببها له، فإن قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها، وإن رده عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنما رد عن نفسه رحمة من الله عز وجل، ساقها إليه وسببها له، وذخر الله تلك الرحمة إلى يوم القيامة، حتى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها، إن شاء صرفها إلى نفسه، وإن شاء صرفها إلى غيره "... ثم قال (ع) للراوي: " فإذا كان يوم القيامة، وهو الحاكم في رحمة من الله تعالى قد شرعت له، فإلى من ترى يصرفها؟ "، قال: لا أظن يصرفها عن نفسه، قال: " لا تظن! ولكن استيقن، فإنه لن يردها عن نفسه ". وقال (ع): " من مشى في حاجة أخيه المؤمن يطلب بذلك ما عند الله حتى تقضى له، كتب الله عز وجل له بذلك مثل أجر حجة وعمرة مبرورتين، وصوم شهرين من أشهر الحرم واعتكافهما في المسجد الحرام، ومن مشى فيها بنية ولم تقض، كتب الله له بذلك مثل حجة مبرورة. فارغبوا في الخير ". وقال (ع): لئن أمشي في حاجة أخ لي مسلم، أحب إلي من أن أعتق ألف نسمة، وأحمل في سبيل الله على ألف فرس مسرجة ملجمة ". وقال (ع): " من سعى في حاجة أخيه المسلم، وطلب وجه الله، كتب الله عز وجل له ألف ألف حسنة، يغفر فيها لأقاربه

وجيرانه وأخوانه ومعارفه، ومن صنع إليه معروفا في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، قيل له: أدخل النار، فمن وجدته فيها صنع إليك معروفا في الدنيا فأخرجه بأذن الله عز وجل، إلا أن يكون ناصبيا ". وقال أبو الحسن (ع): " إن لله عبادا في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة. ومن أدخل على مؤمن سرورا، فرح الله قلبه يوم القيامة " (٤٨). والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، وما ذكرناه كاف لتحريك الطالبين على قضاء حوائج المؤمنين. ومما يدل على مدحه وشرافته، ما ورد في ثواب إطعام المؤمن وسقيه وكسوته، كما يأتي.

ومنها:

التهاون والمداهنة

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو ناش أما من ضعف النفس وصغرها، أو من الطمع المالي ممن يسامحه، فيكون من رذائل القوة الغضبية من جانب التفريط، أو من رذائل القوة الشهوية من جانب الإفراط. وهو من المهلكات التي يعم فسادها وضرها، ويسري إلى معظم الناس أثرها وشرها. كيف ولو طوى بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إضمحلت الديانة، وتعطلت النبوة، وعمت الضرة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وضاعت أحكام الدين، واندرست آثار شريعة رب العالمين، وهلك العباد، وخرجت البلاد. ولذا ترى وتسمع أن في كل عصر نهض بإقامة هذه السنة بعض المؤيدين، من غير أن تأخذهم في الله لومة لائمين، من أقوياء العلماء المتكفلين لعلمها وإلقائها، ومن سعداء الأمراء الساعين في إجرائها وإمضائها، رغب الناس إلى ضروب الطاعات والخيرات، وفتحت عليهم بركات الأرض والسماوات. وفي كل قرن لم يقم بإحيائها عالم عامل ولا سلطان عادل، إستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، واسترسل الناس في أتباع الشهوات والهوى، وانمحت أعلام الهداية والتقوى.

ولذا ترى في عصرنا - لما اندرس من هذا القطب الأعظم عمله وعلمه،

---

(٤٨) صححنا الأحاديث - ابتداء من الحديث عن أبي جعفر عليه السلام - على (أصول الكافي): باب قضاء حاجة المؤمن، وباب السعي في حاجة المؤمن.

وانمحت بالكلية حقيقته واسمه، وعز على بسيط الأرض دين يحرس الشريعة، واستولت على القلوب مداهنة الخليقة - أن الناس في بيداء الضلالة حيارى، وفي أيدي جنود الأبالسة أسارى، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه.

ولأجل ذلك ورد الذم الشديد في الآيات والأخبار على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمداهنة فيهما، قال الله سبحانه:

" لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الآثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون " (٤٩).

وقال رسول الله (ص): " ما من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل، إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ".

وقال (ص): " إن الله تعالى ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له "، فقيل له وما المؤمن الذي لا دين له؟ قال: " الذي لا ينهى عن المنكر ". وقيل له صلى الله عليه وآله: " أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: نعم! قيل: بم يا رسول الله؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله ". وقال صلى الله عليه وآله: " لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم " (٥٠). وقال (ص): إن الله تعال ليسأل العبد: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكر؟ ". وقال (ص): " إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة، حتى يظهر المنكر بين أظهرهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ".

وقال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه: " إنما هلك من كان قبلكم، حيث عملوا بالمعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وإنهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر... ". وقال (ع):

---

(٤٩) المائدة، الآية: ٦٦.

(٥٠) روي في (فروع الكافي) - باب الأمر بالمعروف - هذا الحديث عن أبي الحسن الرضا - عليه السلام -. وصححنا الحديث الذي قبل الأخير على (فروع الكافي) في الموضع المذكور أيضا.

" من ترك إنكار المنكر بقلبه ويده ولسانه، فهو ميت بين الإحياء ". وقال عليه السلام: " أمرنا رسول الله (ص) أن نلقي أهل المعاصي بوجوه مكفهرة ".. وقال (ع): " إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم بألسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفا ولم ينكر منكرا قلب، فجعل أعلاه أسفله ". وقال الباقر (ع): " أوحى الله عز وجل إلى شعيب النبي (ع): إني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفا من شرارهم، وستين ألفا من خيارهم. فقال (ع): يا رب، هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي ". وقال الصادق (ع): " ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قويها بحقه غير متعتع ". وقال (ع): " ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ". وقال (ع): " إن الله تعالى بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلبها على أهلها، فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلا يدعو الله ويتضرع إليه، فقال أحد الملكين لصاحبه: أما ترى هذا الداعي؟ فقال: قد رأيته، ولكن أمضى ما أمر به ربي. فقال: لا، ولكن لا أحدث شيئا حتى أراجع ربي. فعاد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: يا رب إني انتهيت إلى المدينة، فوجدت عبدك فلانا يدعوك ويتضرع إليك. فقال: امض ما أمرتك به، فإن ذا رجل لم يتمعر وجهه غيظا لي قط ". وقال (ع) لقوم من أصحابه: حق لي أن آخذ البرئ منكم بالسقيم، وكيف لا يحق لي ذلك وأنتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه، ولا تهجرونه ولا تؤذونه حتى يتركه ". وقال (ع): " لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم... إلى أن قال: ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون وما يدخل علينا به الأذى، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه، وتقولوا له قولا بليغا! "، قيل له: إذن لا يقبلون منا، قال: " أهجروهم واجتنبوا مجالستهم ".

وفي بعض الأخبار النبوية: " إن أمتي إذا تهاونوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بحرب من الله ". وقد وردت أخبار بالمنع عن حضور مجالس المنكر إذا لم يمكنه دفعه والنهي عنه، ولو حضر نزلت عليه

اللعنة. وعلى هذا لا يجوز دخول بيت الظلمة والفسقة، ولا حضور المشاهد التي يشاهد فيها المنكر ولا يقدر على تغييره، إذ لا يجوز مشاهدة المنكر من غير حاجة، اعتذارا بأنه عاجز. ولهذا أختار جماعة من السلف العزلة، حذرا من مشاهدة المنكر في الأسواق والمجامع والأعياد، مع عجزهم عن التغيير.

ثم إذا كان الأمر في المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المثابة، فيعلم أن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف كيف حاله. قال رسول الله (ص): " كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ "، فقيل له (ص): ويكون ذلك يا رسول الله؟! قال: " نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟! "، فقيل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟! قال: " نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟! "، وفي رواية: " وعند ذلك يبتلى الناس بفتنة، يصير الحليم فيها حيران " (٥١).

ومن تأمل في الأخبار والآثار، وأطلع على التواريخ والسير وقصص الأمم السالفة والقرون الماضية، وما حدثت لهم من العقوبات، وضم ذلك إلى التجربة والمشاهدة في عصره، من ابتلاء الناس ببعض البلايا السماوية والأرضية، يعلم أن كل عقوبة سماوية وأرضية، من الطاعون والوباء، والقحط والغلاء، وحبس المياه والأمطار، وتسلط الظالمين والأشرار، ووقوع القتل والغارات، وحدوث الصواعق والزلازل، وأمثال ذلك، تكون مسبوقة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس.

وصل

السعي في الأمر بالمعروف

ضد المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو السعي فيهما والتشمير لهما. وهو أعظم مراسم الدين، والمهم الذي بعث الله لأجله

---

(٥١) صححنا الأحاديث هنا على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، وعلى (المستدرك): ٢ / ٣٦٠ - ٣٦١ كتاب الأمر بالمعروف.

النبيين، ونصب من بعدهم الخلفاء والأوصياء، وجعل نوابهم أولي النفوس القدسية من العلماء. بل هو القطب الذي تدور عليه أرحية الملل والأديان، وتطرق الاختلال فيه يؤدي إلى سقوطها عن الدوران. ولهذا ورد في مدحه والترغيب عليه مما لا يمكن إحصاؤه من الآيات والأخبار، قال الله سبحانه: " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ". وقال: " كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " (١). وقال: " فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون " (٢). وقال: " لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ". وقال: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط " (٣). والقيام بالقسط هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال رسول الله (ص): " ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي ". وقال (ص): " إياكم والجلوس على الطرقات! "، قالوا: ما لنا بد منها، إنما هي مجالسنا تتحدث فيها. قال: " فإذا أبيتم إلا ذلك، فأعطوا الطريق حقه "، قالوا: وماحق الطريق؟ قال: " غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ". وقال (ص): " ما بعث الله نبيا إلا وله حواري، فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله، يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره وسنة نبيهم، فإذا انقرضوا، كان من بعدهم قوم يركبون رؤس المنابر، يقولون ما يعرفون يعلمون ما ينكرون. فإذا رأيتم ذلك، فحق على كل مؤمن جهادهم بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع

---

(١) آل عمران، الآية: ١٠٤، ١١٠.
(٢) الأعراف، الآية: ١٦٤.
(٣) النساء، الآية: ١١٣، ١٣٥.

فبقلبه. وليس وراء ذلك إسلام " (٤). وقال أمير المؤمنين (ع): " إن من رأى عدوانا يعمل به ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرئ ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونور في قلبه اليقين " (٥). وقال عليه السلام:
" فمنهم المنكر للمنكر بقلبه ولسانه ويده، فذلك المستكمل لخصال الخير. ومنهم المنكر بلسانه وقلبه، التارك بيده، فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلة. ومنهم المنكر بقلبه، والتارك بيده ولسانه، فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة. ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده، فذلك ميت الأحياء. وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كلمة عدل عند إمام جائر ". وفي خبر جابر عن الباقر (ع): " إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر. فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم. فإن اتعظوا وإلى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم:
" إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم " (٦).
هنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وأبغضوهم بقلوبكم، غير طالبين سلطانا ولا باغين مالا، ولا مريدين لظلم ظفرا، حتى يفيئوا إلى أمر الله ويمضوا

---

(٤) صححنا هذه النبويات الثلاثة على (إحياء العلوم): ٢ / ٢٧١، ٢٧٢.
(٥) صححنا الحديث على (المستدرك): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣ وكذا الحديث بعده، صححناه على (الوسائل) في الموضع المذكور.
(٦) الشورى، الآية: ٤٢.

على طاعته " (٧).

فصل

وجوب الأمر بالمعروف وشروطه

مقتضى الآيات والأخبار المذكورة، وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا خلاف فيه أيضا، إنما الخلاف في كون وجوبهما كفائيا أو عينيا. والحق الأول، كما يأتي.

ثم الواجب إنما هو الأمر بالواجب والنهي عن الحرام، وأما الأمر بالمندوب والنهي عن المكروه فمندوب، وإنما يجب بشروط أربعة:

الأول - العلم بكونهما معروفا ومنكرا، ليأمن من الغلط، فلا يجبان في المتشابه، فمن علم بالقطع الوجوب أو الحرمة، وعدم جواز الاختلاف فيه من ضرورة الدين أو المذهب أو الإجماع القطعي النظري أو الكتاب والسنة أو من قول العلماء، فله أن يأمر وينهى ويحتسب به على كل أحد، ومن لم يعلمها بالقطع، بل علمها بالظن الحاصل من الاجتهاد أو التقليد، وجوز الاختلاف فيه، فليس له الأمر والنهي والحسبة، إلا على من كان على هذا الاعتقاد من مجتهد أو مقلد، أو لزم عليه أن يكون هذا الاعتقاد وإن لم يكن عليه بالفعل للجهل، كالمقلد المطلق المجتهد إذا لم يعلم بعض العقائد الاجتهادية لمجتهده، فيتأتى لغيره أن يحتسب به عليه. وحاصل ما ذكر: إن القطعيات الوفاقية تتأتى لكل أحد أن يحتسب بها على كل أحد بعد علمها، وغير القطعيات الجائز فيها الاختلاف والمرجح أحد طرفيها الاجتهاد لا يتأتى لمجتهدها

ومقلده فيها الاحتساب، أي الأمر والنهي، الأعلى من كان موفقا في الاعتقاد أو يلزم أن يكون موفقا.

الثاني - تجويز التأثير. فلو علم أو غلب على ظنه أنه لا يؤثر فيه، لم يجب، لعدم الفائدة.

الثالث - القدرة والتمكن منه، وعدم تضمنه مفسدة. فلو ظن توجه الضرر إليه أو إلى أحد من المسلمين بسببه سقط، إذ لا ضرر ولا ضرار في الدين.

---

(٧) صححنا الحديث على (فروع الكافي): كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف.

الرابع - أن يكون المأمور أو المنهي مصرا على الاستمرار. فلو ظهر منها أمارة الاقلاع سقط، للزوم العبث.
ثم هذه الشروط يختلف اشتراطها بسبب اختلاف درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يأتي. ويدل على اشتراط الثلاثة الأول ما روي:
" إنه سئل مولانا الصادق عليه السلام: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب على الأمة جميعا؟ فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: إنما هو على القوي المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلا إلى أي من أي يقول من الحق إلى الباطل. والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل، قوله:
" ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " (٨).
فهذا خاص غير عام، كما قال الله عز وجل.
" ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " (٩).
ولم يقل على أمة موسى، ولا على كل قوم، وهم يومئذ أمم مختلفة. والأمة واحد فصاعدا، كما قال الله عز وجل: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) يقول مطيعا لله عز وجل. وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج، إذا كان لا قوة له ولا عذر ولا طاقة ". قال مسعدة: " سمعت أبا عبد الله عليه السلام - وسئل عن الحديث الذي جاء عن النبي (ص): " إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر " ما معناه - قال: هذا على أن يأمره بعد معرفته، وهو مع ذلك يقبل منه، وإلا فلا ". وفي خبر آخر: " إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلم. فأما صاحب سوط أو سيف فلا ". وفي خبر آخر: " من تعرض لسلطان جائر وإصابته بلية، لم يؤجر عليها ولم يرزق الصبر عليها " (١٠). ومن

----

(٨) آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٩) الأعراف، الآية: ١٥٨.
(١٠) صححنا الأحاديث على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف. وباب إنكار المنكر بالقلب. أسقط المؤلف من الحديث الأول قسما فأكملناه.

الشرائط أن يظهر المنكر على المحتسب من غير تجسس، فلا يجب، بل لا يجوز التجسس، كفتح الباب المغلق، ووضع الأذن والأنف لاحتباس الصوت والريح، وطلب إراءة ما تحت الثوب، وأمثال ذلك، لنص الكتاب والسنة.

فصل

عدم اشتراط العدالة فيه

لا تشترط فيه العدالة وائتمار الأمر بما يأمر به وانتهاء الناهي عما ينهى عنه، لإطلاق الأدلة، ولأن الواجب على فاعل الحرام المشاهد فعله من غيره أمران: تركه وإنكاره، ولا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر، كيف ولو شرط ذلك لاقتضى عدم وجوب ذلك إلا على المعصوم، فينسد باب الحسبة بالكلية.

وأما الإنكار في قوله تعالى:

" أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " (١١) وقوله تعالى: " لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (١٢).

وما في حديث الأسرى من قرض مقاريضهم بالنار، فإنما هو على عدم العمل بما يأمر به ويقوله، لا على الأمر والقول. وكذلك ما روي: " إن الله تعالى أوحى إلى عيسى: عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني " (١٣). وقس على ذلك جميع ما ورد من هذا القبيل.

وما قيل إن هداية الغير فرع الاهتداء، وتقويم الغير فرع الاستقامة

ففيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يكون بالوعظ وتارة بالقهر، ومن لم يكن مهتديا مستقيما، تسقط عنه الحسبة بالوعظ، لعلم الناس بفسقه، فلا يتضمن وعظه وكلامه فائدة، ولا يؤثر في العالم بفسقه، ولا يخرج ذلك وعظه وقوله عن الجواز، كما لا تخرج حسبته القهرية عن

---

(١١) البقرة، الآية: ٤٤.

(١٢) الصف، الآية: ٢ - ٣.

(١٣) صححنا الأحاديث كلها على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف. وعلى (المستدرك): ٢ / ٣٦٠، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التأثير والفائدة أيضا. إذ الفاسق إذ منع غيره قهرا عن الزنا واللواط وشرب الخمر، وأراق الخمور، وكسر آلات الملاهي، حصل التأثير والفائدة بلا شبهة. والحاصل: إن أحد نوعي الاحتساب - أعني الوعظي - يتوقف تأثيره على العدالة، وأما نوعه الآخر - أعني القهري - فلا يتوقف عليه مطلقا.

فإن قيل: إذا أتى رجل امرأة إكراها، وهي مستورة الوجه، فكشفت وجهها باختيارها، فما أشنع وأقبح أن ينهاها الرجل في أثناء الزنا عن كشف وجهها، ويقول لها: أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير المحرم وما أنا بمحرم لك، فاستري وجهك.

قلنا: القبح والاستنكار إنما هو لأجل أنه ترك الأهم واشتغل بما هو الأهون، كما إذا ترك المشتبه وأكل الحرام، أو ترك الغيبة وشهد بالزور، لا لأن هذا النهي هو حرام في نفسه، أو خرج عن الوجوب إلى الإباحة أو الكراهة. ولأن نهيه هذا خرج بفسقه عن التأثير والفائدة، فالاستنكار عليه وتقبيح نهيه عن هذا من حيث إنه نزل نفسه مقام من يؤثر قوله، مع أنه لا يؤثر، كما تقدم آنفا.

ثم ما ذكرناه من عدم اشتراط العدالة في العمل بما يأمر به وينهى عنه إنما هو في آحاد الحسبة الصادرة من أفراد الرعية المطلعين على المنكر، وأما من نصب نفسه لإصلاح الناس ونصحهم، وبيان الأحكام الإلهية نيابة عن رسول الله (ص) والأئمة المعصومين عليهم السلام، فلا بد فيه من العدالة والتقوى والعلم بالكتاب والسنة، وغير ذلك من شرائط الاجتهاد. وعلى هذا يحصل جواب آخر عن الآيات والأخبار الواردة في الإنكار على الواعظ غير المتعظ بتخصيصها به دون أفراد الرعية. وعليه يحمل قول الصادق (ع) في (مصباح الشريعة) (١٤): " من لم ينسلخ عن هواجسه، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذا الصفة، فكلما أظهر أمرا كان حجة عليه، ولا ينتفع الناس به. قال الله عز وجل:

---

(١٤) الباب ٦٤. وقد صححنا الحديث عليه وعلى (بحار الأنوار): ٢١ / ١١٤، باب الأمر بالمعروف. وعلى (مستدرك الوسائل): ٢ / ٣٦٣ - ٣٦٥.

" أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " (١٥).
ويقال له: يا خائن! أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك! ". وكذا حمل عليه قول الصادق عليه السلام (١٦): " صاحب الأمر بالمعروف يحتاج إلى أن يكون عالما بالحلال والحرام، فارغا من خاصة نفسه مما يأمرهم به وينهاهم عنه، ناصحا للخلق، رحيما لهم، رفيقا بهم داعيا لهم باللطف وحسن البيان، عارفا بتفاوت أخلاقهم، لينزل كلا منزلته بصيرا بمكر النفس ومكائد الشيطان، صابرا على يلحقه، لا يكافيهم بها ولا يشكو منهم ولا يستعمل الحمية ولا يغتلظ لنفسه، مجردا نيته لله، مستعينا به ومبتغيا لوجهه، فإن خالفوه وجفوه صبر، وإن وافقوه وقبلوا منه شكر، مفوضا أمره إلى الله، ناظرا إلى عيبه ".
(تنبيه) إعلم أن المحتسب عليه - أعني من يؤمر به أو ينهى عنه - وإن اشترط كونه عاقلا بالغا، إلا أن هذا الشرط إنما هو في غالب الأوامر والنواهي، وبعضها لا يشترط فيه ذلك. إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر، وجب عليه أن يمنعه ويريق خمره. وكذا إن رأى مجنونا يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه منه، ولا يلزم منه أن يكون منع بهيمة عن إفساد زرع إنسان حسبة ونهيا عن منكر، إذ لا يصدق اسم المحتسب عليه والمنهي إلا على من كان الفعل الممنوع عنه في حقه منكر، وهو لا يكون إلا الإنسان دون سائر الحيوانات.
وصل
مراتب الأمر بالمعروف
إعلم أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب:
الأولى - الإنكار بالقلب: بأن يبغضه على ارتكاب المعصية. وهذا مشروط بعلم الناهي وإصرار المنهي، ولا يشترط بالشرطين الأخيرين.
الثانية - التعريف: بأن يعرف المرتكب للمنكر بأنه معصية، فإن بعض الناس قد يرتكب بعض المعاصي لجهلهم بأنه معصية، ولو عرف كونه معصية تركه.

---

(١٥) البقرة، الآية: ٤٤
(١٦) (مصباح الشريعة): الباب المتقدم.

الثالثة – إظهار الكراهة والإعراض والمهاجرة.
الرابعة – الإنكار باللسان: بالوعظ، والنصح، والتخويف، والزجر مرتبا الأيسر فالأيسر، إلى أن يصل إلى التعنيف بالقول والتغليظ في الكلام. كقوله: يا جاهل! يا أحمق! لا تخالف ربك! وههنا شبكة عظيمة للشيطان ربما يصطاد بها أكثر الوعاظ. فينبغي لكل عالم ناصح أن يراها بنور البصيرة، وهي أن يحضره عند الوعظ والإرشاد، ويلقي في قلبه تعززه وشرافته بالعلم، وذلة من يعظه بالجهل والخسة. فربما يقصد بالتعريف والوعظ الإذلال والتجهيل، وإظهار شرف نفسه بالعلم، وهذه آفة عظيمة تتضمن كبرا ورياء. وينبغي لكل واعظ دين ألا يغفل عن ذلك، ويعرف بنور بصيرته عيوب نفسه وقبح سريرته. وعلامة براءة نفسه من هذه الآفة أن يكون اتعاظ ذلك العاصي بوعظ غيره أو امتناعه من المعصية بنفسه أحب إليه من اتعاظه بوعظه.
الخامسة – المنع بالقهر مباشرة: ككسر آلات اللهو، وإراقة الخمر واستلاب الثوب المغصوب منه ورده إلى صاحبه، وأمثال ذلك.
السادسة – التهديد والتخويف: كقوله: دع عنك هذا، وإلا ضربتك أو كسرت رأسك! أو غير ذلك مما يجوز له أن يفعل لو لم ينته عن معصيته ولا يجوز أن يهدده بما لا يجوز فعله، كقوله: دع هذا وإلا أضرب عنقك! أو أضرب ولدك، أو أستبين زوجتك، وأمثال ذلك.
السابعة – مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك، من دون أن ينتهي إلى شهر سلاح وجراح.
الثامنة – الجرح بشهر بعض الأسلحة. وجوزه سيدنا المرتضى – رضي الله عنه – من أصحابنا وجماعة، والباقون اشترطوا إذن الإمام في ذلك. إذ ربما لا يقدر عليه بنفسه، ويحتاج فيه إلى أعوان وأنصار يشهرون السلاح، وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه، فيؤدي إلى المقاتلة والمحاربة وحدوث فتنة عظيمة.

وصل

معنى وجوبهما كفائيا

إذا اجتمعت الشرائط، وكان المطلع منفردا، تعين عليه، وإن كان ثمة غيره، وشرع أحدهما في الأمر والنهي، فإن ظن الآخر أن لمشاركته أثرا في تعجيل ترتب الأثر ورسوخ الانزجار وجب عليه أيضا، وإلا فلا. لأن الغرض وقوع المعروف وارتفاع المنكر، فمتى حصلا بفعل واحد، كان السعي من الآخر عبثا. وهذا معنى كون وجوبهما كفائيا.

فصل

ما ينبغي في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر

ينبغي لكل من الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون حسن الخلق صابرا حليما قويا في نفسه، لئلا ينزعج، ولا يضطرب إذا قيل في حقه ما لا يليق به. فإن أكثر الناس أتباع الهوى، فإذا نهوا عما يميلون إليه شق ذلك عليهم، فربما أطلقوا ألسنتهم في حق الناهي، ويقولون فيه ما لا يليق بشأنه، وربما تجاوزوا إلى سوء الأدب قولا وفعلا بالمشافهة.

وأن يكون رفيقا بالناس، فإن الوعظ بالرفق والملاءمة أوقع وأشد تأثيرا في قلوب أكثر الناس.

وأن يكون قاطعا للطمع عن الناس، فإن الطامع من الناس في أموالهم أو إطلاق ألسنتهم بالثناء عليه لا يقدر على الحسبة، ولذا نقل: " إن بعض المشايخ كان له سنور، وكان أخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من القد لسنوره، فرأى على القصاب منكرا، فدخل الدار أولا، وأخرج السنور ثم جاء ووعظ القصاب وشدد عليه القول، فقال القصاب: لا يأكل سنورك شيئا بعد ذلك، فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع عنك! ".

تتميم

أنواع المنكرات

إعلم أن المنكرات إما محظورة أو مكروهة، والمألوفة منها في العادات أكثر من أن تحصى.

فمنها - ما يكون غالبا في المساجد: كإساءة الصلاة، والإخلال ببعض

أفعالها، والتأخير عن أوقاتها، وإدخال النجاسة فيها، والتكلم فيها بأمور الدنيا والبيع والشراء، ودخول الصبيان والمجانين فيها مع اشتغالهم باللهو واللعب، وقراءة القرآن فيها باللحن أو الغناء، ودخول النسوان فيها مع ظن تطرق الريبة، ونظر الأجانب إليهن أو نظرهن إليهم، ودخول الجنب أو الحائض فيها، وتغني المؤذنين بالأذان أو غيره مما يقرؤن، وتقديمهم الأذان على الوقت، ووعظ من لا ينبغي أن يتمكن من الموعظة، كمن يكذب في حديثه أو يفتي بالمسائل وليس أهلا لها، أو يظهر من وعظه كونه مرائيا طالبا للجاه، وأمثال ذلك. فإن كل ذلك من المنكرات، بعضها محظورة وبعضها مكروهة، ينبغي لكل مطلع أن ينهى عنها.

ومنها – ما يكون غالبا في الأسواق: من الكذب في المحاولات والمعاملات وإخفاء العيب، والأيمان الكاذبة، والمنازعة بالضرب والشتم والطعن واللعن وأمثال ذلك، والتبخس في الكيل والميزان، والمعاملات الفاسدة بأقسامها على ما هو مقرر في الفقهيات.

ومنها – ما يكون في الشوارع: كوضع الأساطين، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة، وتضيق الطرق على المارة بوضع الأطعمة والأحطاب وربط الدواب فيها، وسوق الدواب فيها وعليها الأشواك والنجاسات – إذا تأذى الناس منها وأمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإن لم يمكن فلا منع إذ حاجة أهل البلد ربما تمس إلى ذلك – وتحميل الدواب ما لا يطيقها من الحمل، وذبح القصاب على الطريق أو على باب دكانه بحيث تلوث الطريق بالدم، وطرح الكناسة على جواد الطريق، ورش الماء على الطرق بحيث يخشى منه الزلق والسقوط، وإرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة، وغير ذلك. وقس على ذلك منكرات الحمامات، والخانات، والأسواق، ومجالس العامة، ومجامع القضاة، ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية، ودواوين السلاطين، وغيرها. فإن أمثال ما ذكر من المنكرات يجب أن ينهي عنها، فلو قام بالاحتساب والنهي عنها أحد سقط الحرج على البواقي، وإلا عم الحرج أهل البلد جميعا. وأمثال ما ذكر إنما هو من المنكرات اليسيرة الجزئية.

وأما المنكرات العظيمة: من البدعة في الدين، والقتل، والظلم، والزنا واللواط، وشرب الخمر، وأنواع الغناء، والنظر إلى غير المحارم، وأكل الحرام، والصلاة في الأماكن المغصوبة، والوضوء والغسل من المياه المحرمة والتصرف في أموال الأوقاف وغصبها، والمعاملة مع الظالمين، والجهل في الأصول الاعتقادية والفروع الواجبة، وآفات اللسان، فلا يمكن حصرها لكثرتها، لا سيما في أمثال زماننا. فلو أمكن لمؤمن دين أن يغير هذه المنكرات كلا أو بعضا بالاحتساب، فليس له أن يقعد في بيته، بل يجب عليه الخروج للنهي والتعليم. بل ينبغي لكل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الطاعات وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم أهل بلده، ثم أهل السواد المكتنف بلده، ثم إلى غيرهم، وهكذا الأقرب فالأقرب إلى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلا لزم الحرج على كل قادر عليه، قريبا كان أو بعيدا. ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل يعرض عن فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فريضة. وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن سائر المشاغل. إلا أن إعراض الناس عن أمور دينهم في عصرنا لم يبلغ حدا يقبل الإصلاح، إلى أن تتعلق به مشيئة الله، فينهض بعض عباده السعداء الأقوياء، فيدفع هذه الوصمة، ويسد هذه الثلمة، ويتلافى هذه الفترة.

ومنها:

الهجرة والتباعد

ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحقد، أو الحسد أو البخل. فيكون من رذائل قوة الغضب أو الشهوة. وهو من ذمائم الأفعال. قال رسول الله (ص): " أيما مسلمين تهاجرا، فمكثا ثلاثا لا يصطلحان، إلا كانا خارجين من الإسلام، ولم يكن بينهما ولاية. فأيهما سبق الكلام لأخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب ". وقال (ص): " لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.. " وقال الصادق عليه السلام: " لا يفترق رجلان على الهجران، إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحق ذلك

ج: ٢

كلاهما "، فقال له معتب: جعلني الله فداك! هذا للظالم، فما بال المظلوم؟!
قال: " لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعامس له عن كلامه. سمعت
أبي عليه السلام يقول: إذا تنازع اثنان، فعاد أحدهما الآخر، فليرجع
المظلوم إلى صاحبه، حتى يقول لصاحبه: أي أخي، أنا الظالم، حتى
يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله تبارك وتعالى حكم عدل، يأخذ
للمظلوم من الظالم ". وقال عليه السلام: " لا يزال إبليس فرحا ما اهتجر
المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله، ونادى: يا ويله!
ما لقي من الثبور ". وقال الباقر عليه السلام: " إن الشيطان يغري بين
المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه
وتمدد، ثم قال: فزت. فرحم الله امرأ ألف بين وليين لنا. يا معشر المؤمنين
تآلفوا وتعاطفوا " (١٧) والأخبار الواردة في ذم الهجرة والتباعد كثيرة.
فيجب على كل طلب لنجاة الآخرة أن يتأمل في أمثال هذه الأخبار،
ثم يتذكر ثواب ضد ذلك وفوائده، أعني التآلف والتزاور بين الأخوان
بنفسه، فيحافظ نفسه من حصول الانقطاع والتباعد مع إخوانه، ولو
حصل ذلك كلف نفسه المبادرة إلى زيارته وتألفه، حتى يغلب على الشيطان
ونفسه الأمارة، ويفوز بما يرجوه المتقون من عظيم الأجر وجزيل الثواب.

فصل

التزاور والتآلف

قد أشير إلى أن ضد التباعد والهجران هو التزاور والتآلف، وهو
من ثمرات النصيحة والمحبة، وثوابه أكثر من أن يحصى. عن أبي جعفر
- عليه السلام - قال: " قال رسول الله (ص): حدثني جبرئيل (ع):
أن الله عز وجل أهبط إلى الأرض ملكا، فأقبل ذلك الملك يمشي حتى وقع
إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار، فقال له الملك: ما حاجتك
إلى رب هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زرته في الله تبارك وتعالى. فقال
له الملك: ما جاء بك إلا ذاك؟ فقال: ما جاء بي إلا ذاك. قال: فإني

----

(١٧) صححنا الأخبار كلها على (الكافي): باب الهجران.

رسول الله إليك، وهو يقرئك السلام، ويقول: وجبت لك الجنة.
وقال الملك: إن الله عز وجل يقول: أيما مسلم زار مسلما فليس إياه زار، بل إياي زار، وثوابه علي الجنة ". وقال أمير المؤمنين (ع): " لقاء الأخوان مغنم جسيم، وإن قلوا ".
وقال أبو جعفر الباقر (ع): " إن لله عز وجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله ". وقال (ع): " إن المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره، فيوكل الله عز وجل به ملكا فيضع جناحا في الأرض وجناحا في السماء يظله، فإذا دخل إلى منزله، ناداه الجبار تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقي، المتبع لآثار نبيي، حق علي إعظامك، سلني أعطك، أدعني أجبك، أسكت أبتدئك. فإذا انصرف شيعه الملك يظله بجناحه حتى يدخل إلى منزله، ثم يناديه تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقي، حق علي إكرامك، قد أوجبت لك جنتي، وشفعتك في عبادي ". وقال (ع): " أيما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفا بحقه، كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، فإذا طرق الباب فتحت له أبواب السماء، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا، أقبل الله عليهما بوجهه، ثم باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبدي تزاورا وتحابا في، حق علي ألا أعذبهما بالنار بعد ذا الموقف. فإذا انصرف شيعه ملائكة عدد نفسه وخطاه وكلامه، يحفظونه عن بلاء الدنيا وبوائق الآخرة إلى مثل تلك الليلة من قابل، فإن مات فيما بينهما أعفي من الحساب، وإن كان المزور يعرف من حق الزائر ما عرفه الزائر من حق المزور كان له مثل أجره ".
وقال الصادق (ع): " من زار أخاه لله لا لغيره، التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه: ألا طبت وطابت لك الجنة! ". وقال (ع): " من زار أخاه في الله، قال الله عز وجل: إياي زرت، وثوابك علي، ولست أرضى لك ثوابا دون الجنة ". وقال - عليه السلام -: " من زار أخاه في الله في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعا ولا استبدالا، وكل الله به سبعين ألف ملك، ينادون في قفاه: أن

طبت وطابت لك الجنة! فأنتم زوار الله، وأنتم وفد الرحمن، حتى يأتي منزله "، فقال له بشير: جعلت فداك! فإن كان المكان بعيدا؟ قال: " نعم يا بشير! وإن كان المكان مسيرة سنة، فإن الله جواد، والملائكة كثير، يشيعونه حتى يرجع إلى منزله ". وقال (ع): " من زار أخاه في الله تعالى ولله، جاء يوم القيامة يخطر بين قباطي من نور (١٨)، لا يمر بشئ إلا أضاء له، حتى يقف بين يدي الله عز وجل، فيقول الله له: مرحبا! وإذا قال مرحبا، أجزل الله عز وجل له العطية ". وقال (ع): " لزيارة مؤمن في الله خير من عتق عشر رقاب مؤمنات، ومن أعتق رقبة مؤمنة وقى بكل عضو عضوا من النار، حتى أن الفرج يقي الفرج ".
وقال (ع) لأبي خديجة: " كم بينك وبين البصرة؟ " قال: في الماء خمس إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان ونحو ذلك، فقال: " ما أقرب هذا، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضا، فإنه لا بد يوم القيامة يأتي كل إنسان بشاهد شهد له على دينه ". وقال: " إن المسلم إذا رأى أخاه، كان حياة لدينه إذا ذكر الله ". وقال رسول الله (ص): " مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، ما لقي المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا ".
والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة. والسر في هذا الترغيب الشديد على تزاور المؤمنين وملاقاتهم، كونه دافعا للحسد والعداوة، جالبا للتأليف والمحبة. وهو أعظم ما يصلح به أمر دنياهم وعقباهم. ولذا ورد الثناء والمدح في الآيات والأخبار على نفس الألفة وانقطاع الوحشة، لا سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين. وورد الدم في التفرقة والتوحش، قال الله سبحانه في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة:
" لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم " (١٩). وقال: " فأصبحتم بنعمته إخوانا ": أي بنعمة الألفة. وقال

---

(١٨) القبط - بالكسر -: أهل مصر. وإليهم تنسب الثياب البيض القبطية. والجمع (قباطي).
(١٩) الأنفال، الآية: ٦٣.

سبحانه: " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " (٢٠).
وقال رسول الله (ص): " المؤمن ألف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف ". وهذا هو السر في الترغيب على التسليم والمصافحة والمعانقة.
قال رسول الله (ص): " أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام ".
وقال أمير المؤمنين (ع): " لا تغضبوا ولا تقبضوا، أفشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام ". وقال الباقر - عليه السلام -: " إن الله يحب إفشاء السلام ". وقال (ع): " من التواضع أن تسلم على من لقيت ". وقال الصادق (ع) " تصافحوا، فإنها تذهب بالسخيمة "، وقال: " مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة ". وقال الباقر (ع): " إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا، أدخل الله تعالى يده بين أيديهما، وأقبل بوجهه على أشدهما حبا لصاحبه. فإذا أقبل الله تعالى بوجهه عليهما، تحاتت عنهما الذنوب كما تتحاتت الورق من الشجر ". وقال رسول الله (ص): " إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم وليصافحه فإن الله تعالى أكرم بذلك الملائكة، فاصنعوا صنع الملائكة ". وقال الصادق - عليه السلام -: " إن المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضا من أغراض الدنيا، قيل لهما: مغفورا لكما فاستأنفا، فإذا أقبلا على الماء، قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما، فإن لهما سرا وقد ستر الله عليهما " (٢١). ومنها:

قطع الرحم

وهو إيذاء ذوي اللحمة والقرابة، أو عدم مواساتهم بما ناله من الرفاهية والثروة والخيرات الدنيوية، مع احتياجهم إليه. وباعثه إما العداوة أو البخل والخسة، فهو من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، ولا ريب في كونه من أعظم المهلكات المفسدة لدنيا والدين، قال الله سبحانه.

---

(٢٠) آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٢١) صححنا الأحاديث كلها على (الكافي): باب زيارة الأخوان، وباب المصافحة، وباب المعانقة. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥٦٨.

" والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار " (٢٢).
وقال رسول الله (ص): " أبغض الأعمال إلى الله: الشرك بالله، ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ". وقال (ص): " لا تقطع رحمك وإن قطعتك ". وقال تعالى: " أنا الرحمن، وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته ". وقال (ص): " حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعهما معه عمل " (٢٣) وتكفا به الصراط في النار ". وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - في خطبة: " أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء " فقام إليه عبد الله بن الكوى اليشكري، فقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: " نعم، ويلك! قطيعة الرحم. إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضا فيحرمهم الله وهم أتقياء ". وقال (ع): " إذا قطعوا الأرحام، جعلت الأموال في أيدي الأشرار ". وقال الباقر (ع): " في كتاب علي - صلوات الله عليه -: ثلاثة خصال لا يموت صاحبهن أبدا حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها. وإن أعجل الطاعات ثوابا لصلة الرحم. وإن القوم ليكونون فجارا فيتواصلون فتنمي أموالهم ويثرون. وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها. وتنقل الرحم، وإن نقل الرحم انقطاع النسل ". وقال الصادق (ع): " اتقوا الحالقة (٢٤)، فإنها تميت الرجال "، قيل: وما الحالقة؟ قال: " قطيعة الرحم ". وجاء رجل إليه، فشكى أقاربه، فقال له: " إكظم وافعل ": إنهم يفعلون ويفعلون، فقال: " أتريد أن

---

(٢٢) الرعد، الآية: ٢٧.
(٢٣) قال في (الوافي): لم ينفعهما معه عمل، أي لم ينفع الخائن ولا القطوع مع الخيانة أو القطع عمل. وفي نسخة من (الكافي): لم ينفعه معهما.
(٢٤) قال في (مجمع البحرين) - مادة حلق -: " وفي الحديث: اتقوا الحالقة. قال بعض الشارحين: الحالقة هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر ".

تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم؟ " (٢٥). وكتب أمير المؤمنين (ع) إلى بعض عماله: " مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا " (٢٦)، وذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وذلك ربما يورث التحاسد والتباغض وقطيعة الرحم، كما هو مشاهد في أكثر أبناء عصرنا، وليس الخبر كالمعاينة وإذا لم يتجاوروا وتزاحمت (٢٧) ديارهم، كان أقرب إلى التحابب، كما قيل بالفارسية: " دوري ودوستي " (٢٨).

وصل

ضد قطيعة الرحم: صلة الرحم

وهو تشريك ذوي اللحمة والقرابات بما ناله من المال والجاه وسائر خيرات الدنيا، وهو أعظم القربات وأفضل الطاعات، قال الله سبحانه: " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى... " (٢٩). وقال: " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا " (٣٠). وقال: " الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب - إلى قوله - أولئك لهم عقبى الدار " (٣١).

وقال رسول الله (ص): " أوصي الشاهد من أمتي والغائب، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، إلى يوم القيامة: أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين ". وقال (ص): " إن اعجل الخير ثوابا صلة الرحم " وقال: " من سره النساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه ". وقال (ص): " إن القوم ليكونون فجرة

---

(٢٥) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب قطيعة الرحم، وباب صلة الرحم.

(٢٦) لم نعثر على مصدر لهذا الحديث.

(٢٧) كذا في النسخ، والظاهر أن الصحيح " وتباعدت ".

(٢٨) يعني: التباعد معه التحابب

(٢٩) النساء، الآية: ٣٦.

(٣٠) النساء، الآية: ١.

(٣١) الرعد الآية ٢١، ٢٢.

ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم، فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبرارا بررة ". وقال (ص): " الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر، وصلة الأخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين ".
وقيل له (ص): " أي الناس أفضل؟ فقال: اتقاهم لله، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر ". وقال (ص): " إن أهل البيت ليكونون فجارا، تنمي أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم ". وقال (ص): " أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك ". وقال (ص): " من سره أن يمد الله في عمره، وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه. فإن الرحم لها لسان يوم القيامة ذلق، تقول: يا رب، صل من وصلني، واقطع من قطعني. فالرجل ليرى بسبيل خير إذا أتته الرحم قطعها، فتهوى به إلى أسفل قعر في النار ".
وقال أمير المؤمنين (ع): " صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تعالى: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا ".
وقال الباقر (ع): " إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش، تقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني ". هذا تمثيل للمعقول بالمحسوس، وإثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد من الله. وقال (ع): " صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكف وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسئ في الأجل ". وقال: " صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب وتنسئ في الأجل ". وقال الصادق (ع): " صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا بأخوانكم، ولو بحسن السلام ورد الجواب ". وقال (ع): " صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة، وهي منسأة في العمر، وتقي مصارع السوء ". وقال (ع): " صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار ". وقال - عليه السلام -: " ما نعلم شيئا يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولا للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثا وثلاثين سنة. ويكون أجله ثلاثا وثلاثين

سنة، فيكون قاطعا للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين " (٣٢). والأخبار الواردة في فضيلة صلة الرحم وعظم مثوباته أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لتنبيه الغافل.

المراد بالرحم الذي يحرم قطعه وتجب صلته، ولو وهب له شئ لا

تنبيه

المراد بالرحم

المراد بالرحم الذي يحرم قطعه وتجب صلته، ولو وهب له شئ لا يجوز الرجوع عنه، هو مطلق القريب المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح. والمراد بقطعه أن يؤذيه بالقول أو الفعل، أو كان له شدة احتياج إلى ما يقدر عليه زيادة على قدر حاجته، من سكنى وملبوس ومأكول فيمنعه، أو أمكنه أن يدفع عنه ظلم ظالم ولم يفعله، أو هاجره غيظا وحقدا من دون أن يعوده إذا مرض، أو يزوره إذا قدم من سفر، وأمثال ذلك. فإن جميع ذلك وأمثالها قطع للرحم. وأضدادها، من دفع الأذية ومواساته بماله، وزيارته، وإعانته باللسان واليد والرجل والجاه وغير ذلك، صلة.

ثم الظاهر تحقق الواسطة بين القطع والصلة، إذ كل إحسان، ولو كان مما لا يحتاج إليه قريبه وهو محتاج إليه، يسمى صلة، وعدمه لا يسمى قطعا.

ومنها:

عقوق الوالدين

وهو أشد أنواع قطيعة الرحم، إذ أخص الأرحام وأمسها ما كان بالولادة، فيتضاعف تأكد الحق فيهما، فهو كقطيعة الرحم، إما يكون ناشئا من الحقد والغيظ، أو من البخل وحب الدنيا، فيكون من رذائل إحدى قوتي الغضب والشهوة. ثم جميع ما يدل على ذم قطيعة الرحم يدل على ذم العقوق، ولكونه أشد أنواع القطيعة وأفظعها، وردت في خصوص ذمه آيات وأخبار أخر كثيرة، كقوله تعالى:

----

(٣٢) صححنا الأخبار هنا كلها على (أصول الكافي): باب صلة الرحم. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥١٤.

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (٣٣).
وقول رسول الله (ص): " كن بارا واقصر على الجنة وإن كنت عاقا فاقصر على النار ". وعن أبي جعفر (ع) قال: " قال رسول الله (ص) في كلام له: إياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء. إنما الكبرياء لله رب العالمين ". وقوله (ص): " من أصبح مسخطا لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ". وعن أبي جعفر (ع) قال: " إن أبي (ع) نظر إلى رجل ومعه ابنه يمشي والابن متكئ على ذراع الأب، قال: فما كلمه أبي مقتا له حتى فارق الدنيا ". وقال الصادق (ع): " من نظر إلى أبويه نظر ماقت، وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة ". وقال الصادق (ع): " إذا كان يوم القيامة، كشف غطاء من أغطية الجنة فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام، إلا صنفا واحدا " فقيل له: من هم؟ قال: " العاق لوالديه ". وقال (ع): " لو علم الله شيئا هو أدنى من أف لنهى عنه، وهو من أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما " (٣٤). وسئل الكاظم (ع) عن الرجل يقول لبعض ولده: بأبي أنت وأمي! أو بأبوي أنت! أترى بذلك بأسا؟ فقال: " إن كان أبواه حيين فأرى ذلك عقوقا وإن كانا قد ماتا فلا بأس ".

والأخبار في ذم العقوق أكثر من أن تحصى، وورد في بعض الأخبار القدسية: " بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني! لو أن العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعا لم أقبلها منه " وروي أيضا: " أن أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا، من رضي عنه والداه فأنا منه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط ". وقد ورد عن رسول

---

(٣٣) الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣٤) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب العقوق. وعلى (مستدرك الوسائل): ٢ / ٦٣١ كتاب النكاح، وعلى (الوسائل): كتاب النكاح.

الله أنه قال: " كل المسلمين يروني يوم القيامة، إلا عاق الوالدين، وشارب الخمر، ومن سمع اسمي ولم يصلي علي ". وقد ثبت من الأخبار والتجربة أن دعاء الوالد على ولده لا يرد ويستجاب البتة. ودلت الأخبار على أن من لا ترضى عنه أمه تشتد عليه سكرات الموت وعذاب القبر. وكفى للعقوق ذما أنه ورد في الإسرائيليات: " أنه تعالى أوحى إلى موسى: أن من بر والديه وعقني كتبته برا، ومن برني وعق والديه كتبته عاقا ".

وصل

بر الوالدين

ضد العقوق (بر الوالدين) والاحسان إليهما، وهو أفضل القربات، وأشرف السعادات. ولذلك ورد ما ورد من الحث عليه، والترغيب إليه.

قال الله سبحانه:

" وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيرا " (٣٥). وقال: " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا " (٣٦).

وقال رسول الله (ص): " بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله ". وقال (ص): " من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ". وعن أبي عبد الله (ع)

لا تشرك بالله شيئا وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالإيمان، ووالديك فأطعهما وبرهما حيين كانا وإن أمراك، أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان ". وعن أبي عبد الله (ع): قال: " جاء رجل وسأل النبي (ص) عن بر الوالدين. فقال: أبرر أمك، أبرر أمك أبر أمك أبرر أباك أبرر أباك وبدا " بالأم قبل الأب. وعن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: " جاء رجل إلى النبي (ص)، فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال:

---

(٣٥) بني إسرائيل، الآية: ٢٤.

(٣٦) النساء، الآية: ٣٦.

أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك ". وأتاه رجل آخر وقال: " إني رجل شاب نشيط، وأحب الجهاد، ولي والدة تكره ذلك. فقال له (ص): أرجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثني بالحق! لأنسها بك ليلة خير من جهاد في سبيل الله سنة ". وقال أبو عبد الله (ع): " إن رسول الله (ص) أتته أخت له من الرضاعة، فلما نظر إليها سربها، وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله، صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل، فقال: لأنها كانت أبر بوالديها منه ".

وقيل للصادق (ع): " أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله ". وقال له (ع) رجل: " إن أبي قد كبر جدا وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة. فقال: إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل، ولقمه بيدك، فإنه جنة لك غدا ". وقال له (ع) رجل: " إن لي أبوين مخالفين. فقال: برهما كما تبر المسلمين ممن يتولانا ". وقال رجل للرضا (ع): " أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله (ص) قال: إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق ".

وقد وردت أخبار أخر في الأمر بالبر والاحسان إلى الوالدين، وإن كان على خلاف الحق. وقال (ع): " ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين وميتين، ويصلي عنهما، ويتصدق عنها، ويحج عنهما، ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل ببره وصلاته خيرا كثيرا " (٣٧).

والأخبار في ثواب بر الوالدين غير محصورة. فينبغي لكل مؤمن أن يكون شديد الاهتمام في تكريمهما وتعظيمهما واحترامهما، ولا يقصر في خدمتهما، ويحسن صحبتهما، وألا يتركهما حتى يسألاه شيئا مما يحتاجان

---

(٣٧) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب بر الوالدين. وعلى (الوسائل): كتاب النكاح أبواب أحكام العشرة، باب وجوب بر الوالدين، وباب وجوب بر الوالدين برين كانا أو فاجرين، وباب جملة من حقوق الوالدين، وعلى (المستدرك) ٢ / ٦٢٨. كتاب النكاح.

إليه، بل يبادر إلى الاعطاء قبل أن يفتقر إلى السؤال، كما ورد في الأخبار، وإن أضجراه فلا يقل لهما أف، وإن ضرباه لا يعبس وجهه، وقال لهما: غفر الله لكما، ولا يملأ عينيه من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يده فوق أيديهما، ولا يتقدم قدامهما، بل مهما أمكن له لا يجلس عندهما، وكلما بالغ في التذلل والتخضع كان أجره أزيد وثوابه أعظم.

وبالجملة: إطاعتهما واجبة وطلب رضاهما حتم، فليس للولد أن يرتكب شيئا من المباحات والمستحبات بدون إذنهما، ولذا أفتى العلماء بأنه لا تجوز المسافرة في طلب العلم إلا بأذنهما، إلا إذا كان في طلب علم الفرائض، من الصلاة والصوم وأصول العقائد، ولم يكن في بلده من يعلمه، ولو كان في بلده من يعلمه لم تجز المسافرة. وقد روي: " أن رجلا هاجر من اليمن إلى رسول الله (ص) وأراد الجهاد، فقال له: ارجع إلى أبويك فاستأذنهما، فإن أذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت، فإن ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد ". وجاء آخر إليه للجهاد، فقال: " ألك والدة؟ " قال: نعم! قال: " فالزمها، فإن الجنة تحت قدمها ". وجاء آخر، وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد، وقال: ما جئتك حتى أبكيت والدي. قال: " ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما ". ولو وقعت بين الوالدين مخالفة، بحيث توقف رضى أحدهما على سخط الآخر، فينبغي أن يجتهد في الإصلاح بينهما بأي طريق أمكن، ولو بالعرض إلى فقيه البلد حتى يطلبهما ويعظهما ويقيمهما على الوفاق، لئلا ينكسر خاطر أحدهما منه.

وأعلم أن حق كبير الأخوة على صغيرهم عظيم، فينبغي محافظته.

قال رسول الله (ص): " حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده ".

تذنيب

حق الجوار

حق الجوار قريب من حق الرحم، إذ الجوار يقتضي حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، فمن قصر في حقه عداوة أو بخلا فهو آثم. قال رسول الله (ص): " الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة. ومنهم من له حقان: حق الإسلام، وحق الجوار. ومنهم من له حق واحد: الكافر له حق الجوار ". فأنظر كيف أثبت للكافر حق الجوار. وقال (ص): " أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا ". وقال (ص): " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره ". وقال (ص): " لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه ". وقيل له (ص): فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتتصدق، وتؤذي جارها بلسانها. فقال (ص): لا خير فيها، هي من أهل النار ". وعن علي عليه السلام: " أن رسول الله (ص) كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب: إن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه " وقال الصادق عليه السلام " حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار وقال عليه السلام: " ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره ". وقال عليه السلام: " قال رسول الله (ص): ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع ". وقال: " إن يعقوب عليه السلام لما ذهب عنه بنيامين، نادى: يا رب أما ترحمني، أذهبت عيني وأذهبت ابني؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: لو أمتهما لأحييتهما لك، أجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت، وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئا ". وفي رواية أخرى: " فكان بعد ذلك يعقوب ينادي مناديه كل غداة ومساء من منزله على فرسخ: ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب! " (٣٨).

---

(٣٨) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب حسن الجوار. وعلى (المستدرك): ٢ / ٧٨ و ٧٩. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ٨٥ - ٨٨.

وفي بعض الأخبار (٣٩): " إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة، ويقول: سل يا رب هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني؟ ".

تتميم

حدود الجوار وحقه

معرفة الجوار موكولة إلى العرف، فأي دار يطلق عليها الجار عرفا يلزم مراعاة حقوق أهلها. والمستفاد من بعض الأخبار: إن كل أربعين دارا من كل واحد من الجوانب الأربعة جيران، ثم لا ينحصر حق الجار في مجرد كف الأذى، إذ ذلك يستحقه كل أحد، بل لا بد من الرفق وإهداء الخير والمعروف، وتشريكه فيما يملكه ويحتاج إليه من المطاعم، كما ظهر من بعض الأخبار المتقدمة. وينبغي أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ويستر ما اطلع عليه من عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا في المرور عن طريقه، ولا يمنعه ما يحتاج إليه من الماعون، ويغض بصره عن حرمه، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ويتلطف لأولاده في كلمته، ويرشده إلى ما يصلحه من أمر دينه ودنياه، وإن استعان به في أمر أعانه، وإن استقرضه أقرضه، ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح، إلا بإذنه، وإذا اشترى شيئا من لذائذ المطاعم وطرفها فليهد له، وإن لم يفعل فليدخلها بيته سرا، ولا يخرج بها أولاده حتى يطلع عليها بعض أولاد جاره، فيشتهيه وينكسر لذلك خاطره.

ومنها:

طلب العثرات

وتجسس العيوب والعورات وإظهارها. ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحسد، وربما حدث في القوة الشهوية رداءة توجب الاهتزاز والانبساط، من ظهور عيب بعض المسلمين، وإن لم يكن عداوة وحقدا، كما قيل:

---

(٣٩) هذا كلام ذكره في (إحياء العلوم): ٢ / ١٨٩ بعد قوله: " إذ يقال ".

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا
ومن تصفح الآيات والأخبار، يعلم إن من يتبع عيوب المسلمين ويظهرها بين الناس أسوأ الناس وأخبثهم، قال الله تعالى:
" ولا تجسسوا " (٤٠). وقال: " إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم " (٤١).
وقال رسول الله (ص): " من أذاع فاحشة كان كمبتدئها، ومن غير مؤمنا بشئ، لم يمت حتى يرتكبه ". وقال (ص): " كل أمتي معافى، إلا المجاهرين " والمجاهرة أن يعمل الرجل سوءا فيخبر به. وقال (ص): " من استمع خبر قوم وهم له كارهون صبت في أذنيه الآنك يوم القيامة " عن أبي جعفر عليه السلام قال: " قال رسول الله (ص): يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه! لا تتبعوا عثرات المسلمين، فإنه من يتبع عثرات المسلمين يتتبع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه ". وقال الباقر عليه السلام: " من أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين، فيحصي عليه زلاته ليعيره بها يوما ما ". وقال الصادق (ع) " من أنب مؤمنا أنبه الله عز وجل في الدنيا والآخرة ". وقيل للصادق (ع) " شئ يقوله الناس، عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: ليس حيث تذهب، إنما عورة المؤمن أن يراه يتكلم بكلام يعاب عليه فيحفظه عليه ليعيره به يوما إذا غضب ". وقال الباقر عليه السلام: " قال رسول الله (ص): إن أسرع الخير ثوابا البر، وأسرع الشر عقوبة البغي. وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عنه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعينه " (٤٢). والأخبار الواردة بأمثال هذه المضامين كثيرة.

----

(٤٠) الحجرات، الآية: ١٢.
(٤١) النور، الآية: ١٩.
(٤٢) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم وعلى (الوسائل): أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٠. وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٤. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٥، باب تتبع عيوب الناس وإفشائها.

وصل

ستر العيوب

ضد كشف العيوب سترها وإخفاؤها، وهو من أعظم شعب النصيحة، ولا حد لثوابه، كما يستفاد من الأخبار الكثيرة. قال رسول الله (ص): " من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة ". وقال (ص): " لا يستر عبد عيب عبد إلا ستره الله يوم القيامة ". وقال (ص): " لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه، إلا دخل الجنة ". وكفى بستر العيوب فضلا أنه من أوصاف الله سبحانه، ومن شدة اعتنائه بستر الفواحش أناط ثبوت الزنا - وهو أفحشها - بما لا يمكن اتفاقه إلا نادرا، وهو مشاهدة أربعة عدول كالميل في المكحلة. فانظر إلى أنه تعالى كيف أسبل الستر على العصاة من خلقه في الدنيا، بتضييق الطرق المؤدية إلى كشفه. ولا تظنن أنك تحرم هذا الستر يوم تبلى السرائر، فقد ورد في الحديث: " إن الله تعالى إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة، وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها أخرى ". وورد أيضا: " إنه يؤتى يوم القيامة بعبد يبكي، فيقول الله سبحانه له: لم تبكي؟ فيقول: أبكي على ما سينكشف عني من عوراتي وعيوبي عند الناس والملائكة. فيقول الله: عبدي ما افتضحتك في الدنيا بكشف عيوبك وفواحشك، وأنت تعصيني وتضحك! فكيف أفضحك اليوم بكشفها وأنت تعصيني وتبكي! ". وفي خبر آخر: " إن رسول الله (ص) يطلب يوم القيامة من الله سبحانه ألا يحاسب أمته بحضرة من الملائكة والرسل وسائر الأمم، لئلا تظهر عيوبهم عندهم، بل يحاسبهم بحيث لا يطلع على معاصيهم غيره سبحانه، وسواه (ص) فيقول الله سبحانه: يا حبيبي، أنا أرأف بعبادي منك، فإذا كرهت كشف عيوبهم عند غيرك، فأنا أكره كشفها عندك أيضا، فأحاسبهم وحدي بحيث لا يطلع على عثراتهم غيري ".

فإذا كانت عناية الله سبحانه في ستر عيوب العباد بهذه المثابة، فأنى لك أيها المسكين المبتلى بأنواع العيوب والمعاصي، تسعى في كشف عيوب عباد الله، مع إنك مثلهم في الاتصاف بأنواع العيوب والعثرات! وتأمل أنه

ج: ٢

لو أظهر أحد بعض فواحشك عند الناس كيف يكون حالك، فقس عليه حال غيرك ممن تكشف أنت بعض فواحشه. وقد ثبت ووضح من الأخبار والتجربة: إن من يفضح يفتضح، فيا حبيبي، ترحم على نفسك وتأس بربك فاسبل الستر على عيوب غيرك.

ومنها:

إفشاء السر

وإذاعته، وهو أعم من كشف العيب، إذ السر قد يكون عيبا وقد لا يكون بعيب، ولكن في إفشائه إيذاء وإهانة بحق الأصدقاء أو غيرهم من المسلمين، وهو من رذائل قوة الغضب إن كان منشأه العداوة، ومن رذائل قوة الشهوة إن كان منشأه تصور نفع مالي، أو مجرد اهتزاز النفس بذلك لخباثتها، وهو مذموم منهي عنه قال رسول الله (ص): " إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت، فهي أمانة " وقال (ص): " الحديث بينكم أمانة ". وورد: " إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك ". وقال عبد الله بن سنان للصادق عليه السلام: " عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: نعم! قلت: يعني سفلته؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما هو إذاعة سره " (٤٣)

فصل

كتمان السر

ضد إفشاء السر كتمانه، وهو من الأفعال المحمودة، وقد أمر به في الأخبار. قال رسول الله (ص): " طوبى لعبد نومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم تتجلى عنهم كل فتنة مظلمة ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفاة المرائين ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " طوبى لعبد نومة، لا يؤبه له، يعرف الناس ولا يعرفه الناس يعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، تتجلى عنهم كل فتنة، ويفتح لهم باب كل رحمة، ليسوا بالبذر المذاييع ولا الجفاة المرائين ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " قولوا الخير تعرفوا به، واعملوا الخير

---

(٤٣) صحجنا الأحاديث على البحار: ٤ / ١٧٥ مج ١٥، باب تتبع عيوب الناس.

تكونوا من أهله، ولا تكونوا عجلا مذاييع. فإن خياركم الذين إذا نظر إليهم ذكر الله، وشراركم المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المبتغون للبراء المعايب " (٤٤).

تنبيه

النميمة

النميمة تطلق في الأكثر على أن ينم قول الغير إلى المقول فيه، كأن يقال: فلان تكلم فيك بكذا وكذا، أو فعل فيك كذا وكذا. وعلى هذا تكون نوعا خاصا من إفشاء السر وهتك الستر، وهو الذي يتضمن فسادا أو سعاية. وقد تطلق على ما لا يختص بالمقول فيه، بل على كشف ما يكره كشفه، سواء كره المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز والايماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبا ونقصانا على المنقول عنه أو لم يكن وعلى هذا يكون مساومة لإفشاء السر وهتك الستر. وحينئذ فكل ما يرى من أحوال الناس ولم يرضوا بإفشائه، فإذاعته نميمة. فاللازم على كل مسلم أن يسكت عما يطلع عليه من أحوال غيره، إلا إذا كان في حكايته نفع لمسلم أو دفع لمعصية. كما إذا رأى أحدا يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، وأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه، فحكايته نميمة وإفشاء للسر.

ثم الباعث على النميمة يكون غالبا إرادة السوء بالمحكى عنه، فيكون داخلا تحت الإيذاء، وربما كان باعثه إظهار المحبة للمحكى له، أو التفريح بالحديث، أو الخوض في الفضول. وعلى أي تقدير، لا ريب في أن النميمة أرذل الأفعال القبيحة وأشنعها. وما ورد في ذمها من الآيات والأخبار لا يحصى كثرة، قال الله سبحانه:

" هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم " (٤٥).

---

(٤٤) صححنا الأحاديث كلها على (البحار): ج ٤ مج ١٥: باب فضل كتمان السر. وعلى (أصول الكافي): باب كتمان السر، وباب الرواية على المؤمن.

(٤٥) القلم، الآية: ١١ - ١٢.

والزنيم: هو ولد الزنا. فيستفاد من الآية: إن كل من يمشي بالنميمة فهو ولد الزنا. وقال سبحانه:
" ويل لكل همزة لمزة " (٤٦): أي النمام المغتاب.
وقال رسول الله (ص): " لا يدخل الجنة نمام ". وفي خبر آخر:
" لا يدخل الجنة قتات ": أي النمام. وقال (ص): " أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبراء العثرات " (٤٧)
وقال (ص): ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعايب " (٤٨).
وقال (ص): " من أشار على مسلم كلمة ليشينه بها في الدنيا بغير حق، شانه الله في النار يوم القيامة ". وقال (ص): " أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برئ ليشينه بها في الدنيا، كان حقا على الله أن يدينه بها يوم القيامة في النار ". وقال (ص): " إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي قالت: سعد من دخلني. قال الجبار جل جلاله: وعزتي وجلالي! لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر، ولا مصر على الزنا، ولا قتات - وهو النمام -، ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول علي عهد الله أن أفعل كذا وكذا ثم لم يف به ". وقال الباقر عليه السلام: " الجنة محرمة على المغتابين المشائين بالنميمة ". وقال عليه السلام: " يحشر العبد يوم القيامة وما ندا دما (٤٩)، فيدفع إليه شبه

---

(٤٦) الهمزة، الآية: ١.
(٤٧) صححنا الحديث على (المستدرك): ١١١ كتاب الحج.
(٤٨) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٦٤، وعلى (المستدرك): ١١٠ كتاب الحج. وعلى (أصول الكافي): باب النميمة.
(٤٩) قال في مجمع البحرين - مادة (نداء) -: " فلان ما ندا دما ولا قتل قتلا: أي ما سفك دما ". وقد كتبت كلمة (ندا) في جميع ما وجدناه من الكتب بالألف، وعسى أن تكون بالياء هكذا (ندى) كرضى. واحتمل في الوافي أن تكون (ندى) بتشديد الدال، وذكر احتمالات كثيرة، فراجعه وقد روي في (الوسائل) - كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٦٣ - مثل هذا الحديث عن (الشيخ الطوسي)، وقد جاء فيه: " وما أدمى دما ". أما الحديث المذكور هنا، فقد صححناه على (أصول الكافي) باب الإذاعة.

المحجمة أو فوق ذلك فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، إنك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دما، فيقول: بلى، سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صار إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه ". وقال الصادق عليه السلام: " من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان، ولا يقبله الشيطان " (٥٠).

وروي: " أنه أصاب بني إسرائيل قحط، فاستسقى موسى مرات، فما أجيب. فأوحى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة. فقال موسى: يا رب، من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى، أنهاكم عن النميمة وأكون نماما؟! فتابوا بأجمعهم، فسقوا ". وروي: " أن ثلث عذاب القبر من النميمة ".

ومن عرف حقيقة النميمة، يعلم أن النمام شر الناس وأخبثهم، كيف وهو لا ينفك من الكذب، والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والافساد بين الناس والخديعة. وقد قال الله سبحانه:

" ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض " (١).

والنمام يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض وقال الله " إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق " (٢).

والنمام منهم.

وقال رسول الله (ص): " لا يدخل الجنة قاطع ": أي قاطع بين الناس، والنمام قاطع بينهم. وقال (ص): " شر الناس من اتقاه الناس نشره ": والنمام منهم، والنمام أعظم شرا من كل أحد.

---

(٥٠) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٧. وعلى (أصول الكافي): باب الرواية على المؤمن.

(١) البقرة، الآية: ٢٧.

(٢) الشورى، الآية: ٤٠.

نقل: أن رجلا باع عبدا، فقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال رضيت. فاشتراه، فمكث الغلام أياما، ثم قال لزوجة مولاه: إن زوجك لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، وأنا أسحره لك في شعره فقالت: كيف أقدر على أخذ شعره؟ فقال: إذا نام فخذي الموسى واحلقي من قفاه عند نومه شعرات. ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف. فتناوم فجاءته المرأة بالموسى، فظن أنها تقتله، فقام وقتلها، فجاء أهلها وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين، وطال الأمر بينهم.

ثم يلزم على ما تحمل إليه النميمة ألا يصدق النمام، لأنه فاسق والفاسق مردود الشهادة بقوله تعالى:

" إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " (٣).

وأن ينهاه عن ذلك، وينصحه ويقبح له فعله، لقوله تعالى:

" وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر " (٤).

وأن يبغضه في الله، لكونه مبغوضا عنده تعالى، وألا يظن بأخيه سوءا بمجرد قوله، لقوله تعالى:

وألا يحمل عمله على التجسس والبحث لتحقيق ما حكى له، لقوله تعالى: " ولا تجسسوا ". وألا يرضى لنفسه ما نهى عنه النمام، فلا يحكي نميمته، فيقول: فلان قد حكى كذا وكذا، فيكون به نماما ومغتابا.

وروى محمد بن فضيل عن الكاظم عليه السلام: " إنه قال له عليه السلام جعلت فداك! الرجل من إخواني يبلغني عنه الشئ الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات. فقال لي: يا محمد، كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة، فقال لك قولا

----

(٣) الحجرات، الآية: ٦.

(٤) لقمان، الآية: ١٧.

(٥) الحجرات، الآية: ١٢.

فصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئا تشينه به وتهدم مروته، فتكون من الذين قال الله:
" إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب شديد " (٦).
وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: " إن رجلا أتاه يسعى إليه برجل، فقال: يا هذا، نحن نسأل عمن قلت، فإن كنت صادقا مقتناك، وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك. قال: أقلني يا أمير المؤمنين ". ونقل: " أن رجلا زار بعض الحكماء، وأخبره بخبر عن غيره فقال: قد أبطأت عني الزيارة، وبغضت إلي أخي، وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمينة ".
تتمة
السعاية
السعاية هي النميمة، بشرط كون المحكى له من يخاف جانبه، كالسلاطين والأمراء والحكماء والرؤساء وأمثالهم، فهي أشد أنواع النميمة إثما ومعصية، وهي أيضا تكون من العداوة ومن حب المال وطمعه، فتكون من رداءة القوتين وخباثتهما. قال رسول الله (ص): " الساعي بالناس إلى الناس لغير رشده ": يعني ليس ولد حلال. وذكرت السعاة عند بعض الأكابر، فقال: ما ظنك بقوم يحمد الصدق من كل طبقة إلا منهم؟
ومنها:
الافساد بين الناس
وهو في الأكثر يحصل بالنميمة، وإن لم يوجب كل نميمة إفسادا.
ولا ريب في كونه من المهلكات المؤدية إلى النار، قال الله سبحانه:
" الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون " (٧).

---

(٦) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٧. والآية من سورة النور: ١٩.
(٧) البقرة، الآية: ٢٧.

وقال رسول الله (ص): " إن فساد ذات البين هي الحالقة ".

وصل

الإصلاح

وضده الإصلاح بين الناس، وهو أعظم أفراد النصيحة، ولا غاية لمثوبته عند الله. قال رسول الله (ص): " أفضل الصدقة إصلاح ذات البين " وقال (ص): " اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة ". وقال (ص): " ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ". وقال (ص): " كل الكذب مكتوب، إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكذب بين اثنين ليصلح بينهما "..

وقال الصادق عليه السلام: " صدقة يحبها الله تعالى إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا ". وقال عليه السلام للمفضل: " إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة، فافتدها من مالي ". وقال (ع) لابن عمار: " أبلغ عني كذا وكذا في أشياء أمر بها. فقال له ابن عمار: فأبلغهم عنك، وأقول عني ما قلت لي وغير الذي قلت؟ قال: نعم! إن المصلح ليس بكذاب ". وقال عليه السلام: " المصلح ليس بكاذب " (٨): يعني إذا تكلم بما لا يطابق الواقع فيما يتوقف عليه الإصلاح لم يعد كلامه كذبا. وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه.

ومنها:

الشماتة

وهو إظهار أن ما حدث بغيره من البلية والمصيبة إنما هو من سوء فعله وإساءته، والغالب صدوره عن العداوة أو الحسد. وعلامته أن يكون مع فرح ومسرة، وربما صدر عن رداءة القوة الشهوية، بأن يهتز به ويميل إليه، مع جهله بمواقع القضاء والقدر، وإن لم يكن معه حقد وحسد.

---

(٨) صححنا الأحاديث عن الصادق - عليه السلام - على (أصول الكافي): باب الإصلاح بين الناس. وصححنا النبويات على (كنز العمال): ٢ / ١٤، ١٢٨.

والتجربة والأخبار شاهدان على أن كل من شمت بمسلم في مصيبة لم يخرج من الدنيا حتى يبتلى بمثلها ويشمت به غيره فيها. قال الصادق عليه السلام " لا تبدي الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويحلها بك ". وقال عليه السلام: " من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن " (٩).

على أن كل بلية ومصيبة ترد على مسلم يمكن أن تكون كفارة لذنوبه أو باعثا لرفع درجاته واعتلاء مرتبته في دار الآخرة.

والدليل على ذلك: أن أعظم البلايا والمصائب موكلة بالأنبياء، ثم بالأولياء، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات الاعتلاء. ولا ريب في أن ورود المصائب والمحن عليهم ليس من سوء فعلهم وإساءتهم. فينبغي لكل عاقل أن يتأمل (أولا) أن الشماتة بمسلم بمصيبة لا ينفك في الدنيا من ابتلائه بمثلها، (وثانيا) إنها إيذاء لأخيه المسلم، فلا ينفك عن العذاب في الآخرة (وثالثا) إن نزول هذه المصيبة به لا يدل على سوء حاله عند الله، بل الأرجح دلالته على حسن حاله وتقربه عند الله سبحانه. فليحافظ على نفسه عن إبداء الشماتة لأحد من المسلمين، ويخوف من يراه من الشامتين عن عقوبة العاجل وعذاب الآجل.

ومنها:

المراء والجدال والخصومة

إعلم أن المراء طعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه، من غير غرض سوى تحقيره وإهانته، وإظهار تفوقه وكياسته. والجدال مراء يتعلق بإظهار المسائل الاعتقادية وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام لاستيفاء مال أو حق مقصود، وهذه تكون تارة ابتداءا وتارة اعتراضا، والمراء لا يكون إلا اعتراضا على كلام سبق، فالمراء داخل تحت الإيذاء، ويكون ناشئا من العداوة أو الحسد. وأما الجدال والخصومة، فربما صدرا من أحدهما أيضا، وربما لم يصدرا منه.

وحينئذ، فالجدال إن كان بالحق - أي تعلق بإثبات إحدى العقائد

---

(٩) صححنا الحديثين على (أصول الكافي): باب الشماتة.

الحقة – وكان الغرض منه الإرشاد والهداية، ولم يكن الخصم لدودا عنودا، فهو الجدال بالأحسن، وليس مذموما، بل ممدوح معدود من الثبات في الإيمان الذي هو من نتائج قوة المعرفة وكبر النفس، قال الله سبحانه:
" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن " (١٠).
وإن لم يكن بالحق، فهو مذموم اقتضته العصبية أو حب الغلبة واو الطمع المالي، فيكون من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، وربما أورث شكوكا وشبهات تضعف العقيدة الحقة، ولذا نهى الله سبحانه عنه وذم عليه، فقال:
" ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير " (١١).
وقال: " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره " (١٢).
والخصومة أيضا إن كانت بحق، أي كانت مما يتوقف عليه استيفاء مال أو حق ثابت، فهي ممدوحة معدودة من فضائل القوة الشهوية، وإن كانت بباطل، أي تعلقت بما يدعيه كذبا أو بلا علم ويقين، فهي مذمومة معدودة من رذائلها. فالخصومة المذمومة تتناول المخاصمة فيما يعلم قطعا عدم استحقاقه، وفيما لا علم له بالاستحقاق، كخصومة وكيل القاضي، فإنه قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب، يتوكل في الخصومة من أي جانب كان، ويخاصم من غير علم وإيقان، فمثله خباط العثرات وركاب الشبهات، يضر بالمسلمين بلا غرض، ويتحمل أوزار الغير بلا عوض، فهو أخسر الناس أعمالا وأعظمهم في الآخرة أوزارا ونكالا. وتتناول أيضا مخاصمة من يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد والعناد في الخصومة قصدا للتسلط والإيذاء، ومن يمزج بخصومته كلمة مؤذية لا يحتاج إليها في إظهار الحق وبيان الحجة، ومن يحمله على الخصومة محض العناد بقهر الخصم وكسره مع استحقاره لذلك القدر من المال، وربما صرح بأن قصدي العناد والغلبة عليه وكسر عرضه، وإذا أخذت منه هذا المال رميته، ولا

----

(١٠) العنكبوت، الآية: ٤٦.
(١١) الحج، الآية: ٨.
(١٢) الأنعام، الآية: ٦٨.

أبالي، فمثله غرضه اللدد واللجاج.
فتنحصر الخصومة الجائزة بمخاصمة المظلوم الذي يطلب حقه وينصر حجته بطريق الشرع من غير قصد عناد وإيذاء، مع الاقتصار على قدر الحاجة في الخصومة من دون أن يتكلم بالزائد ولا بكلمات مؤذية، ففعله ليس بحرام وإن كان الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، إذ ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر أو متعسر، لأنها توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب ذهب المتنازع فيه من البين، واشتد الحقد بين المتخاصمين حتى يحزن كل واحد بمسرة صاحبه ويفرح بمساءته. فالخصومة مبدأ كل شر، فينبغي ألا يفتح بابها إلا عند الضرورة على قدر الضرورة، ولا يتعدى عن الواجب، إذ أقل درجاتها تشوش الخاطر، حتى إنه في الصلاة ليشتغل بمخاصمة الخصم، ويتضمن الطعن والاعتراض، أي التجهل والتكذيب، إذ من يخاصم غيره إما يجهله أو يكذبه، فيكون آتيا بسوء الكلام، ويفوت به ضده، أعني طيب الكلام، مع ما ورد فيه من الثواب.
وكذا الحال في المراء والجدال.
وبالجملة: المراء والجدال والخصومة، سوى ما استثنى، من ذمائم الأفعال ومبادئ أكثر الشرور والفتن، ولذا ورد بها الذم الشديد في الأخبار قال رسول الله (ص): " من جادل في خصومة بغير علم، لم يزل في سخط حتى ينزع ". وقال (ص): " إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ". وقال (ص): " ما أتاني جبرئيل قط إلا وعظني، فآخر قوله لي: إياك ومشادة الناس، فإنها تكشف العورة وتذهب بالعز ". وقال أمير المؤمنين (ع): " إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب على الأخوان، وينبت عليهما النفاق ". وقال علي بن الحسين عليهما السلام: " ويل أمة فاسقا من لا يزال مماريا! ويل أمة فاجرا من لا يزال مخاصما! ويل أمة آثما من كثر كلامه في غير ذات الله! ". وقال الصادق (ع): " لا تمارين حليما ولا سفيها، فإن الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك ".
وقال: " إياك والمشادة، فإنها تورث المعرة وتظهر العورة ". وقال (ع): " إياكم والخصومة، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب

الضغائن " (١٣). فمن تأمل في ما يدل على ذمها وسوء عاقبتها عقلا ونقلا - فمع عدم ترتب فائدة عليها، وتذكر ما ورد في مدح تركها وفوائد ضدها، أعني طيب الكلام - يسهل عليه أن يتركها ولا يحوم حولها.

تذنيب

علاج المراء

طريق المعالجة في إزالة المراء والجدال والخصومة: أن يعلم أنها توجب التباغض والمباينة، وتزيل الألفة والمحبة، وتقطع الالتيام والوحدة. ولا ريب في أن قوام النظام الأصلح بالالتيام والوحدة، كما اقتضته العناية الإلهية والحكمة الأزلية، والمباينة الراجعة إلى الكثرة ينافيهما، ولا ينبغي للعاقل أن يرتكب ما يضاد فعل الله وحكمته. وهذا هو العلاج العلمي. وأما العملي، فليواظب على ضد هذه الثلاثة، أعني طيب الكلام، ويكلف نفسه عليه، حتى يصير ملكة له وترتفع أضدادها عنه بالمرة.

وصل

طيب الكلام

قد أشير إلى أن ضد الرذائل الثلاث طيب الكلام، وما ورد في مدحه وفي ثواب تركها أكثر من أن يحصى. قال رسول الله (ص): " ثلاث من لقي الله تعالى بهن دخل الجنة من أي باب شاء: من حسن خلقه، وخشي الله في المغيب والمحضر، وترك المراء وإن كان محقا ". وقال (ص): " يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام ". وقال (ص): " إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ". وقال (ص): " الكلمة الطيبة صدقة ". وروي: " أن عيسى - عليه السلام - مر به خنزير. فقال: مر بسلامة. فقيل له: يا روح الله، تقول هذا للخنزير! فقال: أكره أن أعود لساني الشر ". وقال بعض الحكماء: " الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة

----

(١٣) صححنا الأحاديث على (الكافي): باب المراء والخصومة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٣٥ و ١٣٦. وعلى (إحياء العلوم): ٢ / ١٠٢.

في الجوارح ".
ومنها:
السخرية والاستهزاء
وهو محاكاة أقوال الناس أو أفعالهم أو صفاتهم وخلقهم، قولا وفعلا، أو إيماءا وإشارة، على وجه يضحك منه. وهو لا ينفك عن الإيذاء والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص. وإن لم يكن ذلك بحضرة المستهزأ به. فيتضمن الغيبة أيضا. وباعثه إما العداوة أو التكبر واستصغار المستهزأ به، فيكون من رذائل القوة الغضبية، أو قصد ضحك الأغنياء وتنشيط قلوبهم، طمعا في بعض أوساخهم الملوثة، وأخذ النبذ من حطامهم المحرمة، ولا ريب في أنه صفة من لاحظ له في الدين، وشيمة أراذل أحزاب الشياطين، لأنهم يظهرون أكاذيب الأقوال ويرتكبون أعاجيب الأفعال، يخلعون قلائد الحرية عن الرقاب، ويهتكون أستار الحياء بمرأى من أولي الألباب، يبتغون عيوب المؤمنين وعوراتهم، ويظهرون نقائص المسلمين وعثراتهم، يقلدون أفعال الأخيار على وجه يضحك الأشرار، ويحاكون صفات الأبرار على أفضح الوجوه في الأنظار. ولا ريب في أن المرتكب لهذه الأفعال بعيد عن الإنسانية بمراحل، ومستوجب لعقوبة العاجل وعذاب الآجل، ولا يخلو ساعة عن الصغار والهوان، ولا وقع له في قلوب أهل الإيمان، وكفاه ذما أنه جعل تلك المعاصي الخبيثة وسيلة لتحصيل المال أو الواقع في قلوب أبناء الدنيا، ويلزمه عدم اعتقاده بأن الله سبحانه هو المتكفل لأرزاق العباد.
والطريق في دفعه - بعد التأمل في سوء عاقبته، ووخامة خاتمته، وفيما يلزمه من الذلة والهوان في الدنيا - أن يبادر إلى إزالة العداوة والتكبر إن كان باعثه ذلك، وإن كان باعثه تنشيط قلوب أهل الدنيا طمعا في مالهم، فليعلم أن لكل نفس ما قدر لها من الأموال والأرزاق، يصل إليها من الله سبحانه البتة، فإن من يتق الله ويتوكل عليه يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويكون في الآخرة سعيدا، وإن أغواه الشيطان وحثه على تحصيلها من المداخل الخبيثة، لم يصل إليه أكثر مما قدر له، وكان في الآخرة شقيا.

وليعلم أيضا أن المتوكل على الله والمتصف بالحرية، لا يبدل التوكل والحرية بهذه الأفعال لأجل الوصول إلى بعض خبائث الأموال، فليعاتب نفسه ويزجرها بالمواعظ والنصائح، ويتذكر ما ورد في الشريعة من ذم المستهزئين وتعذيبهم يوم القيامة بصورة الاستهزاء، قال الله جل شأنه:
" لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم " (١٤).
وقال (ص): " إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة، فيقال: هلم هلم! فيجئ بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم! فيجئ بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه.
فما يزال كذلك، حتى يفتح له الباب، فيقال له: هلم هلم! فما يأتيه ".
وقال ابن عباس في قوله تعالى:
" يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " (١٥).
" الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة: القهقهة بذلك ".
وفيه إشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم العظيمة.
ثم جميع ما ذكر إنما هو في حق من يؤذي الناس ويهينهم باستهزائه وسخريته، وأما من جعل نفسه مسخرة ويسر بأن يهزل ويسخر به، وإن كان هو ظالما لنفسه خارجا عن شعار المؤمنين، حيث أهان نفسه وأذلها، إلا أن سخرية الغير به من جملة المزاح، ويأتي ما يذم منه وما يحمد، وإنما المحرم منه ما يؤدي إلى إيذائه وتحقيره: بأن يضحك على كلامه إذا يخبط ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا أو طويلا أو ناقصا بعيب من العيوب. فالضحك على جملة ذلك داخل في السخرية المنهي عنها.
وطريق علاجه - بعد تذكر ما تقدم - أن استهزاءه يوجب خزي نفسه يوم القيامة عند الله وعند الملائكة والنبيين وعند الناس أجمعين، فلو تفكر في حسرته وحيائه وخجله وخزيه يوم يحمل سيئات من استهزأ به ويساق إلى النار، لأدهشه ذلك عن إخزاء غيره، ولو عرف حقيقة حاله يوم القيامة،

---

(١٤) الحجرات، الآية: ١١.
(١٥) الكهف، الآية: ٥٠.

لكان الأولى له أن يضحك على نفسه تارة ويبكي عليها أخرى، لأنه باستهزائه به عند بعض أراذل الناس عرض نفسه لأن يأخذ بيده ذلك الغير يوم القيامة على ملأ من الناس ويسوقه تحت السياط، كما يساق الحمار، إلى النار، مستهزئا به مسرورا بخزيه وتمكين الله تعالى إياه على الانتقام منه. فمن تأمل في ذلك، ولم يكن عدوا لنفسه، اجتنب عن السحرية والاستهزاء كل الاجتناب.

ومنها:

المزاح

وأصله مذموم منهي عنه، وسببه إما خفة في النفس، فيكون من رذائل القوة الغضبية، أو ميل النفس وشهوتها إليه، أو تطييب خاطر بعض أهل الدنيا طمعا في مالهم، فيكون من رذائل القوة الشهوية. وسبب الذم فيه: أنه يسقط المهابة والوقار، وربما أدى إلى التباغض والوحشة والضغينة، وربما انجر إلى الهزل والاستهزاء، وأدخل صاحبه في جملة المستهزأ بهم، وربما صار باعثا لظهور العداوة - كما قيل - وربما جر إلى اللعب، قال رسول الله (ص): " لا تمار أخاك، ولا تمازحه "، وقال بعض الأكابر لابنه: " يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدني فيجترئ عليك "، وقال آخر: " إياكم والممازحة، فإنها تورث الضغينة وتجر إلى القطيعة ". وقال آخر: " المزاح مسلبة للبهاء، ومقطعة للأصدقاء ". وقيل: " لكل شئ بذر، وبذر العداوة المزاح ". ومن مفاسد المزاح: أنه سبب للضحك، وهو منهي عنه. قال الله تعالى:

" فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا " (١٦).

وقال رسول الله (ص): " إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيضحك بها جلساءه، يهوي بها أبعد من الثريا "، وقال: " لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا "، وهو يدل على أن الضحك علامة الغفلة عن الآخرة وقال بعض: " من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن

----

(١٦) التوبة، الآية: ٨٣.

أكثر من شئ عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه ". وخاطب عارف نفسه وقال: " أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار؟! " وقال رجل لأخيه: " يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم! قال: وهل أتاك أنك خارج منها؟ فقال: لا، قال: ففيم الضحك؟ فما رئي بعد ذلك ضاحكا حتى مات ". ونظر بعضهم إلى قوم يضحكون في يوم الفطر، فقال: " إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ".

ثم المذموم من الضحك هو القهقهة، والتبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع الصوت ليس مذموما، بل محمود لفعل النبي (ص) (١٧).

تذنيب

المذموم من المزاح

الحق أن المذموم من المزاح هو الإفراط فيه والمداومة عليه، أو ما يؤدي إلى الكذب والغيبة وأمثالهما، ويخرج صاحبه عن الحق. وأما القليل الذي يوجب انبساط خاطر وطيبة قلب، ولا يتضمن إيذاءا ولا كذبا ولا باطلا، فليس مذموما، لقول رسول الله (ص): " إني لأمزح ولا أقول إلا حقا ". ولما روي: " أنهم قالوا له (ص): يا رسول الله، إنك تداعبنا! فقال: إني وإن داعبتكم، فلا أقول إلا حقا ". ولما روت العامة: " أنه (ص) كان كثير التبسم، وكان أفكه الناس ". وورد: " أن رسول الله (ص) كسا ذات يوم واحدة من نسائه ثوبا واسعا، وقال لها: البسيه واحمدي، وجري منه ذيلا كذيل العروس ". وقال (ص): " لا تدخل الجنة عجوز. فبكت العجوز. فقال: إنك لست يومئذ بعجوز " وجاءت امرأة إليه، وقالت: " إن زوجي يدعوك. فقال (ص): زوجك هو الذي بعينه بياض؟ قالت: والله ما بعينه بياض! فقال: بلى، إن

---

(١٧) راجع أخبار - المزاح والضحك والتبسم: كتاب (الوسائل): الباب ٨٠ - ٨٤ من أبواب أحكام العشرة، والظاهر أن المؤلف لم يرجع إلى أخبارنا التي فيها غنى عن النقل عن أناس مجهولين.

بعينه بياضا. فقالت: لا والله! فقال: ما من أحد إلا بعينه بياض ".
وأراد به البياض المحيط بالحدقة. وجاءته امرأة أخرى، وقالت: " احملني يا رسول الله على بعير. فقال: بل نحملك على ابن البعير. فقالت: ما أصنع به، إنه لا يحملني، فقال (ص): هل من بعير إلا وهو ابن بعير؟ ".
وكان (ص) يدلع لسانه للحسين (ع)، فيرى لسانه فيهش له. وقال لصهيب - وبه رمد وهو يأكل التمر -: " أتأكل التمر وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر. فتبسم رسول الله حتى بدت نواجذه ".
وروي: " أن خوات ابن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، وكان ذلك قبل إسلامه، فطلع عليه رسول الله (ص) فقال له:
مالك مع النسوة؟ قال: يفتلن ضفيرا لجمل لي شرود. فمضى رسول الله لحاجته ثم عاد، فقال: يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟
قال: فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك استخفى منه حياء، حتى أسلمت وقدمت المدينة، فاطلع علي يوما وأنا أصلي في المسجد، فجلس إلي، فطولت الصلاة، فقال: لا تطول فإني أنتظرك، فلما فرغت قال: يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قلت: والذي بعثك بالحق نبيا! ما شرد منذ أسلمت! فقال: الله أكبر الله أكبر، اللهم أهد أبا عبد الله. فحسن إسلامه ". وكان نعيمان الأنصاري، رجلا مزاحا، فإذا دخل المدينة شئ نفيس من اللباس أو المطاعم اشترى منه، وجاء به إلى رسول الله (ص) ويقول: هذا أهديته لك. فإذا جاء صاحبه يطالبه بثمنه، جاء به إلى رسول الله (ص)، وقال: يا رسول الله، اعطه ثمن متاعه، فيقول له النبي (ص): " أو لم تهده لنا؟ " فيقول: لم يكن عندي والله ثمنه، وأحببت أن تأكل منه، فيتبسم رسول الله ويأمر لصاحبه بثمنه. وأمثال هذه المطايبات مروية عن رسول الله (ص) وعن الأئمة عليهم السلام وأكثرها منقولة مع النسوان والصبيان، وكان ذلك معالجة لضعف قلوبهم، من غير ميل إلى هزل ولا كذب ولا باطل، وكان صدور ذلك عنهم أحيانا وعلى الندرة، ومثلهم كانوا يقدرون على المزاح مع عدم خروجهم عن الحق والاعتدال، وأما غيرهم فإذا فتح باب المزاح فربما وقع في الإفراط والباطل. ج: ٢

فالأولى لأمثالنا تركه مطلقا.
ومنها:
الغيبة
وهي أن يذكر الغير بما يكرهه لو بلغه، سواء كان ذلك بنقص في بدنه أو في أخلاقه أو في أقواله، أو في أفعاله المتعلقة بدينه أو دنياه، بل وإن كان بنقص في ثوبه أو داره أو دابته.
والدليل على هذا التعميم - بعد إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه إذا سمعه فهو مغتاب - ما روي عن رسول الله (ص) أنه قال: " هل تدري ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: " ذكرك أخاك بما يكره "، قيل له: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته ". وما روي: " إنه ذكر رجل عنده، فقالوا: ما أعجزه! فقال (ص): إغتبتم أخاكم، قالوا: يا رسول الله، قلنا ما فيه. قال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه ". وما روي عن عائشة: " دخلت علينا امرأة، فلما ولت، أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال (ص): اغتبتها ". وما روي أنها قالت: " إني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي (ص): إن هذه لطويلة الذيل. فقال لي: الفظي الفظي! فلفظت مضغة لحم ". وقد روي " أن أحد الشيخين قال للآخر إن فلانا لنؤم، ثم طلبا أدما من رسول الله ليأكلا به الخبز. فقال (ص): قد ائتدمتما. فقالا: ما نعلمه، فقال: بلى! إنكما أكلتما من لحم صاحبكما ".
وأما ما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: " صفة الغيبة أن تذكر أحدا بما ليس هو عند الله بعيب ويذم ما يحمده أهل العلم فيه. وأما الخوض في ذكر الغائب بما هو عند الله مذموم وصاحبه فيه ملوم، فليس بغيبة، وإن كره صاحبه إذا سمع به وكنت أنت معافى عنه وخاليا منه، وتكون في ذلك مبينا للحق من الباطل ببيان الله ورسوله، ولكن على شرط ألا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحق والباطل في دين الله عز وجل، وأما إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى، فهو مأخوذ بفساد مراده

وإن كان صوابا " (١٨) فهو مخصوص بما إذا لم يكن صاحبه عالما بقبحه، أو كان ساترا على نفسه كارها لظهوره. ويدل على ذلك ما روي عنه عليه السلام أيضا، أنه سئل عن الغيبة، فقال: " هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل، وتبث عليه أمرا قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حد ". وقال عليه السلام: " الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأما الأمر الظاهر فيه، مثل الحدة والعجلة، فلا ". وقال الكاظم عليه السلام: " من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس، لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس، اغتابه، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته " (١٩). ويأتي أن المجاهر بمعصيته غير سائر لها، لا غيبة له فيها.

والحاصل: إن الإجماع والأخبار متطابقان على أن حقيقة الغيبة هو أن يذكر الغير بما يكرهه إذا سمعه، سواء كان ذلك بنقص في نفسه أو بدنه، أو في دينه أو دنياه، أو فيما يتعلق به من الأشياء، وربما قيل أنه لا غيبة فيما يتعلق بالدين، لأنه ذم من ذمه الله ورسوله، فذكره بالمعاصي وذمه جائز. وأيد ذلك بما روي: " أنه ذكر عند رسول الله امرأة وكثرة صومها وصلاتها ولكنها تؤذي جيرانها. فقال: هي في النار ". وذكرت امرأة أخرى بأنها بخيلة، فقال: " فما خيرها إذن؟ ". ولا ريب في بطلان هذا القول، لما عرفت من عموم الأدلة. وما ورد من ذم الأشخاص المعينة في كلام الله وكلام حججه إنما هو لتعريف الأحكام وتبيينها، وسؤال الأصحاب عنهم وذكرهم بالمعاصي، إنما كان لحاجتهم إلى معرفة الأحكام لا للذم وإظهار العيب، ولذا لم يكن ذلك إلا في مجلس الرسول (ص) أو الأئمة (ع).

---

(١٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٤٩. وقد تقدم الشك في صحة (مصباح الشريعة) في الجزء الأول.

(١٩) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب الحكام العشرة، الباب ١٥٤، وعلى (أصول الكافي): باب الغيبة والبهت. وعلى (البحار) ٤ مج ١٥ / ١٨٤ باب الغيبة، وقال في الموضوع المذكور عن الحديث الأول: " الغيبة هو أن تقول ": الضمير للغيبة، وتذكيره بتأويل الاغتياب أو باعتبار الخبر.

فصل

لا تنحصر الغيبة باللسان

إعلم أن الغيبة لا تنحصر باللسان، بل كل ما يفهم نقصان الغير، ويعرف ما يكرهه فهو غيبة، سواء كان بالقول أو الفعل، أو التصريح أو التعريض، أو بالإشارة والايماء أو بالغمز والرمز، أو بالكتابة والحركة ولا ريب في أن الذكر باللسان غيبة محرمة، لتفهيمه الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، لا لكون المفهم والمعرف لسانا، فكل ما كان مفهما ومعرفا فهو مثله. فالغيبة تتحقق بإظهار النقص بالفعل والمحاكاة، كمشية الأعرج، بل هو أشد من الغيبة باللسان، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم منه، وبالإيماء والإشارة، وقد روي: " أنه دخلت امرأة على عائشة، فلما ولت، أومأت بيدها أنها قصيرة. فقال رسول الله (ص): قد اغتبتها ".

وبالكتابة إذ القلم أحد اللسانين، وبالتعويض، كأن يقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، والتبذل في طلب الجاه والمال، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، ونسأله أن يعصمنا منه، معرضا في كل ذلك بمن ارتكب ذلك، فيذكره بصيغة الدعاء. وربما قدم مدح من يريد غيبته، ثم اتبعه بإظهار عيبه، كأن يقول: لقد كان فلان حسن الحال ولكنه ابتلى بما ابتلى به كلنا من سوء الحال، وهو جمع بين الرياء والغيبة، ومدح نفسه بالتشبه بالصلحاء في ذم أنفسهم.

ومن المغتابين المنافقين من يظهر في مقام غيبة مسلم الاغتمام والحزن من سوء حاله، كأن يقول: لقد ساءني ما جرى على صديقنا فلان من الإهانة والاستخفاف، أو ارتكابه معصية كذا، فنسأل الله أن يجعله مكرما أو يصلح حاله، أو يقول: قد ابتلي ذلك المسكين بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه. وهو كاذب في ادعائه الحزن والكآبة، وفي إظهار الدعاء، إذ لو اغتم لاغتم بإظهار ما يكرهه أيضا، ولو قصد الدعاء لأخفاه في خلواته فإظهار الحزن والدعاء ناش عن خبث سريرته، وهو يظن أنه ناش عن صفاء طويته. هكذا يلعب الشيطان بمن ليس له قوة البصيرة بمكائد اللعين وتلبيساته، فيسخر بهم ويضحك عليهم، ويحبط أعمالهم بمكائده، وهم

يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وربما ذكر بعض المغتابين عيب مسلم ولم يتنبه له بعض الحاضرين، فيقول إسماعا له وإعلاما لما يقوله: " سبحان الله! ما أعجب هذا! " حتى يتوجه إليه ويعلم ما يريد، فيستعمل اسم الله آلة لتحقيق خبثه.

ثم المستمع للغيبة أحد المغتابين، كما ورد به الخبر (٢٠). وقد دل على ذلك أيضا ما تقدم من حديث الشيخين، وما روي: أنه (ص) لما رجم ماعزا في الزنا، قال رجل لآخر: هذا أقعص كما يقعص الكلب. فمر النبي (ص) معهما بجيفة، فقال: إنهشا من هذه الجيفة. فقالا: يا رسول الله، ننهش جيفة! فقال: ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه ". فجمع بينهما، مع إن أحدهما كان قائلا والآخر مستمعا.

وهو إما لا يسر باستماعها، إلا أنه لا ينكرها باللسان ولا يكرهها بالقلب، أو يسر ويفرح باستماعها، إلا أن النفاق والتزهد حملاه على عدم التصديق، وربما منع منها رياء وتزهدا، مع كونه مشتهيا لها بقلبه وربما توصل بالحيل المرغبة للمغتاب في زيادة الغيبة، مع التباس الأمر عليه بأنه يشتهيها، مثل أن يظهر التعجب ويقول: عجبت منه ما علمت أنه كذلك، وما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه. فإن ذلك تصديق للمغتاب، وباعث لزيادة نشاطه في الغيبة، فكأنه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق.

والحاصل: إن المستمع لا يخرج عن إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه أو يقطع الكلام بكلام آخر. أو يقوم من المجلس، وإن لم يقدر على شئ من ذلك، فلينكر بقلبه، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهيه بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه. ومع عدم الخوف لا يكفي أن يشير باليد أو حاجبه أو جبينه، أي اسكت، إذ ذلك استحقار للمذكور، مع إنه ينبغي أن يعظمه فيذب عنه صريحا. قال النبي (ص):

---

(٢٠) إشارة إلى ما رواه الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره، عن رسول الله (ص) أنه قال: " المستمع أحد المغتابين ". وإلى قول أمير المؤمنين (ع): " السامع للغيبة أحد المغتابين ". (بحار الأنوار): ٤ مج ١٥ / ١٧٩.

" من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينتصر له فلم ينصره، أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ". وقال: " من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ". وقال (ص): " من ذب عن عرض أخيه بالغيب، كان حقا على الله أن يعتقه من النار ". وقال (ص): " من رد عن عرض أخيه، كان له حجابا من النار ". وقال (ص) ما من رجل ذكر عنده أخوه المسلم، وهو يستطيع نصره ولو بكلمة ولم ينصره إلا أذله الله - عز وجل - في الدنيا والآخرة. ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره، نصره الله في الدنيا والآخرة " وقال (ص): " من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار وقال (ص) " من تطول على أخيه في غيبته، سمعها عنه في مجلس فردها، رد الله عنه ألف ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، وإن لم يردها وهو قادر على ردها، كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة "، وقال الباقر عليه السلام " من اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه، نصره الله في الدنيا والآخرة ومن لم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه، إلا خفضه الله في الدنيا والآخرة ". وبهذه المضامين أخبار كثيرة أخر.

فصل

بواعث الغيبة

إعلم أن باعث الغيبة - غالبا - إما الغضب أو الحقد أو الحسد، فيكون من نتائجها، ومن رذائل قوة الغضب، وله بواعث أخر:

الأول - السخرية والاستهزاء: فإن ذلك كما يجري في الحضور يجري في الغيبة أيضا، وقد عرفت أن منشأهما ماذا.

الثاني - اللعب والهزل والمطايبة: فيذكر غيره بما يضحك الناس عليه على سبيل التعجب والمحاكاة. ويأتي أن باعث الهزل والمزاح ماذا، وإنه متعلق بالقوة الشهوية.

الثالث - إرادة الافتخار والمباهاة: بأن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان لا يعلم شيئا. وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه وإنه أفضل منه. وظاهر أن منشأ ذلك التكبر أو الحسد، فيكون أيضا من رذائل القوة الغضبية.

الرابع – أن ينسب إلى شئ من القبائح، فيريد أن يتبرأ منه بذكر الذي فعله، وكان اللازم عليه أن يبرئ نفسه منه، ولا يتعرض للغير الذي فعله، وقد يذكر غيره بأنه كان شاركا له في الفعل، ليتمهد بذلك عذر نفسه في فعله، وربما كان منشأ ذلك صغر النفس وخبثها.

الخامس – مرافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، حذرا عن تنفرهم واستثقالهم إياه لولاه، فيساعدهم على إظهار عيوب المسلمين وذكر مساويهم ظنا منه أنه مجاملة في الصحبة، فيهلك معهم. وباعث ذلك أيضا صغر النفس وضعفها.

السادس – أن يستشعر من رجل أنه سيذكر مساوية، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يستشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل ذلك بإظهار عداوته، أو تقبيح حاله، ليسقط أثر كلامه وشهادته. وربما ذكره بما هو فيه قطعا، بحيث ثبت ذلك عند السامعين ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد به ويقول: ليس الكذب من عادتي، فإني أخبرتكم قبل ذلك من أحواله كذا وكذا، فكان كما قلت، فهذا أيضا صدق كسابقه. وهذا أيضا منشأه الجبن وضعف النفس.

السابع – الرحمة، وهو أن يحزن ويغتم بسبب ما ابتلي به غيره فيقول المسكين فلان قد غمني ما ارتكبه من القبح، أو ما حدث به من الإهانة والاستخفاف! فيكون صادقا في اغتمامه، إلا أنه لما ذكر اسمه وأظهر عيبه صار مغتابا، وقد كان له الاغتمام بدون ذكر اسمه وعيبه ممكنا، فأوقعه الشيطان فيه ليبطل ثواب حزنه ورحمته.

الثامن – التعجب من صدور المنكر والغضب لله عليه، بأن يرى منكر من إنسان أو سمعه، فيقول عند جماعة: ما أعجب من فلان أن يتعارف مثل هذا المنكر! أو يغضب منه، فيظهر غضبه واسمه ومنكره، فإنه وإن كان صادقا في تعجبه من المنكر وغضبه عليه، لكن كان اللازم أن يتعجب منه ويغضب عليه، ولكنه لا يظهر اسمه عند من لم يطلع على ما صدر عنه من المنكر بل يظهر غضبه عليه بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف من غير أن يظهره لغيره، فلما أوقعه الشيطان في ذكره بالسوء صار مغتابا، وبطل ثواب تعجبه وغضبه، وصار آثما من حيث لا يدري.

وهذه الثلاثة الأخيرة مما يغمض دركها، لأن أكثر الناس يظنون أن الرحمة والتعجب والغضب إذا كان لله كان عذرا في ذكر الاسم، وهو خطأ محض، إذ المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها من ذكر الاسم دون غيرها، وقد روي: " أن رجلا مر على قوم في عصر النبي (ص) فلما جاوزهم، قال رجل منهم: إني أبغض هذا الرجل لله فقال القوم: ولله لبئس ما قلت! وإنا نخبره بذلك، فأخبروه به، فأتى الرجل رسول الله (ص) وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه فدعاه، وسأله عما قال في حقه، فقال: نعم قد قلت ذلك. فقال رسول الله: ولم تبغضه؟ فقال: أنا جاره وأنا به خبير والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة! فقال: يا رسول الله، فاسأله هل رآني أخرتها عن وقتها لو أسأت الوضوء لها والركوع والسجود؟ فسأله فقال: والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه كل بر وفاجر قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا؟ فسأله، فقال: لا! فقال: والله ما رأيته يعطي سائلا قط ولا مسكينا، ولا رأيته ينفق من ماله شيئا في سبيل الخير إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر! قال: فاسأله هل رآني نقصت منها شيئا أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها فسأله فقال: لا: فقال رسول الله (ص) للرجل: قم، فلعله خير منك "
ولا ريب في أن إنكار القوم عليه بعد قوله أبغضه لله يفيد عدم جواز إظهار المنكر الصادر من شخص لغيره، وإن كان في مقام الغضب والبغض لله.

فصل

ذم الغيبة

لما علمت حقيقة الغيبة وبواعثها، فاعلم أنها أعظم المهلكات وأشد المعاصي وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال:
" ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " (٢١). وقال: " لا يحب الله الجهر بالسوء من القول

---

(٢١) الحجرات، الآية: ١٢.

إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما " (٢٢). وقال: " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " (٢٣).

وقال رسول الله (ص) " المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ". والغيبة تتناول العرض. وقال (ص) " إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه " وقال (ص) " مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوهم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم " وخطب (ص) يوما حتى اسمع العوائق في بيوتها، فقال: " يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه يتتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته ". وخطب (ص) يوما فذكر الربا وعظم شأنه، فقال: " إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم ". ومر (ص) على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: " إنهما ليعذبان في كبيرة، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستبري من بوله ". ودعا بجريدة رطبه أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبره، وقال: " أما إنه يهون من عذابهما ما كانتا رطبتين ". وروي: " أنه (ص) أمر الناس بصوم يوم، وقال: لا يفطرن أحد حتى آذن له. فصام الناس، حتى إذا أمسوا، جعل الرجل يجيئ، فيقول: يا رسول الله، ظللت صائما فأذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل، حتى جاء رجل، فقال: يا رسول الله لتفطرا. فأعرض عنه. ثم عاوده فأعرض عنه. ثم عاوده، فقال: إنهما لم تصوما، وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم الناس، إذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا. فرجع إليهما، فأخبرهما، فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما حلقة من دم. فرجع إلى النبي (ص) فأخبره، فقال

---

(٢٢) النساء، الآية: ١٤٧.

(٢٣) ق، الآية: ١٨.

والذي نفس محمد بيده! لو بقيتا في بطنيهما لأكلتهما النار ". وأوحى الله تعالى إلى موسى (ع): " من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار. وقال (ع): " من مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنم، فكشف الله عورته على رؤوس الخلائق. ومن اغتاب مسلما، بطل صومه ونقض وضوءه، فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله " وقال (ص): " الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه " (٢٤) وقال (ص) " الجلوس في المسجد انتظار للصلاة عبادة، ما لم يحدث "، فقيل: يا رسول الله، وما الحدث؟ قال: الاغتياب ". وقال (ص): " من اغتاب مسلما أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوما وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه وقال - (ص) " من اغتاب مسلما في شهر رمضان لم يؤجر على صيامه " وقال (ص) " من اغتاب مؤمنا بما فيه، لم يجمع الله بينهما في الجنة أبدا، ومن اغتاب مؤمنا بما ليس فيه، انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب في النار خالدا فيها وبئس المصير ". وقال (ص) " كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة فإنها أدام كلاب النار ". وقال (ص) " ما عمر مجلس بالغيبة إلا خرب بالدين، فنزهوا أسماعكم من استماع الغيبة، فإن القائل والمستمع لها شريكان في الإثم ". وقال (ص): " ما النار في التبن بأسرع من الغيبة في حسنة العبد " (٢٥) وقال الصادق (ع) " من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم).

---

(٢٤) الرواية مذكورة في (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. قال في الموضع المذكور: " بيان: الأكلة - كفرحة - داء في العضو يأتكل منه، وقد يقرأ بعد الهمزة على وزن فاعلة، أي العلة التي تأكل اللحم. والأول أوفق باللغة. وقيل الأكلة - بالضم - اللقمة، وكلاهما محتملات إلى أن ذكر الجوف يؤيد الأول وإرادة الإضافة والإذهاب يؤيد الثاني والأول أقرب وأصوب، وتشبيه الغيبة بأكل اللقمة أنسب، لأن الله سبحانه شبهها بأكل اللحم ".

(٢٥) صححنا الأحاديث هنا على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٢. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٦ وعلى (إحياء العلوم): ٣ / ١٢٣.

وقال (ع): " من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان ". وقال (ع): " من اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شريك شيطان (٢٦) وقال (ع) " الغيبة حرام على كل مسلم، وإنها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " والأخبار الواردة في ذم الغيبة مما لا يكاد يمكن حصرها، وما ذكرناه كاف لإيقاظ الطالبين. والعقل أيضا حاكم بأنها أخبث الرذائل، وقد كان السلف لا يرون العبادة في الصوم والصلاة، بل في الكف عن أعراض الناس، لأنه كان عندهم أفضل الأعمال، ويرون خلافة صفة المنافقين، ويعتقدون أن الوصول إلى المراتب العالية في الجنة يتوقف على ترك الغيبة، لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله - أنه قال: " من حسنت صلاته وكثرت عياله، وقل ماله ولم يغتب المسلمين، كان في الجنة كهاتين " وما أقبح بالرجل المسلم أن يغفل عن عيوب نفسه، ويتجسس على عيوب أخوانه، ويظهرها بين الناس، فما باله يبصر القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه.

فيا حبيبي، إذا أردت أن تذكر عيوب غيرك، فاذكر عيوبك، وتيقن بأنك لن تصيب حقيقة الإيمان، حتى لا تعيب الناس يعيب هو فيك، وحتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب. وإذا كان شغلك إصلاح عيوب نفسك، كان شغلك في خاصة نفسك، ولم تكن فرصة للاشتغال بغيرك، وحينئذ كنت من أحب العباد إلى الله لقول النبي (ص) " طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ".

واعلم أن عجز غيرك في الاجتناب عن ذلك العيب وصعوبة إزالته عليه كعجزك عن الاجتناب عنه إن كان ذلك العيب فعلا اختياريا، وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق تعالى. فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قيل لبعض الحكماء يا قبيح الوجه! فقال: " ما كان خلق وجهي إلي فأحسنه " ولو فرض براءتك عن جميع العيوب، فلتشكر الله، ولا تلوث نفسك بأعظم العيوب. إذ أكل لحوم الميتات أشد العيوب وأقبحها، مع إنك لو ظننت خلوك عن جميع العيوب لكنت أجهل الناس، ولا عيب أعظم من مثل هذا الجهل.

---

(٢٦) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل) في الموضع المتقدم. وعلى (أصول الكافي) باب الغيبة والبهت. وعلى (المستدرك).

ثم ينبغي أن يعلم المغتاب أن الغيبة تحبط حسناته وتزيد في سيئاته، لما ثبت من الأخبار الكثيرة: أن الغيبة تنقل حسنات المغتاب يوم القيامة إلى من اغتابه، وإن لم تكن له حسنة نقل إليه من سيئاته. قال رسول الله (ص): " يؤتى بأحدكم يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله تعالى، ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإني لا أرى فيه طاعتي، فيقول له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقول له: إن فلانا اغتابك فدفعت حسناته إليك ". وفي معناه أخبار أخر. ولا ريب في أن العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة مما اغتاب به مسلما، فيحصل به الرجحان ويدخل لأجله النار. وأقل ما في الباب أن ينقص من ثواب صالحات أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والمناقشة في الحساب. وروي عن بعضهم: " أن رجلا قيل له: إن فلانا قد اغتابك، فبعث إليه طبقا من رطب، وقال: بلغني أنك قد أهديت إلي من حسناتك، فأردت أن أكافيك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافيك على التمام ".

والحاصل: أن العاقل ينبغي أن يتأمل في أن من يغتابه إن كان صديقا ومحبا له، فإظهار عيوبه وعثراته بعيد من المروة والإنصاف، وإن كان عدوا له، فتحمل خطاياه ومعاصيه ونقل حسناته إلى ديوانه غاية الحماقة والجهل.

فصل

علاج الغيبة

الطريق في علاج الغيبة وتركها، أن يتذكر أولا ما تقدم من مفاسدها الأخروية، ثم يتذكر مفاسدها في الدنيا، فإنه قد تصل الغيبة إلى من اغتيب، فتصير منشأ لعداوته أو لزيادة عداوته، فيتعرض لإيذاء المغتاب وإهانته، وربما انجر الأمر بينهما إلى ما لا يمكن تداركه من الضرب والقتل وأمثال ذلك. ثم يتذكر فوائد أضدادها - كما نشير إليها - وبعد

ذلك فليراقب لسانه، ويقدم التروي في كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن تضمن غيبة سكت عنه، وكلف نفسه ذلك على الاستمرار، حتى يرتفع عن نفسه الميل الجلي والخفي إلى الغيبة.

والعمدة في العلاج أن يقطع أسبابها المذكورة، وقد تقدم علاج الغضب والحقد والحسد والاستهزاء والسخرية، ويأتي طريق العلاج في الهزل والمطايبة والافتخار والمباهاة. وأما تنزيه النفس بنسبة ما نسب إليه من الجناية إلى الغير، فمعالجته أن يعلم أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوق، ومن اغتاب تعرض لمقت الله وسخطه قطعا، ولا يدري أنه يتخلص من سخط الناس أم لا، فيحصل بعمله ذم الله وسخطه تقديرا، وينظر دفع ذم الناس نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان. وأما تعرضه لمشاركة الغير في الفعل تمهيدا لعذر نفسه، كان يقول إني أكلت الحرام، لأن فلانا أيضا أكل، وقبلت مال السلطان، لأن فلانا أيضا قبل، مع أنه أعلم مني، فلا ريب في أنه جهل وسفه، لأنه اعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به. فإن من خالف الله لا يقتدي به كائنا من كان، فلو دخل غيره النار وهو يقدر على عدم الدخول فهل يقتدي به في الدخول ولو دخل عد سفيها أحمق، ففعله معصية، وعذره غيبة وغباوة، فجمع بين المعصيتين والحماقة، ومثله كمثل الشاة، إذا نظرت إلى العنز تردى نفسها من الجبل فهي أيضا تردى نفسها، ولو كان لها لسان ناطق واعتذرت عن فعلها بأن العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك فعلت أنا، لكان هذا المغتاب المعتذر يضحك عليها، مع أن حاله مثل حالها ولا يضحك على نفسه.

والعجب أن بعض الأشقياء عن العوام، لما صارت قلوبهم عش الشيطان وصرفوا أعمارهم في المعاصي، واشتغلت ذممهم بمظالم الناس بحيث لا يرجى لهم الخلاص، مالت نفوسهم الخبيثة إلى ألا يكون معاد وحساب وحشر وعقاب، ولما وجد ذلك الميل منهم اللعين، خرج من الكمين، ووسوس في صدورهم بأنواع الشكوك والشبهات، حتى ضعف بها عقائدهم أو أفسدها. ودعاهم في مقام الاعتذار عن أعمالهم الخبيثة ألا يصرحوا ارتكز في قلوبهم

ويشتهونه، خوفا من القتل وإجراء أحكام الكفار عليهم، ولم يدعهم أيضا تلبيسهم وتزويرهم وغلبة الشيطنة عليهم أن يعترفوا بالنقص وسوء الحال فحملهم الشيطان بإغوائه على أن يعتذروا من سوء فعالهم بأن بعض العلماء يفعلون ما نفعل ولا يجتنبون عن مثل أعمالنا، من طلب الرئاسة وأخذ الأموال المحرمة، ولم يدروا أن هذا القول ناش من جهلهم وخباثتهم.

إذ نقول لهم: إن فعل هذا البغض إن صار منشأ لزوال إيمانكم بالمعاد والحساب، فأنتم كافرون، وباعث أعمالكم الخبيثة هو الكفر وعدم الإذعان بأحوال النشأة الآخرة. وإن لم يصر منشأ له، بل إيمانكم ثابت، فاللازم عليكم العمل بمقتضاه، من غير تزلزل يعمل الغير كائنا من كان. فما الحجة في عمل هذا البعض، مع اعتقادكم بأنه على باطل؟!.

وأيضا لو كان باعث أعمالكم الخبيثة فعل العلماء، فلم اقتديتم بهذا البعض مع عدم كونه من علماء الآخرة وعدم اطلاعه على حقيقة العلم؟ ولو كنتم صادقين فيما تنسبون إليه، فهو المتأكل بعلمه، وإنما حصل نبذ من علوم الدنيا لتوسل بها إلى حطامها، ولا يعد مثله عند أولي الألباب عالما، بل هو متشبه بالعلماء. ولم ما اقتديتم بعلماء الآخرة المتخلفين بشراشرهم عن الدنيا وحطامها؟ وإنكار وجود مثلهم، والقدح في الكل مع كثرتهم في أقطار الأرض غاية اللجاج والعناد. ولو سلمنا منكم ذلك، فلم ما اقتديتم يطوائف الأنبياء والأوصياء، مع أنهم أعلم الناس باتفاق الكل، وحقيقة العلم ليس إلا عندهم؟ فإن أنكروا أعلميتهم وعصمتهم من المعاصي، واحتملوا كونهم أمثالا لهم، ظهر ما في بواطنهم من الكفر الخفي.

وأما موافقة الأقران، فعلاجه أن يتذكر إن الله يسخط عليه ويبغضه إذا اختار رضا المخلوقين على رضاه، وكيف يرضى المؤمن أن يترك رضا ربه لرضا بعض أرذال الناس؟ وهل هذا إلا كونه تعالى أهون عنده منهم؟ وهو ينافي الإيمان.

وأما استشعاره من رجل أنه يقبح عند محتشم حاله أو يشهد عليه بشهادة فيبادره بالغيبة إسقاطا لأثر كلامه، فعلاجه أن يعلم: (أولا) إن مجرد الاستشعار لا يستلزم الوقوع، فلعله لا يقبح حاله ولا يشهد عليه،

فالمؤاخذة بمحض التوهم تنافي الديانة والإيمان. و (ثانيا) إن اقتضاء قوله سقوط أثر كلام من اغتابه في حقه مجرد توهم، والتعرض لمقت الله يقينا بمجرد توهم ترتب فائدة دنيوية عليه محض الجهل والحماقة. و (ثالثا) أن تؤدي فعل الغير - أعني تقبيح حاله عند محتشم مع فرض وقوعه - إلى إضراره في حيز الشك، إذ ربما لم تقبل شهادته شرعا، فتقبيح حاله وتحمل معاصيه بدون الجزم بصيرورته سببا لإيذائه محض الجهل والخذلان.
وأما الرحمة له على إثمه والتعجب منه والغضب لله عليه، وإن كان كل منها حسنا، إلا أنه إذا لم تكن معه غيبة، وأما إذا كانت معه غيبة، أحبط أجره وبقي إثمها. فالعلاج أن يتأمل أن باعث الرحمة والتعجب والغضب هو الإيمان وحماية الدين، وإذا كان معها غيبة أضرت بالدين والإيمان، وليس شئ من الأمور الثلاث ملزوما للغيبة لإمكان تحققه بدونها فمقتضى الإيمان وحماية الدين أن يترحم ويتعجب ويغضب لله، مع ترك الغيبة وإظهار الإثم والعيب، ليكون مأجورا غير آثم.

فصل

مسوغات الغيبة

لما عرفت أن الغيبة ذكر الغير بما يكرهه لو سمعه، فاعلم أن ذلك إنما يحرم إذا قصد به هتك عرضه، والتفكه به، أو إضحاك الناس منه. وأما إذا كان ذلك لغرض صحيح لا يمكن التوصل إليه إلا به، فلا يحرم.
والأغراض الصحيحة المرخصة له أمور:
الأول - التظلم عند من له رتبة الحكم وإحقاق الحقوق، كالقضاة والمفتين والسلاطين، فإن نسبة الظلم والسوء إلى الغير عندهم لاستيفاء الحق جائز، لقول النبي (ص): " لصاحب الحق مقال "، وقوله (ص): " لي الواجد يحل عرضه وعقوبته ". وعدم إنكاره (ص) على قول هند بحضرته: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني إياي وولدي، أفآخذ من غير علمه؟ وقوله - صلى الله عليه وآله - لها: " خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف ".
الثاني - الاستعانة على رفع المنكر ورد المعاصي إلى الصلاح، وإنما

يستباح بها ذكر مساءته بالقصد الصحيح لا بدونه.
الثالث - نصح المستشير في التزويج، وإيداع الأمانة، وأمثالهما.
كذلك جرح الشاهد والمفتي والقاضي إذا سئل عنهم، فله أن يذكر ما يعرفه من عدم العدالة والأهلية للافتاء والقضاء، بشرط صحة القصد واردة الهداية وعدم باعث حسد أو تلبيس من الشيطان، وكذلك توفي المسلمين من الشر والضرر أو سراية الفسق والبدعة، فإن من رأى عالما أو غيره من المؤمنين يتردد إلى ذي شر أو فاسق أو مبتدع، وخاف أن يتضرر ويتعدى إليه الفسق والبدعة بمصاحبته، يجوز له أن يكشف له ما يعرفه من شره وفسقه وبدعته، بشرط كون الباعث مجرد خوف وصول الشر والفساد أو سراية الفسق والبدعة إليه. قال رسول الله (ص): " أترعوون عن ذكر الفاجر حتى لا يعرفه الناس؟ أذكروه بما فيه يحذره الناس ". ومن جملة ما يدخل في تحذير المسلمين وتوقيعهم من الشر والضرر، وإظهار عيب يعلمه في مبيع، وإن كره البايع، حفظا للمشتري من الضرر. مثل أن يشتري عبدا، وقد عرفه بالسرقة أو الفسق أو عيب آخر، أو فرسا، وقد عرفه بكونه مال الغير، فله أن يظهر ذلك، لاستلزام سكوته ضررا على المشتري.
الرابع - رد من ادعى نسبا ليس له.
الخامس - القدح في مقالة أو دعوى باطلة في الدين.
السادس - الشهادة على فاعل المحرم حسبة.
السابع - ضرورة التعريف، فإنه إذا كان أحد معروفا بلقب يعرب عن عيب، وتوقف تعريفه عليه، ولم يكن أثم في ذكره، بشرط عدم إمكان التعريف بعبارة أخرى، لفعل الرواة والعلماء في الأعصار والأمصار فإنهم يقولون: روى الأعمش والأعرج وغير ذلك، لأن الغالب صيرورته بحيث لا يكرهه صاحبه.
الثامن - كون المقول فيه مستحقا للاستخفاف، لتظاهره وتجاهره بفسق، كالظلم والزنا وشرب الخمر وغير ذلك، بشرط عدم التعدي عما يتظاهر به، إذ لو ذكره بغير ما يتظاهر به لكان آثما، وأما إذا ذكر منه

مجرد ما يتجاهر به فلا إثم عليه، إذ صاحبه لا يستنكف من ذكره، وربما يتفاخر به ويقصد إظهاره. ومع قطع النظر عن ذلك، فالأخبار دالة عليه، كما تقدم جملة منها. وقال رسول الله (ص): " من ألقى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له ". وقال (ص): " ليس لفاسق غيبة ".
والظاهر أن ذكر ما يتجاهر به من العيوب ليس غيبة، لا شرعا ولا لغة، لا أنه غيبة استثنى جوازها شرعا، قال الجوهري: " الغيبة أن يتكلم خلف إنسان مستور بما يغمه لو سمعه، فإن كان صدقا سمي غيبة، وإن كان كذبا سمي بهتانا ".
هذا وقد صرح جماعة بجواز الغيبة في موضعين آخرين: أحدهما: أن يكون اثنان أو أكثر مطلعين على عيب رجل، فيقع تحاكيه بينهم من غير أن يظهروه لغيرهم ممن لم يطلع عليه، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة على جوازه، كما لا يخفى. وثانيهما: أن يكون متعلقها - أعني المقول فيه - غير محصور، كأن يقال: " قال قوم كذا، أو أهل البلد الفلاني كذا ". ومثله إذا قال: " بعض الناس يقول أو يفعل كذا، أو من مر بنا اليوم شأنه كذا "، إذا لم يتعين البعض والمال عند المخاطب، ولو انتقل إلى شخص معين لقيام بعض القرائن، كانت غيبة محرمة، وكذا لو قال: " بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعي العلم "، إن كان معه قرينة يفهم عين الشخص فهو غيبة وإلا فلا. وكذا ذكر مصنف في كتابه فاضلا معينا، وتهجين كلامه بلا اقتران شئ من الأعذار المحوجة إلى ذكره غيبة، وأما لو ذكره بدون تعيينه، كأن يقول: " ومن الفضلاء من صدر عنه في المقام هفوة أو عثرة " فليس غيبة، ثم السر في اشتراط الغيبة بكونه تعريضا لشخص معين وعدم كون التعرض بالمبهم وغير المحصور غيبة، عدم حصول الكراهة مع الإبهام وعدم الانحصار، كما لا يخفى. وربما كان في بعض الأخبار أيضا إشعار به، وقد كان رسول الله (ص) إذا كره من إنسان شيئا يقول: " ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا " من دون تعيين للفاعل.
ج: ٢

تذنيب

كفارة الغيبة

كفارة الغيبة - بعد التوبة والندم للخروج عن حق الله - أن يخرج من حق من اغتابه. وطريق الخروج من حقه، إن كان ميتا أو غائبا لم يمكن الوصول إليه، أن يكثر له من الاستغفار والدعاء، ليحسب ذلك يوم القيامة من حسناته ويقابل بها سيئة الغيبة، وإن كان حيا يمكن الوصول إليه ولم تبلغ إليه الغيبة، وكان في بلوغها إليه مظنة العداوة والفتنة، فليكثر له أيضا من الدعاء والاستغفار، من دون أن يخبره بها، وإن بلغت إليه أو لم تبلغه، ولم يكن في بلوغها ظن الفتنة والعداوة، فليستحله معتذرا متأسفا مبالغا في الثناء عليه والتودد إليه، وليواظب على ذلك حتى يطيب قلبه ويحله فإن لم يطب قلبه من ذلك ولم يحله، كان اعتذاره وتودده حسنة يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة.

والدليل على هذا التفصيل قول الصادق (ع): " وإن اغتبت فبلغ المغتاب، فاستحل منه، فإن لم تبلغه لم تلحقه، فاستغفر الله " (٢٧)، وذلك لأن في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه إثارة للفتنة وجلب الضغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أو غيبة، وعلى هذا فقول النبي (ص): " كفارة من اغتبته أن تستغفر له "، محمول على صورة عدم إمكان الوصول إليه، أو إمكانه مع إيجاب الأعلام والاستحلال لإثارة الفتنة والعداوة. وقوله (ص): " من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فليتحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته "، محمول على صورة البلوغ أو عدم البلوغ، مع عدم إيجاب الإعلام والاستحلال فتنة وعداوة.

---

(٢٧) هذا جزء من الحديث المتقدم عن " مصباح الشريعة ": ٢٨٩، الباب ٤٩ فصححناه عليه.

تتميم

البهتان

قد ظهر مما تقدم أن البهتان أن تقول في مسلم ما يكرهه ولم يكن فيه، فإن كان ذلك في غيبته كان كذبا وغيبة، وإن كان بحضوره كان أشد أنواع الكذب. وعلى أي تقدير، فهو أشد إثما من الغيبة والكذب، قال الله سبحانه:

" ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا " (٢٨).

وقال رسول الله (ص): " من بهت مؤمنا أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تل من نار، حتى يخرج مما قاله فيه ". وقال الصادق (ع): " من بهت مؤمنا أو مؤمنة بما ليس فيه، بعثه الله عز وجل في طينة خبال، حتى يخرج مما قال "، قلت: وما طينة خبال؟ قال: " صديد يخرج من فروج المومسات " (٢٩). ثم ما ورد في ذم اللسان وكونه شر الأعضاء ومنع أكثر المعاصي - كما يأتي في موضعه - يدل على ذم الغيبة والبهتان، كما يدل على ذم جميع آفات اللسان مما تقدم، من الفحش، واللعن، والطعن، والسخرية، وغير ذلك، وما يأتي: من الكذب، والمزاح، والخوض في الباطل. وفضول الكلام، وغير ذلك.

وصل

المدح ومواضع حسنه وقبحه

الغيبة لما كانت راجعة إلى الذم، فضدها المدح ودفع الذم، والبهتان لما كان كذبا، فضده الصدق. وكما أن لكل واحدة من آفات اللسان مما مر ومما يأتي ضدا خاصا، فكذلك لجميعها ضد واحد عام هو الصمت - كما أشير إليه فيما سبق أيضا. وضد البهتان - أعني الصدق - يأتي

---

(٢٨) النساء، الآية: ١١١.

(٢٩) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب الغيبة والبهتان. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم البهتان في المؤمن. وعلى (المستدرك): ١٠٧، كتاب الحج، باب تحريم البهتان للمؤمن.

في مقام بيان الكذب. وأما الضد العام للكل، فقد يأتي في موضعه مع ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان، فهنا نشير إلى بيان المدح وما يحمد منه، حتى يكون ضدا لها وفضيلة للقوة الغضبية أو الشهوية، وما يذم منه حتى يكون رذيلة لإحداهما، فنقول:
لا ريب في أن مدح المؤمن في غيبته وحضوره ممدوح مندوب إليه، لكونه إدخالا للسرور عليه، وقد علم مدحه وثوابه، ولما ورد من أن رسول الله (ص) أثنى على أصحابه، وأنه قال لجماعة - لما أثنوا على بعض الموتى -: " وجبت لكم الجنة، وأنتم شهداء الله في الأرض ". ولما ورد من " أن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر أحد أخاه المسلم بخير، قالت الملائكة: ولك مثله، وإذا ذكره بسوء، قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورته، أربع على نفسك! وأحمد الله إذ ستر عورتك " ولكنه ليس راجحا مندوبا على الإطلاق، بل إذا سلم من آفاته، وهي أن يكون صدقا لا يفرط المادح فيه، بحيث ينتهي إلى الكذب، وألا يكون المادح فيه مرائيا منافقا، بأن يكون غرضه إظهار الحب مع عدم كونه محبا في الواقع سواء كان صادقا فيما ينسبه إليه من المدح أم لا، وألا يمدح الظالم والفاسق وإن كان صادقا فيما يقول في حقه، لأنه يفرح بمدحه، وإدخال الفرح على الظالم أو الفاسق غير جائز، قال رسول الله (ص): " إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ". فالظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح، وألا يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه. وهذه الآفة إنما تتطرق في المدح، بالأوصاف المطلقة والخفية، كقولك: إنه تقي ورع زاهد خير، أو قولك: إنه عدل رضي، وأمثال ذلك، لتوقف الصدق في ذلك على قيام الأدلة والخبرة الباطنة، وتحققهما في غاية الندرة. فالغالب أن المدح بأمثال ذلك يكون من غير تحقق وثبت، وألا يحدث في الممدوح كبرا أو إعجابا يوجبان هلاكه، ولا رضى عن نفسه وجب فتوره عن العمل، إذ من أطلقت الألسنة بالثناء عليه يرضى عن نفسه ويظن أنه قد أدرك، وهذا يوجب فتوره عن العمل، إذ المتشمر له إنما هو من يرى نفسه مقصرا، ولذلك قال رسول الله (ص) لرجل مدح بحضرته

رجل آخر: " ويحك! قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح " وقال (ص): " إذا مدحت أخاك في وجهه، فكأنما أمررت على حلقه الموسى ". وقال أيضا لمن مدح رجلا: " عقرت الرجل عقرك الله! ". وقال (ص): " لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف، كان خيرا له من أن يثني عليه في وجهه ".

والسر في هذه الأخبار: أن المدح يوجب الفتور عن العمل، أو الكبر أو العجب، وهو مهلك، كقطع العنق والعقر وإمرار الموسى أو السكين على الحلق، فإن سلم المدح عن الآفات المذكورة المتعلقة بالمادح والممدوح كان ممدوحا، وإلا كان مذموما. وبذلك يحصل الجمع بين ما ورد في مدحه - كما تقدم - وما ورد في ذمه.

فاللازم على المادح أن يحترز عما تقدم من الآفات المتعلقة به، وعلى الممدوح أن يحترز من آفة الكبر والعجب والفتور والرياء، بأن يعرف نفسه ويتذكر خطر الخاتمة، ولا يغفل عن دقائق الرياء، ويظهر كراهة المدح، وإليه الإشارة بقوله (ص): " أحثوا التراب في وجوه المداحين ". وبالجملة: اللازم على الممدوح ألا يتفاوت حاله بالمدح، وهذا فرع معرفة نفسه، وتذكر ما لا يعرفه المادح من عثراته. وينبغي أن يظهر أنه ليس كما عرفوه، قال بعض الصالحين لما أثنى عليه: " اللهم إن هؤلاء لا يعرفون وأنت تعرفني ". وقال أمير المؤمنين (ع) لما أثنى عليه: " اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون ".

ثم الظاهر عدم المؤاخذة والإثم بالانبساط والارتياح بالمدح، لكون النفوس مجبولة على الفرح والسرور بنسبة الكمال إليها، ولكن بشرط أن يكره من نفسه ذلك الارتياح، ويقهر نفسه ويعاتبها على ذلك، ويجتهد في إزالة ذلك عنها، إذ مقتضى العقل الفرح بوجود الكمال فيه لا بنسبته إليه، فما ينسب إليه منه إن كان موجودا فيه، فينبغي أن يكون فرحه به لا بنسبته إليه، إذ الانبساط بتصريح رجل بأنك صاحب هذا الكمال حمق وسفه. وإن لم يكن موجودا فيه، فاللازم أن يحزن ويغضب، لكونه استهزاء لا مدحا. والحاصل: أن العاقل ينبغي ألا يسر بمدح الغير ولا يحزن بذمه،

إذ من ملك ياقوتة شريفة حمراء أي ضرر عليه إذا قال رجل إنها خرزة، وإذا ملك حرزة أي فائدة له إذا قال إنها ياقوتة

ومنها:

الكذب

وهو أما في القول، أي الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، وصدوره إما عن العداوة أو الحسد أو الغضب، فيكون من رذائل قوة الغضب، أو من حب المال والطمع، أو الاعتياد الحاصل من مخالطة أهل الكذب، فيكون من رذائل قوة الشهوة.

أو في النية والإرادة، وهو عدم تمحيضها بالله، بألا يكون الله سبحانه بانفراده باعث طاعاته وحركاته، بل يمازجه شئ من حظوظ النفس. وهذا يرجع إلى الرياء، ويأتي كونه من رذائل أي قوة.

وأما في العزم، أي الجزم على الخير، وذلك بأن يعزم على شئ من الخيرات والقربات، ويكون في عزمه نوع ميل وضعف وتردد يضاد الصدق في العزيمة، وهذا أيضا من رداءة قوة الشهوة.

وأما في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، لعدم مشقة في الوعد، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا أيضا من رذائل قوة الشهوة ومن أنواع الشره.

وأما في الأعمال، وهو أن تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، أي لا يكون باطنه مثل ظاهره ولا خيرا منه. وهذا غير الرياء، لأن المرائي هو الذي يقصد غير الله تعالى في أعماله، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس بقصد به مشاهدة غيره سبحانه، ولكن قلبه غافل عن الله وعن الصلاة فمن نظر إلى ما يصدر عن ظاهره من الخشوع والاستكانة، يظن أنه بشراشره منقطع إلى جناب ربه، وحذف ما سواه عن صحيفة قلبه، وهو بكليته عنه تعالى غافل، وإلى أمر من أمور الدنيا متوجه. وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة الطمأنينة والوقار، بحيث من يراه يجزم بأنه صاحب السكينة والوقار، من أن باطنه ليس موصوفا

بذلك. فمثل ذلك كاذب في عمله، وإن لم يكن مرائيا ملتفتا إلى الخلق، ولا نجاة من هذا الكذب إلا باستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن أحسن من الظاهر. وهذا القسم من الكذب ربما كان من رذائل قوة الشهوة وربما كان من رذائل قوة الغضب، وربما كان من رداءة القوة المدركة، بأن كان باعثه مجرد الوسواس.

وأما في مقامات الدين، كالكذب في الخوف والرجاء، والزهد والتقوى والحب والتعظيم، والتوكل والتسليم، وغير ذلك من الفضائل الخلقية.

فإن لها مبادئ يطلق الاسم بظهورها، ثم لها حقائق ولوازم وغايات والصادق المحقق من نال حقائقها ولوازمها وغاياتها، فمن لم يبلغها كان كاذبا فيها.

مثلا الخوف من الله تعالى له مبدأ هو الإيمان به سبحانه، وحقيقة هو تألم.

الباطن واحتراقه، ولوازم وآثار هي اصفرار اللون وارتعاد الفرائص وتكدر العيش وتقسم الفكر وغير ذلك، وغايات هي الاجتناب عن المعاصي والسيئات والمواظبة على الطاعات والعبادات، فمن آمن بالله تعالى صدق عليه كونه خائفا يطلق عليه الاسم، إلا أنه لم تكن معه حرقة القلب وتكدر العيش والتشمر للعمل كان خوفا كاذبا، وإن كان معه ذلك كان خوفا صادقا، أي بالغا درجة الحقيقة، قال أمير المؤمنين (ع): " إياكم والكذب فإن كل راج طالب، وكل خائف هارب " (٣٠): أي لا تكذبوا في ادعائكم الرجاء والخوف من الله، وذلك لأن كل راج طالب لما يرجو ساع في أسبابه، وأنتم لستم كذلك، وكل خائف هارب مما يخاف منه، مجتنب مما يقربه منه، وأنتم لستم كذلك، وهذا مثل قوله (ع) في نهج البلاغة: " كذب والله العظيم ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله! وكل من رجا عرف رجاؤه إلا رجاء الله، فإنه مدخول، وكل خوف محقق إلا خوف الله، فإنه معلول... (٣١)

ثم الكذب في كل مقام لما كان راجعا إلى عدمه، فيكون رذيلة متعلقة

---

(٣٠) صححنا الرواية على (أصول الكافي): باب الكذب، وعلى " البحار " ٣ مج ١٥ / ٣٩، باب الكذب.

(٣١) هذا الكلام مروي في (الوافي): ٣ / ٤٠٩ باب الكذب وفي " البحار " ٣ مج ١٥ / ٣٥. وهو مروي عن (نهج البلاغة) كما صرح به العلامة المجلسي - قدس سره - في الموضع المذكور.

بالقوة التي في هذا المقام فضيلة متعلقة بها. وبما ذكر يظهر: إن من له مبدأ الإيمان، أعني الإقرار بالشهادتين، وكان فاقدا لحقيقته، أعني اليقين القطعي بالمبدأ والمعاد، أو للوازمه وغاياته، أعني الخوف الصادق منه تعالى والتعظيم الحقيقي له سبحانه والاهتمام البالغ في امتثال أوامره ونواهيه، كان كاذبا في دعوى الإيمان.

فصل

ذم الكذب

الكذب أقبح الذنوب وأفحشها، وأخبث العيوب وأشنعها، قال الله سبحانه:

" إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون " (٣٢). " فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون " (٣٣).

وقال رسول الله (ص) " إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ". وقال المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش فيلعنه حملة العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية، أهونها كمن زنى مع أمه " (٣٣). وسئل (ص) " يكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم! قيل: ويكون بخيلا؟ قال نعم! قيل ويكون كذابا؟ قال: لا! وقال (ص): " كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب ". وقال (ص): الكذب ينقص الرزق " وقال (ص) " ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم! ويل له ويل له وقال (ص) " رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي: قم، فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، وبيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، للذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب، يعذب في قبره إلى يوم القيامة ". وقال (ص) " ألا أخبركم بأكبر الكبائر: الاشراك

* (الهامش) * (٣٢) النحل، الآية: ١٠٥.

(٣) التوبة الآية: ٧٨.

(٣٤) صححنا هذين الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ١٢ الفصل ٧

بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور ": أي الكذب. وقال (ص): " إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به ". وقال صلى الله عليه وآله: " إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا. فأما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب، وأما كحله فالنوم " (٣٥) وقال روح الله لأصحابه: " من كثر كذبه ذهب بهاؤه ". وقال أمير المؤمنين (ع) " لا يجد العبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب، هزله وجده ". وقال (ع) " أعظم الخطايا عند الله اللسان والكذب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ". وقال علي بن الحسين (ع): " اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير ". وقال أبو جعفر (ع): " إن الله عز وجل جعل للشر أقفالا، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب " وقال (ع): " الكذب هو خراب الإيمان ". وقال (ع) " إن أول من يكذب الكذاب الله عز وجل، ثم الملكان اللذان معه، هو يعلم أنه كاذب ". وقال الإمام الزكي العسكري (ع): " جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب " والأخبار الواردة في ذم الكذب أكثر من أن تحصى. وأشد أنواع الكذب إثما ومعصية الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة، وكفاه ذما أنه يبطل الصوم، ويوجب القضاء والكفارة على الأقوى. قال الصادق (ع): " إن الكذبة لتفطر الصائم " قال الراوي: وأينا لا يكون ذلك منه، قال: " ليس حيث ذهبت، إنما الكذب على الله تعالى وعلى رسوله وعلى الأئمة - عليهم السلام - ". وقال (ع): " الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء - عليهم السلام - من الكبائر ". وذكر عنده (ع) الحائك، وكونه ملعونا، فقال: " إنما ذلك الذي يحوك الكذب على الله وعلى رسوله " وقال الباقر (ع): " لا تكذب علينا كذبة، فتسلب الحنيفية " (٣٦).

---

(٣٥) مثل مضمون هذه الرواية ورد في " الوسائل " في الموضع الآتي الباب ١٣٨. وفي (المستدرك) في الموضع الآتي. وفي " سفينة البحار ": ٢: ٤٧٣، وفيه اختلاف عما في نسخ (جامع السعادات) فإن الموجود بهذه الكتب بهذا النص: " إن لإبليس كحلا ولحوقا وسعوطا، فكحله النعاس، ولعوقه الكذب، وسعوطه الكبر ".

(٣٦) صححنا أكثر الأحاديث هنا على (الوسائل): الباب ١٣٨ - ١٤٠ من أبواب أحكام العشرة، وعلى " المستدرك ": ٢ / ١٠٠ - ١٠٢ وعلى (أصول الكافي): باب الكذب، وعلى (البحار): ٣ مج ١٥ / ٣٥، باب الكذب

فصل

مسوغات الكذب

الكذب حرام، لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، أو لإيجابه اعتقاد المخاطب خلاف الواقع، فيصير سببا لجهله. وهذا القسم مع كونه أهون الدرجات وأقلها إثما، محرم أيضا، إذا القاء خلاف الواقع على الغير وسببية جهله غير جائز، إلا أنه إذا كان مما يتوقف عليه تحصيل مصلحة مهمة، ولم يمكن التوصل إليها بالصدق، زالت حرمته وارتفع إثمه فإن كانت المصلحة مما يجب تحصيلها، كإنقاذ مسلم من القتل والأسر، أو حفظ عرضه أو ماله المحترم، كان الكذب فيه واجبا. وإن كانت راجحة غير بالغة حد الوجوب، فالكذب لتحصيلها مباح أو أو راجح مثلها، كالإصلاح بين الناس والغلبة على العدو في الحرب، وتطييب خاطر امرأته واسترضائها وقد وردت الأخبار المتكثرة بجواز الكذب إذا توقف عليه تحصيل هذه المقاصد الثلاثة، كما روي " إن رسول الله (ص) لم يرخص في شئ من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها " وقال (ص) " ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ". وقال (ص): " كل الكذب يكتب على ابن آدم، إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما " وقال (ص): " كل الكذب مكتوب كذبا لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها ". وقال (ص): " لا كذب على المصلح ". وقال الصادق (ع): كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوما، إلا كذبا في ثلاثة: رجل كايد في حروبه، فهو موضوع عنه. أو رجل لصلح بين اثنين يلقي هذا بغير ما يلقي به هذا، يريد بذلك الإصلاح ما بينهما. أو رجل وعد أهله شيئا وهو لا يريد أن يتم لهم ". وقال (ع): " الكلام ثلاثة: صدق وكذب، وإصلاح بين الناس "، قيل له: ما الإصلاح بين الناس؟ قال: " تسمع في الرجل كلاما يبلغه فيخبث نفسه، فتلقاه وتقول: قد

سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه (٣٧). وقد تقدمت أخبار أخر في هذا المعنى.
وهذه الأخبار وإن اختصت بالمقاصد الثلاثة، إلا أن غيرها من المقاصد الضرورية التي فوقها أو مثلها في المصلحة يلحقها من باب الأولوية أو اتحاد الطريق. والأخبار التي وردت في ذم هتك السر وكشف العيوب والفواحش تفيد وجوب القول بعدم الاطلاع، وإن كان مطلعا مع كونه كذبا، فلا إثم على أحد بصدور الكذب عنه إذا كان وسيلة إلى شئ من المقاصد الصحيحة الضرورية له أو لغيره من المسلمين، فإن أخذه ظالم وسأله عن ماله فله أن ينكر، وأخذه سلطان وسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله فله أن ينكر وإن سئل عما يعلمه عن عيب أخيه وسره فله أن ينكر ولو وقع بين اثنين فساد فله أن يكذب، توسلا إلى الإصلاح بينهما وكذا يجوز له للإصلاح بين الضرات من نسائه أن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطيعه إلا بوعد ما لا يقدر عليه، يجوز أن يعدها في الحال تطيبيا لقلبها وإن لم يكن صادقا في وعده. ويلحق بالنساء الصبيان، فإن الصبي إذا لم يرغب فيما يؤمر به من الكتابة وغيرها إلا بوعد أو وعيد وتخويف، كان ذلك جائزا، وإن لم يكن في نيته الوفاء به. وكذا لو تكدر منه إنسان، وكان لا يطيب قلبه إلا بالاعتذار إليه، بإنكار ذنب وإظهار زيادة تودد، كان ذلك جائز وإن لم يكن صدقا.
والحاصل: أن الكذب لدفع ضرر أو شر أو فساد جائز، بشرط صحة القصد. وقد ورد: أن الكذب المباح يكتسب ويحاسب عليه التصحيح قصده، فإن كان قصده صحيحا يعفى عنه، وإلا يؤاخذ به. فينبغي أن يجتهد في تصحيح قصده، وأن يحترز عنه ما لم يضطر إليه، ويقتصر فيه على حد الواجب، ولا يتعدى إلى ما يستغني عنه.
ولا ريب في أن ما يجب ويضطر إليه هو الكذب لأمور في فواتها

---

(٣٧) صححناه هذه الأخبار على (أصول الكافي): باب الكذب.
و " الوسائل ": كتاب الحج، الباب ١٤١ من أبواب العشرة، و (كنز العمال) ٢ / ١١٩.

محذور وأضرار، وليس كل الكذب لزيادة المال والجاه وغير ذلك مما يستغنى عنه، فإنه محرم قطعا، إذ فواته لا يوجب ضررا وفسادا وإعداما للموجود بل إنما يوجب فوات حظ من حظوظ النفس. وكذلك فتوى العالم بما لا يحققه وفتوى من ليس له أهلية الافتاء، إظهارا للفضل أو طلبا للجاه والمال، بل هو أشد أنواع الكذب إثما وحرمة، لأنه مع كونه كذبا لما يستغنى عنه، كذب على الله وعلى رسوله.

فالكذب إذا كان وسيلة إلى ما يستغنى عنه حرام مطلقا، وإذا كان وسيلة إلى ما لا يستغنى عنه ينبغي أن يوازن (٣٨) محذور الكذب مع محذور الصدق، فيترك أشدهما وقعا في نظر الشرع. وبيان ذلك: أن الكذب في نفسه محذور، والصدق في المواضع المذكورة يوجب محذورا، فينبغي أن يقابل أحد المحذورين بالآخر، ويوازنا بالميزان القسط، فإن كان محذور الكذب أهون من محذور الصدق فله الكذب، وإن كان محذور الصدق أهون وجب الصدق، وقد يتقابل المحذور أن بحيث يتردد فيهما، وحينئذ فالميل إلى الصدق أولى، إذ الكذب أصله الحرمة، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة، وإذا شك في كون الحاجة مهمة، لزم الرجوع إلى أصل التحريم.

تنبيه

التورية والمبالغة

كل موضع يجوز فيه الكذب، إن أمكن عدم التصريح به والعدول إلى التعريض والتورية، كان الأولى ذلك. وما قيل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، وإن فيها ما يغني الرجل عن الكذب، ليس المراد به أنه يجوز التعريض بدون حاجة واضطرار، إذ التعريض بالكذب يقوم مقام التصريح به، لأن المحذور من الكذب تفهيم الشئ على خلاف ما هو عليه في نفسه، وهذا موجود في الكذب بالمعاريض. فالمراد أن التعريض

----

(٣٨) لم يثبت لهذه الموازنة على عمومها دليل من الشرع، وكل ما ثبت منه تلك المواضع المذكورة آنفا، التي جاز فيها الكذب، وهي: الإصلاح والحرب والزوجة، وفي الحصر بالمواضع الثلاثة في الروايات المتقدمة دليل على عدم جواز الكذب في غيرها، لا سيما مثل قوله - عليه السلام -. " كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوما، إلا كذبا في ثلاثة.. " ولكن ثبت استثناء بعض المواضع كدفع الظلم، فلا يتعداها.

يجوز إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، ومست الحاجة إليه، واقتضته المصلحة في بعض الأحوال في تأديب النساء والصبيان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظلمة والأشرار في قتال الأعداء. فمن اضطر إلى الكذب في شئ من ذلك فهو جائز له، لأن نطقه فيه إنما هو على مقتضى الحق والدين، فهو في الحقيقة صادق، وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه، لصدق نيته وصحة قصده وإرادته الخير والصلاح، فمثل هذا النطق لا يكون خارجا عن حقيقة الصدق، إذ الصدق ليس مقصودا لذاته، بل للدلالة على الحق، فلا ينظر إلى قالبه وصورته، بل إلى معناه وحقيقته. نعم، ينبغي له في هذه المواضع أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا يصدق اللفظ حينئذ أيضا وإن كان متشاركا مع التصريح في تفهيم الشئ على خلاف ما هو عليه في الواقع. وقد كان رسول الله (ص) إذا توجه إلى سفر وراه بغيره، لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصدونه.

ومما يدل على جواز التعريض مع صحة النية، ما روي في الاحتجاج:
" أنه سئل الصادق (ع) عن قول الله تعالى في قصة إبراهيم (ع):
" قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " (٣٩).
قال: ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم. قيل: كيف ذلك؟ فقال:
إنما قال إبراهيم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، أي إن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئا، فما نطقوا وما كذب إبراهيم (ع)،
" وسئل عن قوله تعالى:
" أيتها العير إنكم لسارقون " (٤٠).
قال: إنهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى أنه قال لهم حين قالوا: ماذا تفقدون؟ قالوا: تفقد صواع الملك، ولم يقولوا: سرقتم صواع الملك. إنما سرقوا يوسف من أبيه ". " وسئل عن قول إبراهيم:
" فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم " (٤١).

---

(٣٩) الأنبياء، الآية: ٦٣
(٤٠) يوسف، الآية: ٧٠
(٤١) الصافات، الآية: ٨٨، ٨٩

قال: ما كان إبراهيم سقيما، وما كذب، إنما عني سقيما في دينه، أي مرتادا ".

وطريق التعريض والتورية: أن يخبر المتكلم المخاطب بلفظ ذي احتمالين أحدهما غير مطابق للواقع وأظهر في المقام، فيحمله المخاطب عليه، وثانيهما مطابق له يريده المتكلم، كما ظهر من خبر الاحتجاج. ومن أمثلته: أنه إذا طلبك ظالم وأنت في دارك ولا تريد الخروج إليه، أن تقول لأحد أن يضع إصبعه في موضع ويقول: ليس ههنا. وإذا بلغ عنك شئ إلى رجل، وأردت تطييب قلبه من غير أن تكذب، تقول له: إن الله ليعلم ما قلت من ذلك من شئ، على أن يكون لفظة (ما) عندك للابهام، وعند المستمع للنفي.

وقد ظهر مما ذكر: إن كل تعريض لغرض باطل كالتصريح في عدم الجواز، لأن فيه تقريرا للغير على ظن كاذب. نعم، قد تباح المعاريض لغرض خفيف، كتطييب قلب الغير بالمزاح، كقول النبي (ص): " لا تدخل الجنة عجوز " و " في عين زوجك بياض " و " نحملك على ولد بعير "... وقس عليه أمثال ذلك.

ومن الكذب الذي يجوز ولا يوجب الفسق، ما جرت به العادة في المبالغة، كقولك: قلت لك كذا مائة مرة، وطلبتك مائة مرة، وأمثال ذلك لأنه لإيراد بذلك تفهيم المرات بعددها، بل تفهيم المبالغة. فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا، وإن طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم، وإن لم تبلغ مائة.

ومن الكذب الذي لا إثم عليه ما يكون في أنواع المجاز والاستعارات والتشبيهات، إذ الغرض تفهيم نوع من المناسبة والمبالغة، لا دعوى الحقيقة والمساواة من جميع الجهات.

ومن الكذب الذي جرت العادة به، ويتساهل فيه، قول الرجل إذا قيل له: كل الطعام: (لا أشتهيه)، مع كونه مشتهيا له. وهذا منهي عنه كما تدل عليه بعض الأخبار، إلا إذا كان فيه غرض صحيح، وما جرت العادة به قول الرجل: (الله يعلم) فيما لا يعلمه، وهو أشد أنواع الكذب، قال عيسى (ع): " إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد:

إن الله يعلم لما لا يعلم ". ومن الكذب الذي عظم ذنبه ويتساهل فيه، الكذب في حكاية المنام، قال رسول الله (ص): " إن من أعظم الفرية أن يدعي الرجل إلى غير أبيه، أو يرى عينيه في المنام ما لم ير، أو يقول على ما لم أقل ". وقال (ص): " من كذب في حلم، كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين ".

تذنيب

شهادة الزور، اليمين الكاذب، خلف الوعد

من أنواع الكذب وأفحشها: شهادة الزور، واليمين الكاذب، وخلف الوعد.

ويدل على ذم الأول قوله تعالى في صفة المؤمنين:

" والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما " (٤٢).

وقول النبي (ص): " شاهد الزور كعابد الوثن ".

وعلى ذم الثاني قول النبي (ص): " والتجار هم الفجار! "

فقيل: يا رسول الله، أليس الله قد أحل البيع؟ فقال: " نعم! ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون ". وقوله (ص): " ثلاث نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم: المنان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره ". وقوله (ص): " ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة، إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة ". وقوله (ص): " ثلاث يشنأهم الله: التاجر أو البايع الحلاف، والفقير المختال والبخيل المنان ".

وعلى ذم الثالث قول النبي (ص): " من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليف إذا وعد ". وقول الصادق (ع): " عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله تعالى بدأ ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (٤٣).

---

(٤٢) الفرقان، الآية: ٧٢

(٤٣) الصف الآية: ٢ - ٣

وقال رسول الله (ص): " أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق، حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر ". فمن وعد وكان عند الوعد عازما على ألا يفي، أو كان عازما على الوفاء وتركه بدون عذر فهو منافق. وأما إن عن له عذر من الوفاء، لم يكن منافقا وآثما.
وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، فالأولى أن يحترز عن صورة النفاق أيضا كما يحترز عن حقيقته، وذلك بألا يجزم في الوعد، بل يعلقه على المشية ومثلها.

إيقاظ

علاج الكذب

طريق معالجة الكذب: أولا: أن يتأمل في ما ورد في ذمه من الآيات والأخبار، ليعلم أنه لو لم يتركه لأدركه الهلاك الأبدي. ثم يتذكر أن كل كاذب ساقط عن القلوب في الدنيا ولا يعتني أحد بقوله، وكثيرا ما يفتضح عند الناس بظهور كذبه. ومن أسباب افتضاحه أن الله سبحانه يسلط عليه النسيان، حتى أنه لو قال شيئا ينسى أنه قاله، فيقول خلاف ما قاله، فيفتضح. وإلى ذلك أشار الصادق (ع) بقوله: " إن مما أعان الله به على الكذابين النسيان ". ثم يتأمل في الآيات والأخبار الواردة في مدح ضده، أعني الصدق كما يأتي، وبعد ذلك إن لم يكن عدوا لنفسه، فليقدم التروي في كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن كان كذبا يتركه وليجتنب مجالسة الفساق وأهل الكذب، ويجالس الصلحاء وأهل الصدق.

وصل

الصدق ومدحه

ضد الكذب، وهو أشرف الصفات المرضية، ورئيس الفضائل النفسية، وما ورد في مدحه وعظم فائدته من الآيات والأخبار مما لا يمكن إحصاؤه، قال الله سبحانه:
" رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " (٤٤). وقال: " اتقوا الله وكونوا

----

(٤٤) الأحزاب، الآية ٢٣

مع الصادقين " (٤٥). وقال: " الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار " (٤٦). وقال سبحانه: " إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون " (٤٧).
وقال عز وجل: " ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر. ثم قال: والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا " (٤٨).
وقال رسول الله (ص) " تقبلوا إلي بست أتقبل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم ". وعن الصادقين - عليهما السلام -: " إن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقا ". وعن الصادق (ع) قال: " كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع ". وعنه (ع): " من صدق لسانه زكي عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مد له في عمره ". وعنه (ع) قال: " لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شئ اعتاده، ولو تركه لاستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته ". وقال (ص) لبعض أصحابه: " انظر إلى ما بلغ به علي (ع) عند رسول الله (ص) فالزمه، فإن عليا (ع) إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الأمانة ". وعنه (ع) قال: " إن الله لم يبعث نبيا إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر " (٤٩). وقال (ع): " أربع من كن فيه كمل إيمانه ولو كان ما بين قرنه إلى قدمه ذنوب لم ينقصه ذلك - قال -: هي الصدق، وأداء الأمانة، والحياء، وحسن الخلق ".
وقد وردت بهذه المضامين أخبار كثيرة أخر. ومن أنواع الصدق الصدق في

---

(٤٥) التوبة، الآية: ١٢٠
(٤٦) آل عمران الآية ١٧
(٤٧) الحجرات، الآية ١٥
(٤٨) البقرة الآية ١٧٧
(٤٩) صححنا أغلب الأحاديث على " أصول الكافي ": باب الصدق وأداء الأمانة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب وجوب الصدق وعلى " المستدرك " ٢ / ٨٤ - ٨٩

الشهادة، وهو ضد شهادة الزور والصدق في اليمين، وهو ضد الكذب فيه، والوفاء بالعهد، وهو ضد خلف الوعد، وهذا القسم من الصدق، أعني الوفاء بالعهد، أفضل أنواع الصدق القولي وأحبها، ولذا أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل به، وقال:
" إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا " (٥٠).
قيل: إنه واعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه، فبقي اثنين وعشرين يوما في انتظاره. وروي: " أنه بايع رجل رسول الله (ص) ووعده أن يأتيه من مكانه ذلك، فنسي وعده في يومه وغده، وأتاه في اليوم الثالث وهو في مكانه ". وقال رسول الله: " العدة دين ". وقال (ص): " الوأي - أي الوعد - مثل الدين أو أفضل ".

تكميل

أقسام الصدق

الصدق كالكذب له أنواع ستة:
الأول - الصدق في القول، وهو الإخبار عن الأشياء على ما هي عليه، وكمال هذا النوع بترك المعاريض من دون ضرورة، حذرا من تفهيم الخلاف وكسب القلب صورة كاذبة، ورعاية معناه في ألفاظه التي يناجي بها الله سبحانه، فمن قال: " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض " وفي قلبه سواه، أو قال: " إياك نعبد " وهو يعبد الدنيا بتقيد قلبه بها إذ كل من تقيد قلبه بشئ فهو عبد له، كما دلت عليه الأخبار، فهو كاذب
الثاني - الصدق في النية والإرادة، ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو تمحيض النية وتخليصها لله، بألا يكون له باعث في طاعاته، بل في جميع حركاته وسكناته، إلا الله. فالشوب يبطله ويكذب صاحبه.
الثالث - الصدق في العزم أي الجزم على الخير: فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، ويقول في نفسه: إن رزقني الله كذا تصدقت منه كذا، وإن خلصني الله من تلك البلية فعلت كذا. فإن كان في باطنه جاز ما على هذا العزم، مصمما على العمل بمقتضاه، فعزمه صادق وإن كان في

----

(٥٠) مريم، الآية ٥٤

عزمه نوع ميل وضعف وتردد، كان عزمه كاذبا، إذ التردد في العزيمة يضاد الصدق فيها، وكان الصدق هنا بمعنى القوة والتمامية، كما يقال: لفلان شهوة صادقة، أي قوة تامة، أو شهوة كاذبة، أي ناقصة ضعيفة.

الرابع - الصدق في الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد، فإذا حان حين العمل بمقتضاه، هاجت الشهوات وتعارضت مع باعث الدين، وربما غلبته بحيث انحلت العزيمة ونم يتفق الوفاء بمتعلق الوعد، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله سبحانه: " رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " (١).

الخامس - الصدق في الأعمال: وهو تطابق الباطن والظاهر، واستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن خيرا من الظاهر، بألا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، بل بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا أعلى مراتب الإخلاص، لإمكان تحقق نوع من الإخلاص بما دون ذلك، وهو أن يخالف الباطن الظاهر من دون قصد، فإن ذلك ليس رياء. فلا يمتنع صدق اسم الإخلاص عليه.

توضيح ذلك: إن الرياء هو أن تقصد غير الله سبحانه في الأعمال، وقد تصدر عن إنسان أعمال ظاهرة تدل على أنه صاحب فضيلة باطنة، من التوجه إلى الله والأنس به، أو السكينة والوقار، أو التسليم والرضا وغير ذلك، مع أنه فاقد لها، لحصول الغلبة المانعة عن تحققها، أو اتفاق صدور الأعمال الظاهرة بهذه الهيئة من دون أن يقصد بها مشاهدة غيره سبحانه، فهذا غير صادق في عمله، كاذب في دلالة الظاهر على الباطن. وإن لم يكن مرائيا ولا ملتفتا إلى الخلق، فإذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت من قصد سميت رياء، ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت من غير قصد سميت كذبا ويفوت بها الصدق، وربما لم يفت بها بعض مراتب الإخلاص. وهذا النوع من الصدق - أعني مساواة السر والعلانية أو كونه خيرا منها - أعز من الأنواع السابقة عليه، ولذلك كرر طلبه من الله سيد الرسل (ص) في دعواته بقوله: " اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي، واجعل علانيتي

---

(١) الأحزاب، الآية ٢٣

صالحة ". وورد: " أنه إذا ساوت سريرة المؤمن علانيته، باهى الله به الملائكة، يقول: هذا عبدي حقا! ". وكان بعض الأكابر يقول: " من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنار؟ ". ولنعم ما قيل:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى * فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
وإن خالف الإعلان سرا فما له * على سعيه فضل سوى الكد والعنا
كما خالص الدينار في السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضي المنى

ومن جملة هذا الصدق: موافقة القول والفعل، فلا يقول ما لا يفعل و لا يأمر بما لا يعمل. فمن وعظ ولم يتعظ في نفسه كان كاذبا. ومن هنا قال أمير المؤمنين (ع): " إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها ".

السادس - الصدق في مقامات الدين: من الصبر، والشكر، والتوكل، والحب، والرجاء، والخوف، والزهد، والتعظيم، والرضا والتسليم، وغير ذلك. وهو أعلى درجات الصدق وأعزها، فمن اتصف بحقائق هذه المقامات ولوازمها وآثارها وغاياتها فهو الصديق الحق، ومن كان له فيها ما يطلق عليه الاسم دون اتصافه بحقائقها وآثارها وغاياتها فهو كاذب فيها. أما ترى أن من خاف سلطانا أو غيره كيف يصفر لونه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتنغص عليه عيشه ويتفرق عليه فكره وترتعد فرائصه وتتزلزل أركانه وجوانبه؟ وقد ينزح عن وطنه ويفترق عن أهله وولده، فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة، فيعترض للأخطار ويختار مشقة الأسفار، كل ذلك من درك المحذور. فمثل هذا الخوف هو الخوف الصادق المحقق. ثم إن من يدعي الخوف من الله أو من النار، ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند إرادة المعصية وصدورها عنه، فخوفه خوف كاذب. قال النبي (ص): " لم أر مثل النار نام هاربها، ولم أر مثل الجنة نام طالبها ".

ثم لا غاية لهذه المقدمات حتى يمكن لأحد أن ينال غايتها، بل لكل عبد منها حظ بحسب حاله ومرتبته، فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه غير متناهية، فلذلك لما رأى (ص) جبرئيل على صورته الأصلية، خر مغشيا

عليه، وقال - بعد عودته إلى صورته الأولى وإفاقته -: " ما ظننت أحدا من خلق الله هكذا! قال له: فكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش على كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع! ": أي كالعصفور الصغير. وقال (ص): " مررت ليلة أسري بي - أنا وجبرئيل - بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله ": أي كالكساء الذي يلقى على ظهر البعير.

فأنظر إلى أعاظم الملائكة والنبيين، كيف تصير حالهم من شدة الخشية والتعظيم، وهذا إنما هو لقوة معرفتهم الله وجلاله، وفرق ما لم يدركوه من عظمته وقدرته مراتب غير متناهية. فاختلاف الناس في مراتب الخوف والتعظيم والحب والأنس إنما هو بحسب اختلافهم في معرفة الله، وليس يمكن أن يوجد من بلغ غايتها، فاختلاف الناس إنما هو في القدر الذي يمكن أن يبلغ إليه، والبلوغ إليه في الجميع أيضا نادر، فالصادق في جميع المقامات عزيزا جدا.

ومن علامات هذا الصدق: كتمان المصائب والطاعات جميعا، وكراهة اطلاع الخلق عليها. وقد روي: " أن الله تعالى أوحى إلى موسى (ع): أني إذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوى لها الجبال، لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا، وإن وجدته جزوعا يشكوني إلى خلقي خذلته ولم أبال ". وقال الصادق (ع): " إذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب، فانظر في صدق معناك وعقد دعواك، وغيرهما بقسطاط من الله عز وجل كأنك في القيامة، قال الله عز وجل: " والوزن يومئذ الحق " (٢).

فإذا اعتدل معناك بغور دعواك ثبت لك الصدق. وأدنى حد الصدق ألا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه، إن لم ينزع فماذا يصنع " (٣).

---

(٢) الأعراف، الآية: ٧

(٣) هذا الحديث في " مصباح الشريعة ": الباب ٧٥ فصححناه عليه

تنبيه

اللسان أضر الجوارح

إعلم أن أكثر ما تقدم من الرذائل المذكورة في هذا المقام: من الكذب والغيبة، والبهتان، والشماتة، والسخرية، والمزاح وغيرها، وفي المقام الثالث - أعني التكلم بما لا يعني والفضول والخوض في الباطل - من آفات اللسان وهو أضر الجوارح بالانسان، وأعظمها إهلاكا له، وآفاته أكثر من آفات سائر الأعضاء، وهي وإن كانت من المعاصي الظاهرة، إلا أنها تؤدي إلى مساوئ الأخلاق والملكات. إذ الأخلاق إنما ترسخ في النفس بتكرير الأعمال، والأعمال إنما تصدر من القلب بتوسط الجوارح، وكل جارحة تصلح لأن تصدر منها الأعمال الحسنة الجالبة للأخلاق الجميلة، وأن تصدر منها الأعمال القبيحة المورثة للأخلاق السيئة، فلا بد من مراعاة القلب والجوارح معا بصرفهما إلى الخيرات ومنعهما من الشرور. وعمدة ما تصدر منه الذمائم الظاهرة المؤدية إلى الرذائل الباطنية هو اللسان، وهو أعظم آفة للشيطان في استغواء نوع الإنسان، فمراقبته أهم، ومحافظته أوجب وألزم. والسر فيه - كما قيل -: إنه من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه وإن كان صغيرا جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يتبين الإيمان والكفر إلا بشهادته، ولا يهتدي إلى شئ من أمور النشأتين إلا بدلالته، وما من موجود أو معدوم إلا وهو يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، إذ كل ما يتناوله العلم يعبر عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شئ إلا والعلم يتناوله.

وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، إذ العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان وسيع الجولان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى ولا حد، فله في الخير مجال رحب، وفي الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وإهماله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وأوقعه في أودية الضلالة والخذلان، وساقه الله شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى الهلاك والبوار، ولذلك قال سيد

الرسل (ص): " هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ " (٤). فلا ينجى من شر اللسان إلا أن يقيد بلجام الشرع، ولا يطلق إلا فيما ينفع في الدنيا والآخرة، ويكف عن كل ما يخشى غائلته في العاجلة والآجلة، وعلم ما يحمد إطلاق اللسان فيه أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وهو أعصى الأعضاء على الإنسان، إذ لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في إطلاقه، فلا يجوز التساهل في الاحتراز عن آفاته وغوائله، وفي الحذر عن مصائده وحبائله.

والآيات والأخبار الواردة في ذمه وفي كثرة آفاته وفي الأمر بمحافظته والتحذير عنه كثيرة، وهي بعمومها تدل على ذم جميع آفاته مما ممر ومما يأتي. قال الله سبحانه:

" ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " (٥). وقال: " لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس " (٦).

وقال رسول الله (ص): " من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه، أتكفل له بالجنة ". وقال (ص): " من وقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه، فقد وقي " (٧): والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، والقلق: اللسان. وقيل له (ص): " ما النجاة؟ قال: أملك عليك لسانك ".

وقال (ص): " أكبر ما يدخل الناس النار إلا جوفان: الفم، والفرج "، والمراد بالفم: اللسان. وقال (ص): " وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ ". وقال له رجل: " ما أخوف ما يخاف علي؟ فأخذ بلسانه، وقال: هذا ". وقال (ص): " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ". وقال (ص): " إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا " (٨).

---

(٤) رواه في " أصول الكافي ": باب الصمت وحفظ اللسان، فصححناه عليه

(٥) ق، الآية: ١٨.

(٦) النساء، الآية: ١١٣

(٧) تقدم هذا الحديث في ٢ / ٤

(٨) صححناه الحديث على " كنز العمال ": ٢ / ١١١

" وقال له رجل: أوصني! فقال (ص): أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله - وأشار بيده إلى لسانه ". وقال (ص): " إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله امرؤ على ما يقول ". وقال (ص): " من لم يحسب كلامه من عمله، كثرت خطاياه وحضر عذابه ". وقال (ص): " يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذبه به شيئا من الجوارح، فيقول: أي رب! عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئا من الجوارح. فيقال له: خرجت منك كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسفك بها الدم الحرام، وانتهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام. وعزتي وجلالي! لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئا من جوارحك! ". وقال (ص): " إن كان في شئ شوم ففي اللسان ".
وقال أمير المؤمنين (ع) لرجل يتكلم بفضول الكلام: " يا هذا! إنك تملي على حافظيك كتابا إلى ربك، فتكلم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك " (٩).
وقال أمير المؤمنين (ع): " المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك، واعرضه على العقل والمعرفة، فإن كان لله وفي الله فتكلم، وإن كان غير ذلك فالسكوت خير منه، وليس على الجوارح عبادة أخف مؤنة وأفضل منزلة وأعظم قدرا عند الله كلام فيه رضى الله عز وجل ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده، ألا إن الله لم يجعل فيما بينه وبين رسله معنى يكشف ما أسر إليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والأمم، فثبت بهذا أنه أفضل الوسائل (والكلف والعبادة) (١٠).
وكذلك لا معصية أثقل على العبد وأسرع عقوبة عند الله وأشدها ملامة وأعجلها سآمة عند الخلق منه، واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب، وبه ينكشف ما في سر الباطن، وعليه يحاسب الخلق يوم القيامة، والكلام خمر يسكر العقول ما كان منه لغير الله، وليس شئ أحق بطول السجن من اللسان " (١١). وقال السجاد (ع): " إن لسان ابن آدم يشرف في

---

(٩) صححنا الأحاديث الأربعة على " أصول الكافي ": باب الصمت وحفظ اللسان وعلى (الوافي): ٢ / ٣٤٠ وعلى (البحار) ٢ مج ١٥ / ١٨٨، ١٨٩ باب السكوت والصمت
(١٠) وفي نسخ " جامع السعادات ": " وألطف العبادات "
(١١) صححنا الحديث على " مصباح الشريعة ": الباب ٤٦

كل يوم على جوارحه كل صباح، فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون بخير إن تركتنا! ويقولون: الله الله فينا! ويناشدونه ويقولون: إنما نثاب ونعاقب بك ". وقال الصادق (ع): " ما من يوم إلا وكل عضو من أعضاء الجسد يكفر اللسان، يقول: نشدتك الله أن نعذب فيك! " (١٢).

تتميم

الصمت

لما علمت كون اللسان شر الأعضاء وكثرة آفاته وذمه، فاعلم أنه لا نجاة من خطره إلا بالصمت، وقد أشير فيما سبق: أن الصمت ضد لجميع آفات اللسان، وبالمواظبة عليه تزول كلها، وهو من فضائل قوة الغضب أو الشهوة، وفضيلته عظيمة وفوائده جسيمه، فإن فيه جمع ألهم، ودوام الوقار، والفراغ للعبادة والفكر والذكر، وللسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسناته في الآخرة، ولذا مدحه الشرع وحث عليه، قال رسول الله (ص): " من صمت نجا ". وقال: " الصمت حكم، وقليل فاعله ". وقال (ص): من كف لسانه ستر الله عورته ". وقال (ص): " ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق ". وقال (ص): " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو وليسكت ". وقال (ص): " رحم الله عبدا تكلم خيرا فغنم، أو سكت عن سوء فسلم ". وجاء إليه (ص) أعرابي وقال: " دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: أطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وإنه عن المنكر، فإن لم تطق، فكف لسانك إلا من خير ". وقال (ص): " أخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان " وقال (ص): " إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فأدنوا منه، فإنه يلقن الحكمة ". وقال صلى الله عليه وآله: " الناس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب، فالغانم: الذي يذكر الله، والسالم: الساكت، والشاحب: الذي يخوض في الباطل ". وقال (ص): " إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره ثم أمضاه بلسانه. وإن لسان المنافق أمام قلبه،

---

(١٢) الحديثان الأخيران مرويان في " الكافي ": ج ٢ باب الصمت.
قال في (الوافي) ٢ / ٣٤٠: " يكفر اللسان: أي يذل ويخضع، والتفكير: هو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريبا من الركوع "

فإذا هم بشئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه ". وقال (ص): " أمسك لسانك، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك ".. ثم قال: " ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه ". وقال (ص) لرجل أتاه: " ألا أدلك على أمر يدخلك الله به الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله! قال: أنل مما أنالك الله! قال: فإن كنت أحوج ممن أنيله؟ قال: فانصر المظلوم. قال: فإن كنت أضعف ممن أنصره، قال: فاصنع للأخرق - يعني أشر عليه -. قال: فإن كنت أخرق ممن أصنع له. قال: فاصمت لسانك إلا من خير، أما يسرك أن تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرك إلى الجنة؟ ". وقال (ص): " نجاة المؤمن حفظ لسانه ". وجاء رجل إليه (ص): " يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. ويحك! وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ ".

وقيل لعيسى بن مريم (ع): " دلنا على عمل ندخل به الجنة. قال: لا تنطقوا أبدا. قالوا: لا نستطيع ذلك. قال: فلا تنطقوا إلا بخير ". وقال (ع) أيضا: " العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار عن الناس ". وقال: " لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون ". وقال لقمان لابنه: " يا بني، إن كنت زعمت أن الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب ".

وقال أبو جعفر الباقر (ع): " كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم، إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك ". وقال (ع): " إنما شيعتنا الخرس ". وقال الصادق عليه السلام لمولى له يقال له (سالم) - بعد أن وضع يده على شفتيه -: " يا سالم، احفظ لسانك تسلم، ولا تحمل الناس على رقابنا ". وقال عليه السلام: " في حكمة آل داود: على العاقل أن يكون عارفا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظا للسانه ". وقال (ع): " لا يزال العبد المؤمن

يكتب محسنا ما دام ساكنا، فإذا تكلم كتب محسنا أو مسيئا ". وقال عليه السلام: " النوم راحة للجسد، والنطق راحة للروح، والسكوت راحة للعقل ". وقال (ع): " الصمت كنز وافر، وزين الحليم، وستر الجاهل ". وقال أبو الحسن الرضا (ع): " إحفظ لسانك تعز، ولا تمكن الناس من قيادك فتذل رقبتك ". وقال (ع): " من علامات الفقه: الحلم، والعلم، والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير ". وقال (ع): " كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك بعشر سنين " (١٣).

وفي (مصباح الشريعة) عن مولانا الصادق (ع) قال: " الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق وجف القلم به، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضا الرب، وتخفيف الحساب والصون من الخطايا والزلل وقد جعله الله سترا على الجاهل وزينا للعالم، ومعه ومعه عزل الهوى، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروة والظرف. فأغلق باب لسانك عما لك منه بد، لا سيما إذا لم تجد أهلا للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله. وكان ربيع بن خيثم يضع قرطاسا بين يديه، فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه عشية، ما له وما عليه، ويقول: آه آه! نجا الصامتون وبقينا. وكان بعض أصحاب رسول الله (ص) يضع الحصاة في فمه، فإذا أراد أن يتكلم بما علم أنه لله وفي الله ولوجه الله أخرجها. وإن كثيرا من الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يتنفسون تنفس الغرقى، ويتكلمون شبه المرضى. وإنما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت. فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وهوائه، وعلم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت ومن أشرف على ما في لطائف الصمت واؤتمن على خزائنه كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطلع على عبادته

----

(١٣) صححنا الأحاديث هنا على " أصول الكافي ": باب الصمت، وعلى " الوسائل " كتاب الحج، الباب ١١٧ من أحكام العشرة، وعلى " المستدرك " ٢ / ٨٨، ٨٩، وعلى " سفينة البحار " ٢ / ٥٠، ٥١ وعلى " البحار " ٢ مج ١٥ / ١٨٩ باب السكوت والصمت، وعلى " إحياء العلوم " ٣ / ٩٣ - ٩٥، وعلى " كنز العمال " ٢ / ٧٢ و ١١١

هذه إلا الملك الجبار " (١٤).

وقد ظهر من هذه الأخبار، أن الصمت مع سهولته أنفع للانسان من كل عمل، وكيف لا يكون كذلك، وخطر اللسان الذي هو أعظم الأخطار وآفاته التي هي أشد المهلكات لا ينسد إلا به؟ والكلام وإن كان في بعضه فوائد وعوائد، إلا أن الامتياز بين الممدوح والمذموم منه مشكل، ومع الامتياز فالاقتصار على مجرد الممدوح عند أطلاق اللسان أشكل، وحينئذ فالصمت عما لا جزم بتضمنه للخير والثواب من الكلام أولى وأنفع.

وقد نقل: " إن أربعة من أذكياء الملوك - ملك الهند، وملك الصين وكسرى، وقيصر - تلاقوا في وقت، فاجتمعوا على ذم الكلام ومدح الصمت فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إني إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم، إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت ".

ومنها:

حب الجاه والشهرة

والمراد بالشهرة: انتشار الصيت، ومعنى الجاه: ملك القلوب وتسخيرها بالتعظيم والإطاعة والانقياد له. وبعبارة أخرى: قيام المنزلة في قلوب الناس، وإنما تصير القلوب مملوكة مسخرة للشخص، باشتمالها على اعتقاد اتصافه بكمال حقيقي، أو بما يظنه كما لا، من علم وعبادة، أو ورع وزهادة، أو قوة وشجاعة، أو بذل وسخاوة، أو سلطنة وولاية، أو منصب ورياسة، أو غنى ومال، أو حسن وجمال، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالا. وتسخير القلوب وانقيادها على قدر اعتقادها، وبحسب درجة ذلك الكمال عندها، فبقدر ما يعتقد أرباب القلوب تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعانها تكون قدرته عليهم، وبقدر قدرته يكون فرحه وحبه للجاه. ثم تلك القلوب تبعث أربابها على المدح والثناء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت

---

(١٤) مصباح الشريعة: الباب ٢٧

عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه، وعلى الخدمة والإعانة، فإنه لا يبخل يبذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، وعلى الإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير والابتداء بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد.
(تنبيه): حب الجاه والشهرة إن كان من حيث إيجابهما الغلبة
والاستيلاء حتى ترجع حقيقة إلى حبهما، وكان طالبهما طالبا لهما، فهو من رذائل قوة الغضب، وإن كان من حيث التوصل بهما إلى قضاء الشهوات وحظوظ النفس البهيمية، فهو من رذائل قوة الشهوة، وإن كان من الحيثيتين فهو من رذائلهما بالاشتراك، بمعنى مدخلية كل منهما في حدوث خصوص هذه الصفة. والأصل اشتراك القوتين في حدوث حب الجاه والشهرة - كما ذكرناه في جملة ما يتعلق بهما معا - بخلاف حب المال، فإن الغالب أن حبه من حيث التوصل به إلى قضاء حظوظ القوة الشهوية، وكونه لمجرد
الاستيلاء عليه بالمالكية والتمكن على التصرف فيه نادر، ولذا ذكرناه فيما يتعلق بقوة الشهوة.

فصل

ذم حب الجاه والشهرة

إعلم أن حب الجاه والشهرة من المهلكات العظيمة، وطالبهما طالب
الآفات الدنيوية والأخروية، ومن اشتهر اسمه وانتشر صيته لا يكاد أن تسلم دنياه وعقباه، إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب للشهرة منه. ولذا ورد في ذمهما ما لا يمكن إحصاؤه من الآيات والأخبار: قال الله سبحانه:
" تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا " (١٥).
وقال: " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون " (١٦).
وهذا بعمومه متناول لحب الجاه، لأنه أعظم لذة من لذات الحياة

----

(١٥) القصص، الآية: ٨٣.
(١٦) هود، الآية: ١٥ - ١٦

الدنيا وأكبر زينة من زينتها.
وقال رسول الله (ص): " حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ". وقال (ص): " ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حب الجاه والمال في دين الرجل المسلم ". وقال (ص): " حسب امرئ من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع ".
وقال أمير المؤمنين (ع): " تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ انفجار ". وقال الباقر عليه السلام. " لا تطلبن الرياسة ولا تكن ذنبا، ولا تأكل الناس بنا فيفقرك الله " وقال الصادق (ع): " إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك! " وقال (ع): " ملعون من هم بها، ملعون من حدث بها نفسه! ". وقال (ع): " من أراد الرياسة هلك ". وقال (ع): " أترى لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى والله! إن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، إنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي " (١٧).
والأخبار بهذه المضامين كثيرة، ولكثرة آفاتها لا يزال أكابر العلماء وأعاظم الأتقياء يفرون منهما قرار الرجل من الحية السوداء، حتى أن بعضهم إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام من مجلسه، وبعضهم يبكي لأجل أن أسمه بلغ المسجد الجامع، وبعضهم إذا تبعه أناس من عقبه التفت إليهم وقال: " على م تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان ". وبعضهم يقول: " لا أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح ". وآخر يقول: " لا يجد حلاوة الآخر رجل يحب أن يعرفه الناس ". وآخر يقول: " والله ما صدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه ".
ومن فساد حب الجاه: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة، الخلق، مشغوفا بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله متلفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر

---

(١٧) الأحاديث الخمسة الأخيرة صححناها على " أصول الكافي ": باب طلب الرياسة و " الوسائل ": كتاب الجهاد، الباب ٤٩ من أبواب جهاد النفس

النفاق وأصل الفساد، ويجر لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل بها إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين، وقال: " إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل "، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول والفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس يضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك عين النفاق.

فصل

الجاه أحب من المال

إن لملك القلوب ترجيح على ملك المال بوجوه:

الأول - أن المال معرض التلف والزوال، لأنه يغصب ويسرق وتطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراسة ٤ وتتطرق إليه أخطار كثيرة. وأما القلوب إذا ملكت، فهي من هذه الآفات محفوظة نعم إنما يزول ملك القلوب بتغيير اعتقادها فيما صدقت به من الكمال الحقيقي أو الوهمي.

الثاني - إن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب، لو قصد اكتساب المال تيسر له بسهولة، لأن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبذولة لمن أذعنت له بالانقياد واعتقدت فيه أوصاف الكمال، وأما الخسيس العاري عن الكمال إذا ظفر بكثرة من المال ولم يكن له جاه يحفظ به ماله وأراد أن يتوصل به إلى الجاه، لم يتيسر له.

الثالث - أن ملك القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومشقة، إذ القلوب إذا أذعنت بشخص واعتقدت اتصافه بعلم أو عمل أو غيره، أفصحت الألسنة بما فيها لا محالة، فيصف ما يعتقده لغيره وهو أيضا يذعن به ويصفه لآخر، فلا يزال يستطار في الأقطار، ويسري من واحد إلى واحد، إلى أن يجتمع معظم القلوب على التعظيم والقبول. وأما المال، فمن ملك شيئا منه فلا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة. ولهذه الوجوه تستحقر الأموال في مقابلة عظم الجاه وانتشار الصيت وانطلاق

الألسنة بالمدح والثناء.

فصل

لا بد للانسان من جاه

كما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والملبس والمسكن ومثله ليس بمذموم، فكذلك لا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، إذ الإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام والمال الذي يباع به الطعام فكذلك لا يستغني عن خادم يخدمه ورفيق بعينه وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المنزلة ما يدعوه إلى الخدمة وفي قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته، وفي قلب السلطان من المحل ما يدفع به الشر عنه، ليس بمذموم. إذ الجاه كالمال وسيلة إلى الأغراض، فلا فرق بينهما، إلا أن هذا يقضي إلى ألا يكون المال والجاه محبوبين بأعيانهما بل من حيث التوصل بهما إلى غيرهما. ولا ريب في أن كل ما يراد به التوصل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوسل إليه دون الوسيلة.

ومثل هذا الحب مثل حب الإنسان أن يكون في داره بيت الخلاء لقضاء حاجته ولو استغنى عن قضاء الحاجة، ولم يضطر إليه كره اشتمال داره على بيت الخلاء ومثل أن يحب زوجته ليدفع بها فضلة الشهوة، ولو كفي مؤنة الشهوة لأحب مهاجرتها، وإذا كان حبهما لضرورة البدن والمعيشة لا لذاتهما لم يكن مذموما، والمذموم أن يحبهما لذاتهما. وفيما يجاوز ضرورة البدن كحب زوجته لذاتها حب العشاق حتى لو كفي مؤنة الشهوة لبقي مستصحبا لحبها. ثم حبهما بأعيانهما وإن كان مذموما مرجوحا، لكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بكذب وخداع وتلبيس، كأن يظهر للناس قولا أو فعلا اعتقدوا لأجله اتصافه بوصف ليس فيه، مثل العلم والورع أو علو النسب وبذلك يطلب قيام المنزلة في قلوبهم، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بعبادة، إذ التوصل إلى المال والجاه بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور، كما يأتي.

وأما طلبهما بصفة هو متصف بها، فهو مباح غير مذموم، وذلك

كقول يوسف (ع):
" إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم " (١٨).
حيث طلب المنزلة في قلب الملك بكونه حفيظا عليما، وكان صادقا في قوله. وكذا طلبهما بإخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلمه فلا تزول به منزلته في قلبه مباح غير مذموم، إذ حفظ الستر على القبائح جائز، بل لا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح، وهذا ليس فيه كذب وتلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة للعلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله إنه ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب، وهو جائز شرعا وعقلا.

فصل

دفع إشكال في حب المال والجاه

إن قيل: الوجه في حبهما بالعرض وفي حب قدر ما يضطر إليهما في المعيشة وضرورة البدن ظاهر، فما الوجه في حبهما بأعيانهما وفي حب الزائد عن قدر الضرورة منهما؟ كحب جمع المال، وكنز الكنوز، وادخار الذخائر، واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، وحب اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعا أنه قط لا يطؤها ولا يشاهد أهلها ليعظموه ويعينوه على غرض من أغراضه، فإنه مع ذلك يلتذ به غاية الالتذاذ ويسر به غاية السرور، حتى لا يجد في نفسه لذة أقوى منه، ويراه فوق جميع لذاته وابتهاجاته.

قلنا: الوجه في ذلك أمران:
الأول - دفع ألم الخوف الناشئ من سوء الظن وطول الأمل. فإن الإنسان وإن كان له من المال ما يكفيه في الحال، إلا أنه لطول أمله قد يخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله، هاج الخوف في قلبه، ولا يزول ألم الخوف إلا بالأمن الحاصل من وجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال آفة، فهو أبدا لحبه

---

(١٨) يوسف الآية: ٥٥

للحياة وشفقته على نفسه يقدر طول الحياة وهجوم الحاجات، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب ما يدفع خوفه، وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله يفزع إلى الأخرى. وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال، ولذلك لم يكن لميله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال (ص): " منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال ". ومثل هذه العلة تطرد في حب قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا، كان للنفس لذة وسرور بقيام المنزلة في قلوبهم، لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

الثاني - أن الإنسان مركب من أصول مختلفة: هي القوة الشهوية، والقوة السبعية، والقوة الشيطانية، والروح الذي هو أمر رباني، ولذلك له ميل إلى صفات بهيمية، كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية، كالقتل والإيذاء، وإلى صفات شيطانية، كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية، كالعلم والقدرة والكبر والعز والفخر والاستعلاء. فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال، والاستيلاء على جميع الأشياء بالغلبة، واستناد الكل إليه بالصدور منه والمعلولية.

وبالجملة: مقتضى الربوبية التفرد بالوجود والكمال ورجوع كل وجود وكمال إليه، إذ هو التام فوق التمام، ولا يتحقق ذلك إلا بالتفرد بالوجود والكمال والقدرة والاستيلاء على جميع ما عداه. إذ المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كانت معها شمس أخرى كان ذلك نقصانا في حقها، إذ لم تكن متفردة بكمال معنى الشمسية فإذا كان معنى الربوبية هو التفرد بالوجود والكمال، وكل إنسان كان فيه أمر رباني، فالتفرد بالوجود والكمال محبوب له بالطبع، وضده - أعني العبودية - قهر على نفسه، لأنه علم أن المتفرد بالوجود والكمال هو الله تعالى، إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته

لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، وليس له معية بالوجود بالنسبة إليه تعالى، إذ المعية توجب المساواة في الرتبة، وهي نقصان في الكمال، إذ الكامل الحقيقي من لا نظير له في الوجود، والكمال بوجه من الوجوه وإن كان لغيره وجود وكمال بعد كونه صادرا منه معلولا له، إذ تحقق الموجودات وذوات الممكنات لا يوجب نقصانا في ذاته سبحانه بعد استنادها جميعها إليه، وكونها أضعف منه بمراتب غير متناهية في الوجود والكمال شدة وقوة، فكما إن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس، بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصانها بوجود شمس أخرى مساوية لها في الرتبة مستغنية عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم إذا كان من أشراق نور القدرة الإلهية تابعا لها، لم يكن ذلك نقصانا في الواجب سبحانه، بل كان كمالا له.

ولما علم ذلك، وتيقن بأن التفرد بالوجود والكمال والاستيلاء التام على جميع الأشياء لا يليق به، لأنه عبد مملوك مقهور تحت القدرة الإلهية، عرف أنه عاجز عن درك منتهى الكمال الذي هو التفرد بالوجود والاستيلاء أي كون وجود غيره منه. إلا أنه لم تسقط شهوته للكمال، بل هو محب له ملتذ به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وطالب لتحصيل ما يتمكن منه. فمطلق الكمال محبوب عنده، إلا أن طلبه إنما يتعلق بالكمال الممكن في حقه ومن الكمال الممكن في حقه أن يحصل له نوع استيلاء على كل الموجودات، فكان ذلك محبوبا عنده ومطلوبا له. ولما كانت الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغير، كذات الواجب وصفاته وعالم المجردات، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا تستولي عليه قدرة الخلق بالتصرف، كالأفلاك والكواكب وملكوت السماوات ونفوس الملائكة والجن والشياطين والجبال والبحار وغير ذلك، وإلى ما يقبل التغير وتستولي عليه قدرة العباد، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الآدميين ونفوسهم لكونها قابلة للتغيير والتأثير مثل أجسادهم وأجساد سائر الحيوانات - فلم يكن للانسان أن يتصور إمكان استيلائه على الكل بالتصرف فيه، فلم يتعرض لطلب ذلك، بل أحب في كل منها نوع الاستيلاء

الذي يمكن في حقه والاستيلاء، الذي يمكنه في حقه بالنظر إلى القسمين الأولين هو الإحاطة عليه بالعلم والاطلاع على أسراره، لأن ذلك نوع استيلاء. إذ المعلوم المحاط به تحت القدرة، والعالم كالمستولي عليه.
ولذلك أحب الإنسان أن يعرف الواجب تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب وعجائب الملك والملكوت، لأن ذلك نوع استيلاء، والاستيلاء نوع كمال.
وأما القسم الثالث، فيمكنه أن يستولي عليه بالتصرف فيه كيف يريد
فيقدر على الأراضي والأملاك بأن يتصرف فيها بالحيازة والضبط والزرع والغرس، وعلى الأجساد الأرضية الحيوانية والنباتية والجمادية بالركوب والضبط والحمل والرفع والوضع والتسليم والمنع، وعلى نفوس الآدميين وقلوبهم بأن تكون مسخرة متصرفة تحت إشارته وإرادته وصيرورتها محبة له باعتقاد الكمال فيه. ولكون هذا النوع من الاستيلاء نوع كمال، أحب الإنسان هذا الاستيلاء على الأموال والقلوب، وإن كان لا يحتاج إليهما في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأحرار ولو بالقهر والغلبة. وقد ظهر مما ذكر: إن محبوب النفس بذاتها هو الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه محبوب لكونه من أسباب القدرة.
ولما كانت المعلومات والمقدورات غير متناهية، فلا يكاد أن تقف النفس إلى حد من العلم والقدرة، ولهما درجات غير متناهية، فسرور كل نفس ولذتها بقدر الدرجة التي تدركها.

فصل

الكمال الحقيقي في العلم والقدرة والمال والجاه

لما عرفت أن المحبوب عند الإنسان هو العلم والقدرة والمال والجاه
لما عرفت أن المحبوب عند الإنسان هو العلم والقدرة والمال والجاه
لكونها كمالا، فاعلم أنه اشتبه الأمر عليه بإغواء الشيطان، حيث التبس عليه الكمال الحقيقي بالوهمي، وتيقن بكون جميع ذلك كمالا وأحبه. إذ التحقيق أن بعضها كمال حقيقي وبعضها كمال وهمي لا أصل له، والسعي في طلبه جهل وخسران وتضييع وقت وخذلان.
بيان ذلك: إنه لا ريب في عدم كون المال والجاه كمالا، لأن القدرة والاستيلاء على أعيان الأموال بوجوه التصرف وعلى القلوب والأبدان

بالتسخير والانقياد ينقطع بالموت، فمن ظن ذلك كمالا فقد جهل. فالخلق كلهم في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال. ولما اعتقدوا كون ذلك كمالا أحبوه، ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه، فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله، أعني العلم والحرية كما يأتي. فهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى:

" المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا " (١٩).

فالعلم والحرية وفضائل الأخلاق هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا للنفس بعد خراب البدن، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب، وهو كما مثله الله تعالى، حيث قال:

" إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض... " (٢٠).

وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات.

فقد ظهر أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال وهي لا أصل له، وإن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل، إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقي.

وأما العلم، فلا ريب في كون ما هو حقيقة العلم كمالا حقيقيا، إذ الكمال الحقيقي هو الذي يقرب من يتصف به من الله ويبقى كمالا للنفس بعد الموت. ولا شك في أن العلم بالله وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السماوات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو المقرب للعبد

---

(١٩) الكهف، الآية: ٤٧

(٢٠) يونس، الآية: ٢٤

إلى الله، إذ هو علم ثابت لا يقبل التغيير والانقلاب، إذ معلوماته أزلية أبدية وليس لها تغيير وانقلاب، حتى يتغير العلم بتغيرها مثل التغيرات التي يتغير العلم بها بتغيرها وانقلابها، كالعلم بكون زيد في الدار.

فهو علم ثابت أزلا وأبدا من دون تغير واختلاف، كالعلم بجواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات. فهذا العلم - أعني معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله - هو الكمال الحقيقي الذي يبقى بعد الموت وينطوي فيه العلم بالنظام الجملي الأصلح وجميع المعارف المحيطة بالموجودات وحقائق الأشياء، إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، كانت هذه المعرفة من تكملة معرفة الله التي تبقى كمالا للنفس بعد الموت، وتكون نورا للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وأيمانهم: " يقولون ربنا أتمم لنا نورنا "، وهي رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي، فإنه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج لا مطمع له في ذلك. فمن ليس له أصل معرفة الله لم يكن له مطمع في هذا النور، بل هو في " ظلمات في بحر لجي، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض ".

وما عدا هذه المعرفة من المعارف، إما لا فائدة فيه أصلا، كمعرفة الشعر وأنساب العرب ومثلها، أو له منفعة في معرفة الله، كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، ومعرفة طريق تزكية النفس التي تفيد استعدادا لقول الهداية إلى معرفة الله، كما قال تعالى:

" قد أفلح من زكاها " (٢١). وقال: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " (٢٢).

فهو من حيث إنه وسيلة إلى معرفة الله وإلى تحصيل الحرية مما لا بد منه بالعرض.

---

(٢١) الشمس، الآية: ٩
(٢٢) العنكبوت، الآية: ٦٩

ثم إن المعرفة التي هي كمال حقيقي للانسان ليس كمال العلم وغايته، إذ لا يتصور كمال العلم ونهايته إلا للواجب تعالى، إذ كمال العلم إنما يتحقق بأمور ثلاثة:

الأول – أن يحيط بكل المعلومات، ولا يتحقق ذلك في علم البشر.

إذ ما أوتي من العلم إلا قليلا، بل العلم الذي يحيط بجميع المعلومات هو علم الله تعالى، وعلم العبد إنما يتحقق ببعض المعلومات، وكلما كانت معلوماته أكثر كان علمه أقرب إلى علم الله تعالى.

الثاني – أن يتعلق بالمعلوم على ما هو به، ويكون المعلوم منكشفا واضحا في غاية الانكشاف والوضوح، بحيث لا يقبل انكشافا أتم منه.

وهذا أيضا غير ممكن التحقيق في حق الإنسان، إذ علمه لا يخلو عن كدرة وإبهام، بل الكشف التام الذي هو غاية الظهور والانجلاء مختص بعلم الله تعالى: إذ معلوماته مكشوفة بأتم أنواع الكشف على ما هي عليها، وعلم العبد له ببعض مراتب الانكشاف، فكلما كان أجلى وأوضح وأتقن وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفاته، كان أقرب إلى علم الله.

الثالث – أن يكون باقيا أبدا الآباد، بحيث لا يتغير ولا يزول. وهذا أيضا مختص بعلم الله تعالى، إذ علمه تعالى باق لا يتصور أن يختلف ويتغير ويزول وعلم الإنسان يتغير ويزول فكلما كان علمه بمعلومات لا تقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى علم الله تعالى.

هذا، ومن الكمالات للانسان: التحلي بفضائل الأخلاق والصفات، لإيجابها صفاء النفس المؤدي إلى البهجة الدائمة والحرية، أعني الخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر، تشبها بالملائكة الذين لا تستغرقهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، إذ رفع آثار الشهوة الغضب من النفس كمال حقيقي، لأنه من صفات الملائكة، ومن صفات الكمال لله سبحانه عدم تطرق التغيير والتأثير على حريم كبريائه، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله أقرب.

وأما القدرة، فقد قال بعض العلماء: " أما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد، إذ القدرة الحقيقية لله، وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته، فهي حادثة بأحداث الله تعالى. نعم له كمال من جهة

القدرة بالإضافة إلى الحال، وهي وسيلة إلى كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش، ورجله للمشي، وحواسه للادراك، فإن هذه القوى آلة للوصول به إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والملبس، وذلك إلى قدر معلوم: فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة الله فلا خير فيه البتة، إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ولا طريق للعبد إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على كل شئ من الأرضيات، كالمال والأبدان والنفوس، تنقطع بالموت ".

وأنت خبير بأن تحقق نوع قدرة للعباد مما لا ريب فيه، وإن كانت أسبابها وأصلها من الله سبحانه، إلا أن القدرة على الأمور الدنيوية الفانية كالمال والأشخاص وغير ذلك، ليست كمال حقيقيا، لزوالها بالموت. نعم، الحق ثبوت القدرة النفسية للعبد - أعني تأثير نفسه في الغير من الكائنات تأثيرا روحانيا كما هو ظاهر من تأثير بعض النفوس في الإنسان والحيوان والنبات والجماد بأنواع التأثيرات، ومثل هذه القدرة تبقى للنفوس بعد الموت ولذا ترى أن من يستغيث ببعض النفوس الكاملة من الأموات يرى منها عجائب التأثيرات والاستفاضات، فما ذكره بعض العلماء من عدم بقاء قدرة للنفوس بعد الموت محل النظر.

وقد ظهر بما ذكر: إن الكمال الحقيقي للانسان هو العلم الحقيقي وفضائل الأخلاق والحرية والقدرة

فصل

علاج حب الجاه

إعلم أن علاج حب الجاه مركب من علم وعمل. وعلاجه العلمي: أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه - وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم إن صفا وسلم - فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد له كل من على وجه الأرض إلى خمسين سنة أو أكثر لا بد بالآخرة من موت الساجد والمسجود له، ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوي

الجاه مع المتواضعين له. ولا ينبغي للعاقل أن يترك بمثل ذلك الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها. ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي - كما سبق - صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، كما قال الله تعالى:

" بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى " (٢٣). وقال: " كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة " (٢٤).

فمن هذه مرتبته، فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بمعرفة الآفات العاجلة، وهو أن يفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فإن كل ذي محسود مقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ولا يزال في الاضطراب والخوف من أن تتغير منزلته في القلوب. مع أن قلوب الناس أشد تغيرا وانقلابا من القدر في غليانه، وهي مرددة بين الإقبال والإعراض، فكلما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له. والإشغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء اشتغال عن الله وتعرض لمقته في العاجل والأجل كل ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه، فلا يبقى في الدنيا أيضا مرجوها بمخوفها، فضلا عما يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا التفات له إلى الدنيا. فهذا هو العلاج العلمي وأما العلاج العملي: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالأنس بضد الجاه الذي هو الخمول ويقنع بالقبول من الخالق، وأقوى العلاج لقطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى مواضع الخمول، لا مجرد الاعتزال في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور، لأن المعتزل في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور عند أهلها لا يخلو بسبب عزلته عن حب المنزلة التي تترسخ له في القلوب، فربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت

----

(٢٣) الأعلى، الآية: ١٦ - ١٧

(٢٤) القيامة: ٢٠ - ٢١

نفسه لأنها ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوا فيه وذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق، ربما جزعت نفسه وتألمت وتوصلت إلى الاعتذار من ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، وبه يتبين أنه بعد محب للجاه والمنزلة، ولا يمكنه إلا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة. فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب وزن عنده، بل من لم يطمع في الناس وكان من أهل المعرفة، كان الناس عنده كالبهائم، فكيف يكون طالبا لقيام منزلته في قلوبهم؟

والحاصل: إن الغالب والباعث على قيام المنزلة في قلوب الناس هو الطمع منهم، ولذا ترى أنك لا تطلب قيام منزلتك في قلوب من في أقصى المشرق أو المغرب، لعدم طمع لك فيهم، ثم ينبغي أن يستعين على المعالجة بالأخبار الواردة في ذم الجاه - كما مر - وفي مدح الخمول، كما يأتي.

فصل

حب الخمول

ضد حب الجاه والشهرة حب الخمول، وهو شعبة من الزهد، كما أن حب الجاه شعبة من حب الدنيا. فحب الدنيا والزهد ضدان.

ثم الخمول من صفات المؤمنين وخصال الموقنين، وقد كانت طوائف العرفاء المتوحدين ومن يماثلهم من سلفنا الصالحين محبين له طالبين إياه. وكل من عرف الله وأحبه وأنس به، كان محبا للخمول متوحشا من الجاه وانتشار الصيت، كما تنادي به كتب السير والتواريخ. قد وردت بمدحه أخبار كثيرة، كقول رسول الله (ص): " إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى، يتحول من كل غبراء مظلمة ". وقوله (ص): " رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم أسألك الجنة! لاعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا ". وقوله (ص): " ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره ". وقوله

- صلى الله عليه وآله: " إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتخلخل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم ". وقوله (ص): " إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه، أو يسأله درهما لم يعطه إياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه وما منعها إياه لهوانه عليه ". وقوله (ص): " قال الله عز وجل: إن من أغبط أوليائي عندي رجلا حفيف الحال، ذا خط من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضا في الناس، جعل رزقه كفافا فصبر عليه، عجلت منيته فقل تراثه وقل بواكيه " (٢٥). وورد: " إن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على بعض عبيده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟ ". وقال بعض خيار الصحابة: " كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب: تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض ". ومن اطلع على أحوال أكابر الدين والسلف الصالحين من إيثارهم الخمول والذل على الجاه والشهرة والغلبة، ثم في ما ورد في مدحهما من الأخبار، تيقن بأنهما من أوصاف المؤمنين، ولا بد للمؤمن من الاتصاف بهما، ولذا ورد: " أن المؤمن لا يخلو عن ذلة أو علة أو قلة ".

ومنها:

حب المدح

وكراهة الذم. وهما من نتائج حب الجاه، ومن المهلكات العظيمة، إذ كل محب للمدح والثناء خائف من الذم، يجعل أفعاله وحركاته على ما يوافق رضا الناس، رجاءا للمدح وخوفا من الذم. فيختار رضا المخلوق على رضا الخالق، فيرتكب المحظورات ويترك الواجبات، ويتهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعدى عن الإنصاف والحق، وكل ذلك من المهلكات، وليس للمؤمن أن يحوم حولها، بل المؤمن من لم يؤثر قط

---

(٢٥) تقدم الحديث في ٢ / ٥٩، وذكرنا في التعليقة تفسير معنى " حفيف "

رضا المخلوق على رضا الخالق، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ولعظم فساد حب المدح وبغض الذم ورد في ذمهما ما ورد في الأخبار، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - " إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء ". وقال - صلى الله عليه وآله -: " رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى ". وقال (ص) لرجل أثنى على آخر بحضرته: " لو كان صاحبك حاضرا فرضي بالذي قلت فمات على ذلك، دخل النار ". وقال (ص) لما مدح آخر: " ويحك! قطعت ظهره! ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة ". وقال (ص): " ألا لا تمادحوا! وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب ". وقال (ص): " ويل للصائم! وويل للقائم! وويل لصاحب التصوف! إلا من... فقيل: يا رسول الله، إلا من؟ فقال: إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا، وأبغض المدحة واستحب المذمة ".

فصل

مراتب حب المدح وكراهة الذم

إعلم أن لحب المدح وكراهة الذم مرتبتين: أولاهما: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، ويكافيه أو يحب مكافأته. وهذا حال أكثر الخلق، ولا حد لأتمها. وأخراهما: أن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره من إظهار السرور، ويتبغض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته. وهذه وإن كانت نقصانا، إلا أنها بالنظر إلى الأولى كمال.

وباعتبار آخر، لحب المدح درجات:

الأولى - أن يتمنى المدح وانتشار الصيت بحيث يتوصل إلى نيلهما بكل ممكن، حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمفارقة المحظورات، لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح. وهذا من الهالكين.

الثانية - أن يريد ذلك ويطلبه بالمباحات لا بالعبادات وارتكاب المحضورات، وهذا على شفا جرف الهلاك. إذ حدود الكلام والأعمال التي يستميل بها القلوب لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقع فيما لا يحل له ليتوصل به إلى نيل المدح. فهو قريب من الهالكين.

الثالثة - ألا يريد المدح ولا يسعى لطلبه، ولكن إذا مدح سر وارتاح

من غير وجدان كراهة في نفسه لهذا السرور والارتياح. وهذا أيضا نقصان وإن كان أقل إثما بالإضافة إلى ما قبله.

الرابعة - أن يسر ويرتاح، ولكن كره هذا السرور والارتياح، وكلف قلبه كراهة المدح وبغضه، وهو في مقام المجاهدة، ولعل الله يسامحه إذا بذل جهده. ومع ذلك لم يقدر على ربط نفسه على كراهة المدح دائما.

فصل

أسباب حب المدح

حب المدح والثناء له أسباب.

الأول - شعور النفس بكمالها، فإن الكمال لما كان محبوبا فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن كان ما به المدح وصفا مشكوكا فيه صادر عن خبير بصير لا يجازف في القول، كالوصف بكمال العلم والورع وبالحسن المطلق، فاللذة فيه عظيمة لأن الإنسان ربما كان شاكا في كمال علمه وكمال حسنه ويكون شائقا لزوال هذا الشك، فإذا ذكره غيره، (لا) سيما إذا كان من أهل البصيرة أورث ذلك طمأنينة وثقة بوجود ذلك الكمال، فعظمت لذته، ولو كان صادرا ممن لا بصيرة له، كانت لذته أقل لقلة الاطمئنان بقوله. وإن كان ما به المدح وصفا جليا، كاعتدال القامة وبياض اللون، كانت لذته في غاية القلة، لأن ثناءه لا يورث ما ليس له من الطمأنينة والثقة، إلا أنه لا يخلو عن لذة ما، إذ النفس قد تغفل عنه فتخلو عن لذته، فتنبهها عليه بالمدح يورث لذة ما. ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضا، لأنه يشعر بنقصان في نفسه، والنقصان ضد الكمال.

الثاني - إن المدح يدل على أن قلب المادح ملك الممدوح، وأنه مريد له معتقد فيه ومسخر تحت مشيته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، ولذلك تعظم اللذة مهما صدرت ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص كان المادح ممن يعتنى بقوله، وهذا يختص بمدح يقع على الملأ.

الثالث - إن المدح سبب اصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا قلبه كالملوك والأكابر، ولضد هذه العلة يكره الذم ويتألم القلب به.

الرابع – أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه طوعا أو قهرا، والحشمة محبوبة لما فيها من الغلبة والقدرة، فشعور النفس بها يورث لذة، وهذه اللذة تحصل وإن علم الممدوح أن المادح لا يعتقد بما يقوله، إذ ما يطلبه يحصل منه، ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضا.

وهذه الأسباب قد تجتمع في مدح واحد فيعظم به الالتذاذ، وقد تفترق فينتقص ويندفع استشعار الكمال، بأن يعلم الممدوح أن المادح غير صادق في مدحه، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثانية أيضا، وهو استيلاءه على قلبه، وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالمدح.

فصل

علاج المدح وكراهة الذم

إذا علم أن حب المدح وكراهة الذم من المهلكات، فيجب أن يبادر إلى العلاج.

وعلاج الأول، أن يلاحظ أسبابه، ويعلم أن شيئا منها لا يصلح حقيقة لأن يكون سببا له. أما استشعار الكمال بالمدح، فلأن المادح إن صدق فليكن الفرح من فضل الله حيث أعطاه هذه الصفات، وإن كذب فينبغي أن يغمه ذلك ولا يفرح به لأنه استهزاء به، مع أن الفرح مطلقا في صورة الصدق من السفاهة، إذ الوصف الذي مدح به إن كان مما لا يستحق الفرح به، كالثروة والجاه وغيرهما من المطالب الدنيوية، فالفرح به من قلة العقل، لأنها كمالات وهمية لا أصل لها، وإن كان مما يستحق الفرح به كالعلم والورع، فالفرح إنما هو لكونه مقربا إلى الله، وهذا فرع حسن الخاتمة وهو غير معلوم. ففي الخوف من خطر الخاتمة شغل شاغل من الفرح بكل شئ. وأما دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب من يسمعه، فحب ذلك يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب، وقد سبق طريق معالجته. وأما دلالته على الحشمة، فإنها ليست إلا قدرة عارضة ناقصة لا ثبات لها، والعاقل لا يفرح بمثلها.

وأما علاج الثاني: - أعني كراهة الذم - فيعلم بالمقايسة على علاج حب المدح. والقول الوجيز فيه: إن من يذمك إن كان صادقا وقصده النصح والإرشاد، فلا ينبغي أن تبغضه وتغضب عليه، بل ينبغي أن تفرح وتجتهد في إزالة الصفة المذمومة عن نفسك، وما أقبح بالمؤمن أن يغضب على من يحسن إليه ويريد هدايته وإن كان قصده الإيذاء والتعنت، فلا ينبغي لك أيضا أن تبغضه وتكره ذلك، لأنه أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به، وذكرك إياه إن كنت غافلا عنه، وقبحه في عينك إن كنت متذكرا له.
وعلى التقادير قد استفدت منه ما تنتفع به، وينبغي لك أن تغتنمه وتبادر إلى إزالة عيبك. وإن كان كاذبا مفتريا عليك بما أنت منه برئ، فينبغي لك أيضا ألا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، لأنك وإن خلوت من ذلك العيب إلا أنك لا تخلو من عيب آخر مساوية له وأفحش منها، فاشكر الله تعالى على أنه سترها ولم يطلع أحدا عليها، ودفعها بذكر ما أنت منه برئ، مع أنه كفارة لبقية مساويك. ومن ذمك أهدى إليك حسناته وجني على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه عليك، فما بالك تحزن بحط ذنوبك وإهداء الحسنات إليك؟ ولم تغضب عليه، مع أن الله سبحانه غضب عليه وأبعده من رحمته؟ فإن ذلك كاف لانتقامك منه.

وصل

ضد حب المدح

ضد حب المدح وكراهة الذم: إما كراهة المدح وحب الذم، أو مساواتهما عنده بحيث لا تسره المدحة ولا تغمه المذمة. وقد تقدم بعض الأخبار الدالة على ذم من لم يتصف بالحالة الأولى. وهي وإن كانت نادرة الوجود،
إذ ما أقل على بسيط الأرض - (لا) سيما في هذه الأعصار - من تستوي عنده المدحة والمذمة، فضلا عمن يكره المدح ويسر بالذم، إلا أن تحصيلها ممكن إذ كل من عرف أن المدح مضر بدينه وقاصم لظهره، فلا بد أن يكرهه ويبغض المادح، لو كان عاقلا مشفقا على نفسه. وكذا من عرف أن الذام له يرشده إلى عيوبه ويهدي إليه بعض حسناته، لا بد أن يحبه ويسر بذمه.
وأما الحالة الثانية، فهي أولى درجات الكمال، ومن لم يتصف بها

فهو ناقص. فالاتصاف بها لازم على كل مؤمن. وربما ظن بعض الناس اتصافه بها، مع كونه فاقدا لها. فمن ظن ذلك من نفسه، فلا بد أن يمتحن نفسه بعلاماتها، حتى يظهر له صدق ظنه وكذبه، وعلاماته: ألا يكون سعيه ونشاطه في قضاء حوائج المادح أكثر منهما في قضاء حوائج الذام، وألا يتفاوت همه وحزنه لأجل موتهما وابتلائهما بمصيبة، وألا تكون ذلة المادح أخف في قلبه وعينه من ذلة الذام، وألا يكون جلوس الذام عنده أثقل ولا قيامه أهون من جلوس المادح وقيامه. وبالجملة: أن يستويا عنده من كل وجه. فمن وجد نفسه استواءهما في جميع الجهات، فهو ممن يتساوى عنده المدح والذم.

ومنها:

الرياء

وهو طلب المنزلة في قلوب الناس بخصال الخير أو ما يدل عليها من الآثار. فهو من أصناف الجاه، إذ هو طلب المنزلة في القلوب بأي عمل اتفق، والرياء طلب المنزلة بأدائه خصال الخير أو ما يدل على الخير. ثم خصال الخير يشمل أعمال البر بأسرها، وهي أعم من العادات إن خصت العبادة بمثل الصلاة والصوم والحج والصدقة وأمثال ذلك ومساوقة لها إن أريد بالعبادة كل فعل يقصد به التقرب ويترتب عليه الثواب. إذ على هذا كل عمل من أعمال الخير، سواء كان من الواجبات أو المندوبات أو المباحات في الأصل إذا قصد به القربة كان طاعة وعبادة، وإن لم يقصد به ذلك لم يكن عبادة ولا عمل خير، ولو كان مثل الصلاة. وربما خص الرياء عادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة بالمعنى الأخص.

والمراد بالآثار الدالة على الخيرية هي كل فعل ليس في ذاته بر أو خيرا، وإنما يستدل به على الخيرية.

وهي إما متعلقة بالبدن، كإظهار النحول والصفار ليستدل بهما على قلة الأكل أو الصوم وسهر الليل، ويوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة الخوف من الله ومن أهوال الآخرة، وكخفض الصوت ليستدل به على أن وقار الشرع قد خفض صوته... وقس عليها غيرها من

الأمور المعلقة بالبدن، الدالة على الخيرية قصدا إلى تحصيل المنزلة في قلوب الناس، وكل ذلك يضر بالدين وينافي الورع واليقين، ولذا قال عيسى (ع): " إذا صام أحدكم، فليدهن رأسه، ويرجل شعره، ويكحل عينيه "، خوفا من نزع الشيطان بالرياء. ثم هذه مراءاة أهل الدين بالبدن، وأما أهل الدنيا فيراؤن في البدن بإظهار السمن وصفاء اللون ونظافة البدن وحسن الوجه وأمثال ذلك.

أو متعلقة بالزي والهيئة كحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود في الجبهة، ولبس الصوف أو الثواب الخشن أو الأبيض وتعظيم العمامة ولبس الطيلسان والدراعة، وأمثال ذلك مما يدل على العلم والتقوى أو الانخلاع عن الدنيا.

والمراؤن من أهل الدين بالزي واللباس على طبقات: منهم من يرى طلب المنزلة بالثياب الخشنة، ومنهم من يرى بالثياب الفاخرة، ومنهم من يرى بالوسخة، منهم من يراه بالنظيفة، وللناس فيما يعشقون مذاهب. وأما أهل الدنيا فلا ريب في أنهم يراؤن في اللباس بلبس الثياب النفيسة وركوب المراكب الرفيعة وأمثال ذلك.

أو متعلقة بالقول والحركات كإظهار الغضب والأسف على المنكرات ومقارفة الناس للمعاصي، ليستدل بها على حمايته للدين وشدة اهتمامه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أن قلبه لم يكن متأثرا عن ذلك، وكإرخاء الجفون وتنكيس الرأس عند الكلام وإظهار الهدوء والسكون في المشي، ليستدل بذلك على وقاره، وربما أسرع المرائي في المشي إلى حاجة فإذا اطلع عليه واحد رجع إلى الوقار خوفا من أن ينسب إلى عدم الوقار، فإذا غاب الرجل عاد إلى عجلته.

أو متعلقة بغير ذلك كمن يتكلف أن يكثر الزائرون له والواردون عليه (لا) سيما من العلماء والعباد والأمراء ليقال إن أهل الدين والعظماء يتبركون بزيارته.

فصل

ذم الرياء

الرياء من الكبائر الموبقة والمعاصي المهلكة وقد تعاضدت الآيات والأخبار

ج: ٢

على ذمه، قال سبحانه:
" فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون " (٢٦). وقال سبحانه: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " (٢٧). وقال سبحانه " يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا " (٢٨) وقال: " كالذي ينفق ماله رئاء الناس " (٢٩).
وقال رسول الله (ص): " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر "
قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: " الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ". وقال (ص): " استعيذوا بالله من جب الحزن " قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: " واد في جهنم أعد للقراء المرائين ". وقال (ص): " يقول الله تعالى: من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله، وأنا منه برئ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك ". وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: " لا يقبل الله تعالى عملا فيه مثقال ذرة من رياء ". وقال (ص): " إن أدنى الرياء الشرك ". وقال (ص): " إن المرائي ينادي عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له ". وكان (ص) يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال " إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولكنهم يراؤن بأعمالهم ". وقال (ص):
" سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعا في الدنيا لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم " وقال: " إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجين إنه ليس إياي أراد به " (٣٠) وقال (ص): " إن الحفظة تصعد بعمل

---

(٢٦) الماعون، الآية: ٤ - ٧
(٢٧) الكهف، الآية: ١١٠
(٢٨) النساء، الآية: ١٤٢
(٢٩) البقرة، الآية: ٢٦٤
(٣٠) صححنا الحديث وكذا ما قبله على " أصول الكافي " باب الرياء وباقي الأحاديث النبوية على " إحياء العلوم " ج ٣ ص ٢٥٤

العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، لها دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه، إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا في المدائن، أمرني أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائي، قال (ص): وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السماوات حتى يقطع الحجب كلها إلى الله فيقفون به بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله، قال: فيقول الله تعالى لهم أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه، إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السماوات كلها على لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السماوات السبع ومن فيهن ".
وقال أمير المؤمنين (ع): " أخشوا الله خشية ليست بتعذير (٣١) واعملوا بغير رياء ولا سمعة فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله يوم القيامة " وقال الباقر (ع): " الإبقاء على العمل أشد من العمل " قيل: وما الإبقاء على العمل؟ قال: " يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فتكتب له سرا ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانية ثم يذكرها فتمحى فتكتب له رياء ". وقال الصادق (ع): " قال الله تعالى أنا خير شريك فمن عمل لي ولغيري فهو لمن عمل له غيري ". وقال (ع): " قال الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشريك فمن أشرك معي غيري في عمل لم أقبله إلا ما كان لي خالصا ". وقال (ع): " كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله ". وعن أبي عبد الله (ع) في قول الله عز وجل:

---

(٣١) قال في الوافي في باب الرياء ٣ / ٤٠٠: بيان (بتعذير) بحذف المضاف - أي ذات تعذير، وهو بالعين المهملة والذال المعجمة بمعنى التقصير.

" فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ".
قال: " الرجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه " ثم قال: " ما من عبد أسر خيرا فذهبت الأيام أبدا حتى يظهر الله له خيرا، وما من عبد يسر شرا فذهبت الأيام أبدا حتى يظهر الله له شرا ". وقال (ع): " ما يصنع أحدكم إن يظهر حسنا ويسر سيئا أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك والله عز وجل يقول: " بل الإنسان على نفسه بصيرة ". إن السريرة إذا صحت قويت العلانية ". وقال (ع): " من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله له أكثر مما أراده به ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلا أن يقلله في عين من سمعه ".
وقال (ع): " لعباد البصري: " ويلك يا عباد! إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له ". وقال (ع): " إجعلوا أمركم هدا لله ولا تجعلوه للناس فإنه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فهو لا يصعد إلى الله ". وقال الرضا (ع) لمحمد بن عرفة: " ويحك يا بن عرفة أعملوا لغير رياء ولا سمعة فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملا إلا أراده الله به إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا " (٣٢).
وكفى للرياء ذما أنه يوجب الاستحقار لله وجعله أهون من عباده الضعفاء الذين لا يقدرون نفعا ولا ضرا، إذ من قصد بعبادة الله عبدا من عبيده فلا ريب في أن ذلك لأجل ظنه بأن هذا العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه تعالى وأي استحقار بمالك الملوك أشد من ذلك.

فصل

أقسام الرياء

الرياء إما في العبادات أو غيرها (والأول) حرام مطلقا وصاحبه ممقوت

---

(٣٢) صححنا الأحاديث عن آل البيت عليهم السلام على " أصول الكافي " باب الرياء وعلى " البحار " مج ١٥: ٣ / ٤٣ وعلى " الوسائل " - ج ١ الباب ١١، ١٢، ١٤ من أبواب مقدمة العبادات -

عند الله وهو يبطل أصل العبادة ولأن الأعمال بالنيات، والمرائي بالعبادة لم يقصد امتثال أمر الله بل قصد أدراك مال أو جاه أو غرض آخر من الأغراض فلا يكون ممتثلا لأمر الله خارجا من عهدة التكليف، ثم مع بطلان عبادته وعدم خروجه عن عهدة التكليف يكون له أثم على حدة لأجل الرياء، كما دلت عليه الآيات والأخبار، فيكون أسوأ حالا ممن ترك العبادة رأسا، كيف لا والمرائي بالعبادة جمع بين الاستهزاء بالله والتلبيس والمكر لأنه خيل إلى الناس أنه مطيع لله من أهل الذين وليس كذلك.

وأما الرياء بغير العبادات، فقد يكون مذموما، وقد يكون مباحا، وقد يكون مستحبا، وقد يكون واجبا، إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وألا يفعل ما يعاب عليه، فلا يليق بذوي المروات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم ذلك في الخلوة، ومن زين نفسه باللباس أو غيره في أعين الناس حذرا من لومهم واستثقالهم أو استقذارهم إياه كان ذلك مباحا له، إذ الحذر من ألم الذم غير مذموم، إلا أن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والبلاد والأشخاص من العباد، فربما كان بعض أقسام الرياء بغير العبادات مذموما بالنظر إلى وقت أو شخص أو بلد غير مذموم بالنظر إلى آخر. روي: " أن رسول الله (ص) أراد يوما أن يخرج على أصحابه، فكان ينظر في حب من الماء ويسوي عمامته وشعره، فقيل له: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم ". وقال أمير المؤمنين عليه السلام: " يتزين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزين للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة "، وقال الصادق (ع): " الثوب النقي يكبت العدو ". وروي: " أنه (ع) نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحى منه، فقال (ع): اشتريته لعيالك وحملته إليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشئ ثم احمله إليهم " (٣٣) أراد (ع) لولا مخافة أن يعيبوه على

---

(٣٣) تقدم هذا الحديث ١ / ٣٥٨ والأحاديث الثلاثة الأخيرة صححناها على " الوسائل " - كتاب الصلاة، أبواب أحكام الملابس، الباب ٤ - ٦

ذلك لفعل مثل فعله، إلا أنه لما كان في زمان يعاب عليه بمثله لم يجز له أن يرتكبه، ولما لم يكن ذلك مما يعاب عليه في زمن أمير المؤمنين (ع) كان يرتكبه وكان ذلك منقبة له وتعليما. فظهر أن ارتكاب بعض الأمور وعدم ارتكاب بعض الأفعال قد يكون رياء محبوبا وقد يكون رياء مذموما.

فصل

تأثير الرياء على العبادة

الرياء إما أن يكون مجردا عن قصد القربة والثواب بحيث لولاه وانفرد صاحبه لترك العمل وهو أشد درجات الرياء وأعظمها إثما، أو يكون مع قصدهما فإن كان قصدا ضعيفا مرجوحا بحيث لو كان خاليا عن قصد الرياء لم يبعثاه على العمل، ولو كان قصد الرياء خاليا عنهما بعثه عليه، كان قريبا من سابقه وإن كان مساويا لقصد الرياء بحيث لو كان كل واحد خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل، فالحق كونه مفسدا للعمل أيضا لظواهر الأخبار. وإن كان راجحا على قصد الرياء غالبا عليه بأن يكون قصد الرياء واطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه بحيث لو لم يكن لم يترك العمل، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم على العمل، (فبعض العلماء) على أنه لا يحبط أصل العمل والثواب بل ينقص من الثواب أو يعاقب صاحبه على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب و (فيه نظر) إذ ظواهر الأخبار تفيد أبطاله أصل العمل والثواب لصدق الرياء عليه وصدق المرائي على صاحبه، لقول أمير المؤمنين عليه السلام " ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكمل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في كل أموره " وما تقدم من الأخبار الدالة على أن كل عمل أشرك مع الله تعالى غيره، كان الله منه بريئا ولم يقبله، صريح في المطلوب. وحملها على ما إذا تساوى القصد أو كان قصد الرياء أرجح خلاف الظاهر. ثم الظاهر أن البطلان في هذه الصورة إنما هو إذا رجع قصده إلى حبه اطلاع الناس عليه لتقع منزلة له في قلوبهم، ليتوسل بها إلى نيل غرض من الأغراض الدنيوية، وأما إذا كان سروره وقصده من

اطلاع الناس لأحد المقاصد الصحيحة الآتية فلا بأس به ولا يبطل العمل.
تنبيه
السرور بالاطلاع على العبادة
من كان قصده أخفاء الطاعة والاخلاص لله، فإذا أتفق اطلاع الناس على طاعته فلا بأس بالسرور به، من حيث علمه بأن الله أطلعهم عليه وأظهر الجميل من حاله، فيستدل به على حسن صنع الله به من حيث إنه ستر الطاعة والمعصية، والله تعالى أبقى معصيته على الستر وأظهر طاعته، فيكون فرحه بجميل نظر الله وفضله له لا بمدح الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال الله تعالى:
" قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا " (٣٤).
وكأنه ظهر له بظهور طاعته أنه عند الله مقبول ففرح به. أو من حيث استدلاله بإظهار الله الجميل وستره القبيح في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة، قال رسول الله (ص): " ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة ". فالأول فرح بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل. أو من حيث ظنه رغبة المطلعين في الاقتداء في الطاعة، فيتضاعف بذلك أجره. إذ يكون له أجر السر بما قصده أولا، وأجر العلانية بما أظهره آخرا، ومن اقتدى الناس به في طاعة فله أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شئ. أو من حيث فرحه بطاعة المطلعين لله في مدحهم وحبهم للمطيع، وميل قلوبهم إلى الطاعة، إذ من الناس من يمقت أهل الطاعة ويحسدهم أو يستهزئ بهم وينسبهم إلى الرياء، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله، وعلامة الإخلاص فيه: أن يكون سروره بمدحهم غيره مثل سروره بمدحهم إياه.
ويدل على عدم البأس بالسرور فيما ذكر ما روي: " أن رجلا قال لرسول الله (ص): إني أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه أحد فيطلع عليه فيسرني! قال: لك أجران: أجر السر وأجر العلانية ". وما روي:
" أنه سئل الباقر (ع) عن الرجل يعمل الشئ من الخير فيراه إنسان فيسره

---

(٣٤) يونس الآية: ٥٨

ذلك، قال: لا بأس، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك ". وهذان الخبران بإطلاقهما يدلان على نفي البأس بالسرور لأجل المقاصد المذكورة، ويخصص منهما ما هو المذموم من الفرح الحاصل من اطلاع الناس، وإن كان قصده الإخفاء أولا، وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بحوائجه، وإنما يخصص ذلك منهما مع شمول إطلاقهما له أيضا لمعارض أقوى.

هذا وقد تقدم أن قصده أولا - أي في حال عقد الطاعة - اطلاع الناس عليه وارتياحه به لأحد المقاصد المذكورة لا بأس به أيضا، فعدم البأس لا يختص بطرو القصد والارتياح بعد العقد أو بعد تمام العمل.

ثم كما لا بأس بالسرور من ظهور الطاعات للمقاصد المذكورة، فكذلك لا بأس بكتمان المعاصي واغتمامه باطلاع الناس عليها لأسباب نذكرها، بل الحق رجحان الكتمان ومزيته بعد ارتكابها، وإن كان الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية. ولذا قال بعض الأكابر: " عليك بعمل العلانية وهو ما إذا ظهر لم تستح منه ". وقال بعضهم: " ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط ". إلا أن ذلك درجة عظيمة ليست شرعة لكل وارد، ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد. إذ كل إنسان - إلا من عصمه الله - لا يخلو من ذنوب باطنة، (لا) سيما ما يختلج بباله من الأماني الباطلة والأمور الشهوية، والله مطلع عليها وهي مخفية عن الناس، والسعي في إخفائها وكراهة ظهورها جائز بل راجح، بشرط ألا يكون باعث إخفائها قصد أن يعتقدوا فيه الورع والصلاح، بل كان الباعث:

١ - إما كون السر مأمورا به.

٢ - أو كون الهتك وإظهار المعاصي منهيا عنه. قال رسول الله (ص): " من أرتكب شيئا من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى ". ويعرف صدق ذلك بكراهة ظهورها عن الغير، أو كون ستر الله عليه في الدنيا دليلا على ستره في الآخرة، لما ورد في الخير: " أن من ستر الله عليه في الدنيا ستر الله عليه في الآخرة ".

٣ - أو كون ظهور المعاصي موجبا لذم الناس، والذم يؤلم القلب
ويشغله عن طاعة الله، ويصده عن الاشتغال بتحصيل ما خلق لأجله،
ولكون التألم بالذم جبليا غير ممكن الدفع بسهولة يكون أخفاء ما ظهوره
يؤدي إلى حدوثه جائزا. نعم، كمال الصدق استواء المدح والذم، إلا
أن ذلك قليل جدا، وأكثر الطباع تتألم بالذم، لما فيه من الشعور بالنقصان.
وربما كان التألم بالذم ممدوحا إذا كان الذام من أهل البصيرة في
الدين، فإن ذمه يدل على وجود نقصان فيه، فينبغي أن يتألم منه ويتشمر
لدفعه.
٤ - أو كون الناس شهداءه يوم القيامة، كما ورد فيجوز الإخفاء
لئلا يشهدوا عليه يوم القيامة.
٥ - أو خوف أن يقصد بشر أو بسوء إذا عرف ذنبه.
٦ - أو خوف صيرورة الذام عاصيا بذمه، وهذا من كمال الإيمان،
ويعرف بتسوية ذمه وذم غيره.
٧ - أو خوف سقوط وقع المعاصي من نفسه واقتداء الغير به فيها وهذه
العلة هي المبيحة لإظهار الطاعة، ويختص ذلك بمن يقتدى به من الأئمة وأمثالهم
ولهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي معصيته من أهله وولده أيضا، لئلا
يقتدوا به فيها.
٨ - أو حبة محبة الناس له للتوسل بها إلى الأغراض الدنيوية، بل
ليستدل بها على محبة الله تعالى له، لأن من أحبه الله تعالى جعله محبوبا
في قلوب الناس.
٩ - أو مجرد الحياء من ظهور قبائحه وهو غير خوف الذم والقصد
بالشر، إذ هو من فضائل الأخلاق ومن كريم الطبع قال رسول الله (ص):
" الحياء خير كله ". وقال الصادق (ع): " الحياء شعبة من الإيمان ".
وقال (ص): الحياء لا يأتي إلا بالخير ". وقال (ص): " إن الله تعالى يحب
الحي الحليم ". ومن صدر عنه فسق ولم يبال بظهوره للناس، فقد جمع
إلى الفسق الهتك وعدم الحياء - أعني الوقاحة - فهو أسوأ حالا ممن يفسق
ويستحي فيستره.

ثم كثيرا ما يشتبه الحياء بالرياء، فيدعي من يرائي بأنه يستحي، وإن تركه السيئات أو إخفاءها أو تحسينه للعبادات إنما هو لأجل الحياء من الناس دون الرياء، وذلك كذب. وبيان ذلك: إن الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، ويمكن أن يهيج عقيبه داعية الرياء فيرائي معه، ويمكن أن يهيج داعية الإخلاص فيجمعه إليه. مثلا من طلب من صديقه قرضا، فإن رده صريحا من غير مبالاة ومن دون أن يتعلل ارتكب الوقاحة وعدم الحياء وإن أعطاه بمجرد انقباض نفسه من استشعار قبح رده مشافهة من دون رغبة في الثواب ولا خوف من ذمه أو حب إلى مدحه حتى لو طلبه مراسلة أو بتوسط غيره من الأجانب لرده، فإعطاؤه هذا صادر عن مجرد الحياء من دون ترتب رياء أو إخلاص عليه. وإن تعسر عليه الرد للحياء وكان ما في نفسه من البخل مانعا من الاعطاء فحدث خاطر الرياء، ويخاطب نفسه بأنه ينبغي أن تعطيه حتى يمدحك بالسخاء ولا يذمك بالبخل فأعطاه لذلك فهو مزج الرياء بالحياء، والمحرك للرياء هو هيجان الحياء. وإن تعسر عليه الرد للحياء والإعطاء للبخل، فهيج باعث الإخلاص، ويقول له الصدقة بواحدة والقرض بثمانية، ففيه أجر عظيم، وإدخال السرور على قلب مسلم صديق من أقرب القربات، فسخت نفسه بالاعطاء، فهو جمع بين الحياء والاخلاص ثم الحياء لا يكون إلا في القبائح الشرعية أو العقلية أو العرفية، كالبخل ومقارفة الذنوب والظلم وصدور بعض الحركات القبيحة عرفا في المحافل، والرياء يكون في المباحات أيضا، حتى أنه لو عاد الضحك إلى الانقباض والمستعجل في المشي إلى الهدوء بعد اطلاع الناس كان مرائيا، وربما ظن أن باعث ذلك هو الحياء وهو الجهل، إذ باعثه مجرد الرياء وما قيل: إن بعض الحياء ضعف، فالمراد أن الحياء مما ليس بقبيح ناش من ضعف النفس، كالحياء من وعظ الناس وإقامة الصلاة ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا إذا وجد عذر يحسن الحياء معه، كأن يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، ولو استحيى من الله ولا يضيع الأمر بالمعروف لكان أحسن. وأقوياء النفوس من أهل الإيمان يؤثرون الحياء من الله على الحياء من الخلق، وأما ضعفاء النفوس منهم فقد لا يقدرون

على ذلك.

فصل

متعلقات الرياء

الرياء إما بأصل الإيمان، وهو إظهار الشهادتين مع التكذيب باطنا، وهذا هو النفاق، وقد كان في صدر الإسلام كثيرا، وقل ما يوجد في أمثال زماننا، وإن كثر فيه إنكار بعض ضروريات الدين، كالجنة والنار والثواب والعقاب واعتقاد في بساط أحكام الشرع باطنا، ميلا إلى قول الملاحدة وأهل الإباحة، مع إظهار الخلاف ظاهرا، وهذا أيضا معدود من كفر النفاق، وصاحبه ينسل عن الدين مخلد بالنار. وصاحب كفر النفاق مطلقا أسوأ حالا من الكافر المحارب، لأنه جمع بين الكفر الباطن والنفاق
مطلقا أسوأ حالا من الكافر المحارب، لأنه جمع بين الكفر الباطن والنفاق
الظاهر. أو بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، كأن يصلي في الملأ دون الخلوة، ويصوم مع اطلاع الناس عليه ويفطر بدونه، ومثله وإن لم ينسل من أصل الدين، إلا أنه شر المسلمين، لترجيحه الخلق على الخالق، وكون التقرب إليهم أحب من التقرب لديه، وكون خوفه من ذمهم أشد من خوفه من عقابه سبحانه. أو بالنوافل والسنن، وهذا أيضا مذموم مهلك، ولكنه دون ما قبله، لأن صاحبه وإن قدم مدح الخلق على مدح الخالق، إلا أنه لم يقدم خوف ذمهم على خوف عقابه، لعدم ترتب عقاب على ترك النافلة. أو بأوصاف العبادة الواجبة أو المستحبة، كفعل ما في تركه نقصان أو كراهة أو ترك ما في فعله أحدهما أو بزيادات خارجة عن نفس النوافل، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الأول، وأمثال ذلك. وكل ذلك مذموم، إلا أن بعضه أشد من بعض.

فصل

بواعث الرياء

باعث الرياء إما التمكن من المعصية، كإظهار الورع والتقوى لتفوض إليه الحكومة والقضاء، لينال الجاه والاستيلاء، ويحكم بالجور، ويأخذ الرشا، أو تسلم إليه الودائع والصدقات وأموال اليتامى وأمثال ذلك، فيأخذ

لنفسه منها ما يقدر عليها، وكحضوره مجالس العلم والوعظ والتعزية لملاحظة النسوان والصبيان، وهذا أشد درجات الرياء إثما، ويقرب منه إظهار الديانة والتقوى ليدفع عن نفسه تهمة ما اقترفه من الجرائم، أو نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، كالاشتغال بالوعظ والتذكير والإمامة والتدريس وإظهار الصلاح والورع، لتستبذل له الأموال وترغب في تزويجه النسوان أو خوف أن ينظر إليه بعين النقص والحقارة، أو ينسب إلى الكسالة والبطالة كترك العجلة والضحك بعد اطلاع الناس عليه، خوفا من أن يعرف باللهو والهزل فيستحقر، وكالقيام للتهجد وأداء النوافل إذا وقع بين المجتهدين والمتنفلين لئلا ينسب إلى الكسالة، ولو خلى بنفسه لم يتنفل مطلقا، وكذا الامتناع من الأكل والشرب في اليوم الذي يصام فيه تطوعا، وتصريحه بأني صائم، خوفا من أن ينسب إلى البطالة، وربما لم يصرح بكونه صائما، بل يقول: لي عذر، وحينئذ قد جمع بين رياءين: الرياء بكونه صائما، والرياء بكونه مخلصا غير مراء. ثم إن ألجأته الكسالة والشهوة إلى عدم القيام إلى النوافل وعدم الصبر عن الأكل والشرب، ذكر لنفسه عذرا، تصريحا أو تعريضا، كأن يتعلل الترك بمرض أو ضعف أو شدة العطش أو تطييب خاطر فلان، وقس عليها غيرها من الكلمات والأعذار، فإنها لا تسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في النفس، والمخلص لا يريد غير الله والتقرب إليه، ولا يعتني بالخلق وحصول المنزلة في قلوبهم، فإن لم يصم لم يحب أن يعتقد غيره فيه ما يخالف علم الله ليكون ملبسا، وإن صام قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره. ثم هذه البواعث لما كان بعضها صادرا من رداءة قوة الغضب وبعضها من رداءة قوة الشهوة، فيكون بعض أنواع الرياء من رذائل الأولى وبعضها من رذائل الثانية.

تنبيه

الرياء الجلي والخفي

الرياء جلي وخفي، والجلي: ما يبعث على العمل لولا قصد الثواب والخفي: ما لا يبعثه بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذي أريد به التقرب في الخلوة، ويعرف بالسرور إذا أطلع عليه الناس، لا للمقاصد المتقدمة، بل

لطلب نوع منزلة في قلوب الناس، ويتوقع التعظيم والتوقير وقضاء الحوائج منهم ووجدان الاستبعاد من نفسه لو قصر في احترامه، كأن نفسه تتقاضى الاكرام والاحترام على الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه أحد.
ولا شك أن هذا التقاضي لا ينفك عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، ولو كان عنده وجود الطاعة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق وقنع بعلم الله فيها لم يكن لهذا التوقع وجه. فعلامة خلوص العمل من الرياء ألا يجد تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة، ومهما وجد تفرقة في ذلك فلا يكون منفكا عن توقع ما (عن) (٣٥) الناس في طاعته، وذلك مما يحبط العمل. قال أمير المؤمنين (ع): " إن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبدأون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ فلا أجر لكم، قد استوفيتم أجوركم! ".

فصل

كيف يفسد الرياء العمل

لو عقد العمل على الإخلاص واستمر إلى الفراغ، لم يحبطه السرور بظهوره بعده، لا من قبله كما دل عليه بعض الظواهر السالفة. ولا يعصى به أيضا إن كان لأجل أحد المقاصد السالفة، ويكتب له معصية إن كان لظنه حصول منزلة له في القلوب. ولو كان ظهوره بعده من نفسه بالتحدث مع الرغبة والسرور بذلك، فربما قيل بإحباطه العمل، إذ حب التحدث به يدل على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد خفي من الرياء. وقد أيد ذلك بما روي: " أن رجلا قال للنبي (ص): إني صمت الدهر. فقال صلى الله عليه وآله: لا صمت ولا أفطرت! ". وما روي: " أن ابن مسعود سمع رجلا يقول: قرأت البارحة سورة البقرة. فقال: ذلك حظه منها ".
والظاهر أنه لا يحبط عمله، بل يثاب عليه، وإن عوقب على ما صدر منه بعد الفراغ من الرياء. والتعليل لو تم لا يفيد البطلان، إذ العقد الذي لم يشعر به صاحبه لا يؤاخذ به، وإلا لزم التكليف بالمحال. والخبر لو صح

---

(٣٥) كذا في النسخ، ولعل " عند " مكان " عن "

فإنكاره (ص) لأجل كراهية صوم الدهر لا لإظهاره. وقول ابن مسعود لو ثبت لا حجية فيه.

ولو عقد العمل على الإخلاص، وورد في أثنائه وارد السرور بأطلاع بعض الناس عليه، فإن لم يكن باعثا على العمل ومؤثرا فيه بحيث لو لم يحدث لأتم العمل على الإخلاص من غير فتور، وكان أيضا لأحد المقاصد الصحيحة المتقدمة، فلا بطلان ولا إثم، لما تقدم من الأخبار. وإن لم يكن باعثا ولكن لم يكن لشئ من المقاصد المذكورة، بل كان لظنه نيل الجاه أو المال بالظهور، فالحق بطلان العمل وكونه آثما للعمومات السالفة. وإن كان باعثا ومؤثرا فهو الرياء المحرم، سواء كان غالبا على قصد التقرب أو مساويا له أو مغلوبا عنه، فيحبط العمل وعليه الإعادة لو كان فريضة، لما تقدم من العمومات، ولقوله (ص): " العمل كالوعاء، إذا طاب آخره طاب أوله ". وقوله (ص): " من راءى بعمله ساعة، حبط عمله الذي كان قبله ". ثم هذا في العمل المركب الذي له أجزاء، ويتوقف صحته على صحة كل واحد منها، كالصوم والصلاة والحج. وأما العمل الذي كل جزء منه منفرد، كالصدقة والقراءة، فما يطرأ من الرياء في أثنائه إنما يفسد الباقي دون الماضي فطرؤه فيه في الأثناء بالنسبة إلى الماضي كطروئه بعد الفراغ في الأول. وهذا حكم الرياء الطاري بعد عقد الطاعة على الإخلاص أو قبله، سواء لم يرجع عنه حتى يتمها، أو ندم بعده في الأثناء أيضا ورجع واستغفر وأما المقارن حال العقد، بأن يبتدي بالصلاة مثلا على قصد الرياء، فإن أتمها عليه فلا خلاف في كونه آثما وعدم الاعتداد بها. وإن ندم عليه في الأثناء ورجع واستغفر، فإن مجرد القصد إلى الغير الباعث إلى اطلاع الناس لبعض المقاصد المتقدمة وارتياحه به فلا بأس به ولا يحبط العمل، وإن كان غير ذلك أفسده، سواء في ذلك جميع شقوقه المتقدمة، كما علم وجهه.

فائدة

شوائب الرياء مبطلة للعمل

لما كان المناط في الأعمال، صحة وفسادا، هو القصد والنية، إذ

الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فكل عمل تدخله شوائب الرياء فهو فاسد، سواء وقع سرا أو علانية، وكل عمل كان خالصا لله وأمن صاحبه من دخول الرياء فيه فلا بأس بإسراره ولا بإظهاره. ثم لو تعلق قصد صحيح بإظهار نفس العمل أو التحدث به بعد الفراغ عنه، كترغيب الناس في الخير وتنبيههم على الاقتداء به فيه، كان إظهاره أفضل من أسراره بشرط عدم اشتماله على رياء أو فساد آخر، كإهانة الفقير في التصدق، ولو اشتمل على شئ من ذلك، كان أسراره أفضل من إعلانه، وبذلك يجمع بين الأقوال والأخبار.

والحاصل: أنه متى انفك القلب عن شوائب الرياء، بحيث يتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين، فما فيه القدوة وهو العلانية أفضل ومهما حصلت فيه شوائب الرياء لم ينفعه اقتداء غيره، لكونه مهلكا له، فالسر أفضل منه. فعلى من يظهر العمل أن يعلم أو يظن أنه يقتدى به، وأن يراقب قلبه لئلا يكون فيه حب الرياء الخفي، فربما أظهر العمل لعذر الاقتداء وكان في نفسه قصد التجمل بالعمل وكونه مقتدى به، وهذا حال كل من يظهر العمل، إلا من أيده الله بقوة النفس وخلوص النية، فلا ينبغي لضعيف النفس أن يخدع نفسه فيضل ويضل ويهلك ويهلك من حيث لا يشعر. فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يعلم سباحة ضعيفة، فينظر إلى جماعة من الغرقى فيرحمهم، وأقبل عليهم لينجيهم، فتشبثوا به، وهلك وهلكوا. وهذه المواضع مزال أقدام العلماء والعباد، فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص، فتحبط أجورهم بالرياء. ودرك ذلك غامض جدا لا يبلغه إلا الخائضون في غمرات علم الأخلاق. ويعرف الخلوص في ذلك بألا يتفاوت حاله باقتداء الناس به وبغيره من أقرانه وأمثاله، فإن كان قلبه أميل إلى أن يكون هو المقتدى به، فإظهاره العمل غير خال عن شوائب الرياء.

إيقاظ

لما عرفت أن المناط في صحة الأعمال وفسادها هو القصد والنية، تعلم أن كل عمل لم يكن خالصا لوجه الله وأريد به غيره سبحانه ينبغي أن يترك

ويعرض عنه، وإن كان خالصا له تعالى مقصودا على قصد صحيح، لا ينبغي تركه لمجرد بعض الوساوس والخواطر الشيطانية. فإن الشيطان يدعو أولا إلى ترك العمل فإن لم يجب يدعو إلى الرياء، فإذا أيس منه يقول: هذا العمل ليس خالصا، بل هو رياء، فأي فائدة منه؟!.

ثم الأعمال إما من الطاعات اللازمة التي لا تعلق لها بالغير، كالصلاة والصوم والحج وأمثالها، أو من الطاعات المتعدية التي لها تعلق بالخلق، كالإمامة والقضاء والحكومة والإفتاء الوعظ والتذكير والتعليم والتدريس وإنفاق المال وغير ذلك.

والقسم الأول: إن دخله الرياء قبل الفعل، بأن يكون باعثه الرياء دون الخلوص والقربة، فينبغي أن يترك ولا يشرع فيه، وإن دخله بعد العقد أو معه، فلا ينبغي أن يترك، لأنه وجد له باعث ديني، وإنما طرأه باعث الرياء، فليجاهد في دفع الرياء وتحصيل الإخلاص، ويرد نفسه إليه قهرا بالمعالجات التي نذكرها. ومهما كان في مقام المجاهدة مع نفسه معاتبا لها قاهرا عليها في ميلها إلى الرياء، ووجد عن طبعه كراهية هذا الميل، فالنجاة في حقه مرجوة، ولعل الله يسامحه بعظيم رحمته. وأما إذا لم يكن في مقام المجاهدة، ولم يكن كارها مما يجد في نفسه من الميل إلى الرياء، بل أعطى زمام الاختيار إلى النفس الأمارة، وهي ترائي في الأعمال، وهو يتبعها في ذلك من غير قهر عليها وكراهية لفعلها، فلا ريب في فساد أعماله وأولوية تركها، وإن كان باعثها ابتداء محض القربة ودخلها الرياء مع العقد أو بعده.

وأما القسم الثاني: المتعلق بالخلق - أعني أمامة الصلاة والقضاء والتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد وأمثال ذلك - فأخطارها عظيمة، ومثوبتها جسيمة. فمن له أهلية ذلك من حيث العلم - إن كان ذا نفس قوية لا يعتني بالناس ولا تزعجها وساوس الخناس وله معرفة تامة بعظمة ربه وقدرته وسائر صفاته الكمالية، بحيث شغله ذلك عن الالتفات إلى الخلق وما في أيديهم حتى يرائي لأجلهم أو يختار رضاهم على رضا ربه - فالأولى لمثله ألا يترك هذه المناصب ليفوز بمثوبتها العظيمة. وإن كان ذا نفس

ضعيفة، كخيط مرسل في الهواء تفيئها (٣٦) الريح مرة هكذا ومرة هكذا، فهو لا يأمن الرياء وسائر أخطارها. فاللازم لمثله تركها. ولذلك كان أهل اليقين من السلف يتدافعون هذه المناصب ما وجدوا إليه سبيلا. وورد
ما ورد من الأخبار في عظيم خطرها كثرة آفاتها ولزوم التثبت والاحتياط لمن يزاولها وما ورد من الوعيد الشديد في حق علماء السوء يكفي للزوم الحذر عن فتن العلم وغوائله. ومما يقصم ظهور أمثالنا من الذين يقولون ما لا يعلمون ويأمرون بما لا يفعلون، قول عيسى بن مريم - عليهما السلام -:
" يا علماء السوء! تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون: وتدرسون ما لا تعلمون فيا سوء ما تحكمون! تتوبون بالقول والأماني، وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة! بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة! كذلك أنتم! تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم!
يا عبيد الدنيا! كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته! بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة! فأي ناس أخس منكم لو تعلمون! ويلكم! حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم! مهلا مهلا! ويلكم! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة. يا عبيد الدنيا! توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم! يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى! فيوقفكم على سوآتكم، ثم يخزيكم بسوء أعمالكم!! " (٣٧)
هذا ويعرف الصادق المخلص من أهل هذه المناصب بأنه إذا ظهر من هو

---

(٣٦) وفي نسختنا الخطية (تعليها).
(٣٧) روي هذا الحديث في (إحياء العلوم): ٣ / ٢٨١، فصححناه عليه. وهو يرويه عن (الحارث المحاسبي).

أعدل وأحسن وعظا وأكثر علما منه وأشد قبولا للناس فرح به ولم يحسده، وإذا حضر الأكابر والأعاظم مجلسه أو اقتدوا به لم يتغير كلامه ولم يتفاوت حاله، بل يبقى على ما كان عليه، وينظر إلى عباد الله بعين واحدة.

(تنبيه): لما عرفت حقيقة الرياء، تعلم أنه إذا صار عمل بعض الصالحين أو قولهم محركا لغيرهم على الاشتغال بالطاعة لم تكن هذه الطاعة رياء إذا عقدت على الخلوص، وإن لم يكن هذا الغير ليفعل هذه الطاعة إذا لم يشاهدها من بعض الصالحين أو لن يسمعها منه. فمن لم تكن عادته التهجد وباب مع قوم متهجدين في موضع، فإذا قاموا للتهجد انبعث نشاطه للموافقة ووافقهم في التهجد، ولم يكن ذلك رياء بعد أن يكون قصده منه الثواب والتقرب إلى الله، إذ كل مؤمن راغب في عبادة الله وفي قيام الليل، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الغفلة، فإذا شاهد قوما يتهجدون ربما صارت مشاهدة طاعتهم سببا لزوال غفلته، كما يصير قولهم ووعظهم سببا لذلك فيتحرك باعث الدين دون الرياء ويدعوه إلى موافقتهم. وربما كان الموضع مما ليس فيه عائق، فيغتنم الفرصة ويبعثه ما فيه من الإيمان إلى الطاعة. وقس على التهجد غيره: من الصوم، والتصدق، والقراءة، والذكر، وغيرها من أعمال البر.

فصل

علاج الرياء

لما كانت الأسباب الباعثة على الرياء هي حب لذة المدح والفرار من ألم الذم والطمع بما في أيدي الناس، فالطريق في علاجه أن يقطع هذه الأسباب وقد تقدم طريق العلاج في قطع الأولين، ويأتي طريق إزالة الثالث. وما نذكره هنا من العلاج العلمي للرياء، هو أن يعلم أن الشئ إنما يرغب فيه لكونه نافعا، وإذا علم أنه ضار ليعرض عنه البتة. وحينئذ، فينبغي لكل مؤمن أن يتذكر مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من المقت والعذاب ومتى تذكر ذلك وقابل ما يحصل له في الدنيا من الناس الذين راءى لأجلهم بما يفوته في الآخرة من ثواب الأعمال، لترك الرياء لا محالة. مع أن العمل

الواحد ربما تترجح به كفة حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات، فتترجح به ويهوي إلى النار، هذا مع أن المرائي في الدنيا متشتت الهم متفرق البال بسبب ملاحظة قلوب الناس، فإن رضاهم غاية لا تدرك، وكلما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل مدحهم ولا يزيده مدحهم رزقا ولا إجلالا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة؟! ومن كان رياؤه لأجل الطمع بما في أيدي الناس، ينبغي أن يعلم أن الله هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وإن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل عن الذل والخسة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، وإذا قرر ذلك في نفسه ولم يكن منكرا لأمسه، زالت غفلته وفترت عن الرياء رغبته وأقبل على الله بقلبه، وانقطع بشراشره إلى جناب ربه. ويكفيه أن يعلم أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إليهم، ولو أخلص لله لكشف لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بمدحه وثنائه، مع أنه لا يحصل له كمال بمدحهم ولا نقصان بذمهم.

ثم من تنور قلبه بنور الإيمان وانشرح صدره باليقين والعرفان، وعرف معنى الواجب وحقيقة الممكن، وتيقن بأن الواجب - أي الحقيقة التي تقتضي بنفس ذاته التحقق والبقاء، وهم صرف الوجود - يجب أن يكون تاما فوق التمام، ولا يتصور حقيقة أتم كمالا منه، والحقيقة التي هذا شأنها يجب أن يكون ما سواها بأسره مستندا إليها وصادرا عنها على أشرف أنحاء الصدور وأقواها. وهذا النحو الأشرف الأقوى الذي لا يتصور نحوه أقوى منه في الاختراع وأدل منه على كمال عظمة الموجد وقدرته، وهو كون ما سواه سبحانه من الموجودات، إما اعتبارات وشؤونات لدرجات ذاته وإشراقات لتجليات صفاته، كما ذهب إليه قوم، أو كونها ماهيات إمكانية اختراعية علما وعينا، صادرة عنه سبحانه بوجودات خاصة متعددة ارتباطية

بمحض أرادته ومشيته، كما ذهب إليه آخرون (٣٨). ولو لم يكن غيره من الموجودات مستندا إليه على أقوى أنحاء الاستناد، لم يكن تاما فوق التمام إذ تكون الذات التي يستند الكل إليها بأحد النحوين أكمل منه وأشرف. وإذا عرف أنه سبحانه كذلك، يعرف أنه ليس في الوجود حقيقة أحد سواه وغيره حقيقته العدم وما له من الوجود والظهور منه سبحانه، وبعد هذه المعرفة لا يختار غيره تعالى عليه، ويعلم أن العباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يملكون موتا ولا حياة، فلا يتغير قلبه بمشاهدة الخلق، ولا يلتفت إليهم إلا بخطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله.

وأما العلاج العملي، فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وذلك وإن شق في بداية المجاهدة، لكن إذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه بتواصل ألطاف الله وما يمده به عبادة من حسن التوفيق والتأييد:

" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٣٩).

فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية:

" إن الله لا يضيع أجر المحسنين " (٤٠).

تتميم

القالع مغارس الرياء من قلبه يقطع الطمع واستحقار مدح الناس وذمهم

---

(٣٨) القول الأول مبني على أصالة الوجود، والثاني على أصالة الماهية.
وهذا البحث الذي ذكره المؤلف من دقائق الفلسفة الإلهية وأعلاها، ولقد أحسن فيه البيان جدا. فإنه مبني على فهم معنى واجب الوجود لذاته، وهو الذي يكون ذاته بذاته، مع قطع النظر عن كل ما عداه، ومن حيث هو هو منشأ لانتزاع أنه موجود، فلذلك يجب أن يكون صرف الوجود أنه لا شئ له الوجود وإلا لكان ممكنا، ويجب أن يكون متصفا بجميع الكمالات بل أكمل الكمالات ومن جملتها أن تكون الموجودات مستندة إليه على أقوى أنحاء الاستناد وإذا لم يتصف بجميع الكمالات لا يتصف بإعدامها، فيدخل في حقيقته العدم، فلم يكن صرف الوجود، فلم يكن واجب الوجود لذاته، وهذا خلاف الفرض، أو بهذه الطريقة يستدل على اتصافه بجميع صفات الجمال والجلال.

(٣٩) الرعد الآية: ١١.

(٤٠) التوبة، الآية: ١٢

ربما يتركه الشيطان، (لا) سيما في أثناء العبادة فعارضه بخطرات الرياء ونزعاته، حتى أحدث في قلبه ميلا خفيا إلى الرياء وحبا له. والحق أن ذلك ليس من الرياء المحرم، ولا تفسد به العبادة، مع كونه كارها لهذا الميل والحب وقاهرا على نفسه ماقتا لها في تأثرها وتغيرها عن نزعات الشيطان ومنازعا للشيطان ومجاهدا إياه لدفع خطراته، لأن الله لم يكلف عباده إلا ما يطيقون، وليس في وسعهم منع الشيطان عن نزعاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى شهواته، وغاية ما يقدرون عليه أن يقابلوا نزعاته وميل الطبع بالكراهة والقهر على النفس في هذا الميل، مع المجاهدة في دفع ذلك بتذكر المعالجات المقررة لدفع الرياء والوساوس، وإذا فعلوا ذلك أدوا ما يجب عليهم. ويدل على ذلك أيضا ما تقدم من الأخبار الدالة على عدم المؤاخذة بمجرد الوسوسة، وقول النبي (ص): " الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة ". فوسوسة الشيطان وميل النفس لا يضران مع ردهما بالكراهية والإباء، إذ الوساوس والخواطر والتذكرات والتخيلات المهيجة للرياء من الشيطان، والميل والرغبة بعد تلك الخواطر من النفس، والإباء والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل فلا يضر ما من النفس والشيطان إذا قوبل بما من العقل والإيمان. ولذا قال بعض الأكابر: " ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك، فلا يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه ".

ثم الطرق المتصورة في دفع خطرات الرياء في أثناء العبادات مع كراهتها أربع:

الأولى - أن يشتغل بمجادلة الشيطان في رد نزعاته، ويطيل معه الجدال

الثانية - أن يقتصر من تكذيب الشيطان ودفعه من غير اشتغال بمجادلته

الثالثة - ألا يشتغل بتكذيبه أيضا، بل يكتفي بما قرر في عقد ضميره من كراهة الرياء وكذب الشيطان، فيستمر على ما كان عليه مستصحبا له غير مشتغل بالمخاصمة والتكذيب.

الرابعة - أن يزيد فيما هو من الإخلاص والاشتغال بالله، أو ما يؤدي إليهما، كإخفاء العبادة والصدقة غيظا للشيطان، لأن ذلك يغيظ الشيطان

ويوجب يأسه، ومهما عرف من العبد هذه العادة، كف عنه خوفا من أن يزيد في حسناته.

ولا ريب في أن الاشتغال بالمجادلة والتكذيب وإطالتهما يمنع الحضور ويصد عن التوجه إلى الله، وهو نقصان لأهل السلوك، فالصواب لكل مؤمن أن يقرر دائما في عقد ضميره كراهية الرياء وتكذيب الشيطان، ويعزم أبدا على أنه إذا تهجم عليه الشيطان وعارضه بنزعات الرياء زاد ما هو فيه مما يغيظ الشيطان ويوجب يأسه، فإذا حدثت خطرات الشيطان في الأثناء، اكتفى بما عقد عليه أولا مستصحبا له، وزاد في الإخلاص وما يؤدي إليه فإن ذلك يوجب قنوط الشيطان. وإذا عرف العبد بهذه الصفة لا يتعرض له لئلا يزيد فيما يغيظه وينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا ديدنه في جميع الصفات والملكات، مثلا إذا حصل اليقين والعقيدة الجازمة بالمبدأ وصفاته الكمالية، وقرر ذلك في نفسه وأثبت في قلبه كراهية الشك وخطور الوساوس، في أثناء عبادة أو غيرها، ينبغي ألا يشتغل بطول المجاهدة مع الشيطان، ويكفي بما تقرر في قلبه من اليقين وكراهية الشك والوسوسة، معتقدا بأن هذه الوساوس لا أصل لها ولا عبرة بها. وكذا إذا قرر في نفسه النصيحة للمسلمين وكراهية الحسد، فإذا أوقع الشيطان نزعات الحسد في قلبه، ينبغي ألا يلتفت إليها، ويستصحب ما كان عليه من النصيحة والكراهة، وقس عليها سائر الصفات والأخلاق.

ثم مثل من يشتغل بطول المجاهدة مع الشيطان مثل من قصد مجلسا من مجالس العلم والوعظ لينال فائدة وهداية فعارضه ضال فاسق ودعاه إلى مجلس فسق فأبى وأنكر عليه، فإذا عرف الضال أباه، اشتغل بالمجادلة معه، وهو أيضا يساعده على ذلك ليرد ضلاله، ظانا أن ذلك مصاحبته، مع أنه غرض الضال إذ قصده من المجادلة أن يؤخره عن نيل مقصوده. ومثل من يشتغل بالتكذيب مثل من لا يشتغل بالقتال مع الضال بعد دعوته إلى مجلس الضلال بل وقف بقدر أن يدفع في منحره، وذهب مستعجلا، ففرح الضال بقدر توقفه للدفع. ومثل من يكتفي بعقد الضمير مثل من لم يلتفت إلى الضال بعد دعوته أصلا، واستمر على ما كان عليه من المشي. ومثل من يزيد فيما كان له من الإخلاص أو ما يؤدي إليه مثل من يزيد في عجلته بعد دعوته ليغيظه. ولا ريب في أن الضال

يمكن أن يعاود الجميع في الدعوة إلى الضلالة إذا مروا عليه مرة أخرى إلا الأخير، مخافة أن يزداد فائدة باستعجاله.

وصل

الإخلاص وحقيقته

ضد الرياء الإخلاص، وهو تجريد القصد من الشوائب كلها. فمن عمل طاعة رياء فهو مراء مطلق، ومن عملها وانضم إلى قصد القربة قصد غرض دنيوي انضماما غير مستقل فعله مشوب غير خالص، كقصد الانتفاع بالحمية من الصوم، وقصد التخلص من مؤنة العبد أو سوء خلقه من عتقه، وقصد صحة المزاح أو التخلص من بعض الشرور والأحزان من الحج، وقصد العزة بين الناس أو سهولة طلب المال من تعلم العلم، وقصد النظافة والتبرد وطيب الرائحة من الوضوء والغسل، والتخلص عن إبرام السائل من التصدق عليه، وهكذا. فمتى كان باعث الطاعة هو التقرب ولكن انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات، خرج عمله من الإخلاص. فالإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها، كثيرها وقليلها. والمخلص من يكون عمله لمحض التقرب إلى الله سبحانه، من دون قصد شئ آخر أصلا. ثم أعلى مراتب الإخلاص. وهو الإخلاص المطلق وإخلاص الصديقين إرادة محض وجه الله سبحانه عن العمل، دون توقع غرض في الدارين. ولا يتحقق إلا لمحب لله تعالى مستهترا به، مستغرق الهم بعظمته وجلاله، بحيث لم يكن ملتفتا إلى الدنيا مطلقا. وأدناها - وهو الإخلاص الإضافي - قصد الثواب والاستخلاص من العذاب، وقد أشار سيد الرسل (ص) إلى حقيقة الإخلاص بقوله: " هو أن تقول ربي الله ثم تستقم كما أمرت (٤١) تعمل لله، لا تحب أن تحمد عليه! أي لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيم في عبادتك كما أمرت ". وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله سبحانه عن مجرى النظر، وهو الإخلاص حقا. ويتوقف تحصيله على كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد في الآخرة، بحيث ما

---

(٤١) إشارة إلى قوله تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وآله: " فاستقم كما أمرت ".

يغلب ذلك على القلب والتفكر في صفات الله تعالى وأفعاله والاشتغال بمناجاته حتى يغلب على قلبه نور جلاله وعظمته، ويستولي عليه حبه وأنسه، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى، ويكون فيها مغرورا لعدم عثوره على وجه الآفة فيها، كما حكي عن بعضهم أنه قال: " قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول، لأني تأخرت يوما لعذر وصليت في الصف الثاني، فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان يسرني، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر ". وهذا دقيق غامض، وقلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له، والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى:
" وبدا لهم سيئات ما عملوا " (٤٢). " وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون " (٤٣). وبقوله: " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " (٤٤).

فصل

مدح الإخلاص

الإخلاص منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين. وهو الكبريت الأحمر، وتوفيق الوصول إليه من الله الأكبر، ولذا ورد في فضيلته ما ورد من الآيات والأخبار، قال الله تعالى.
" وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " (٤٥) وقال: " ألا لله الدين الخالص " (٤٦). وقال: " إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله " (٤٧). وقال: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا

---

(٤٢) الجاثية، الآية: ٣٣

(٤٣) الزمر الآية: ٤٧.

(٤٤) الكهف الآية: ١٠٣، ١٠٤

(٤٥) البينة الآية: ٥.

(٤٦) الزمر الآية: ٣

(٤٧) النساء، الآية: ١٤٦

صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " (٤٨).
نزل فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه.
وفي الخبر القدسي: " الإخلاص سر من أسراري، استودعته قلب من أحببت من عبادي " وقال رسول الله (ص) " أخلص العمل يجزيك منه القليل ". وقال (ص): ما من عبد يخلص العمل الله تعالى أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ". وقال (ص): " ثلاث لا يغل عليهن ": وعد منها قلب رجل مسلم أخلص العمل لله عز وجل. وقال أمير المؤمنين (ع): " لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول ". وقال أمير المؤمنين (ع): " طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره! ". وقال الباقر (ع): " ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوما - أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوما - إلا زهده الله تعالى في الدنيا وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه ".
وقال الصادق (ع) في قول الله عز وجل:
" ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٤٩):
" ليس يعني أكثركم عملا، ولكن أصوبكم عملا. وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة ".. ثم قال: " الايفاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل ".. ثم تلا قوله عز وجل " قل كل يعمل على شاكلته ": يعني على نيته.
وقال الصادق (ع): " الإخلاص يجمع فواضل الأعمال، وهو معنى مفتاحه القبول وتوفيقه الرضا، فمن تقبل الله منه ورضي عنه فهو المخلص وإن قل عمله، ومن لا يتقبل الله منه فليس بمخلص وإن كثر عمله، واعتبارا بآدم (ع) وإبليس. وعلامة القبول وجود الاستقامة يبذل كل المحاب مع

---

(٤٨) الكهف، الآية: ١١٠
(٤٩) صححنا الأخبار المروية عن أهل البيت - عليهم السلام - على (الكافي): باب الإخلاص. وعلى (الوافي): ٣ / ٣٢٨، ٣٢٩ باب الإخلاص

إصابة علم كل حركة وسكون، والمخلص ذائب روحه باذل مهجته في تقويم ما به العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل، لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك ذلك الكل، وإذا فاته ذلك فاته الكل، وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد كما قال الأول: هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالمون وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلصون، وهلك المخلصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون، وإن الموقنين لعلى خطر عظيم! قال الله لنبيه (ص): اعبد ربك حتى يأتيك اليقين. وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدرا فيوجب به على ربه مكافأة بعمله، لعمله أنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز، وأدنى مقام المخلص في الدنيا السلامة في جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة " (٥٠).

ومن تأمل هذه الأخبار وفي غيرها مما لم يذكر، يعلم أن الإخلاص رأس الفضائل ورئيسها، وهو المناط في قبول الأعمال وصحتها، ولا عبرة بعمل لا إخلاص معه، ولا خلاص من الشيطان إلا بالإخلاص، لقوله: " إلا عبادك منهم المخلصين " (٥١).

وما ورد في الإسرائيليات من حكاية العابد والشيطان والشجرة مشهور وفي الكتب مسطور (٥٢).

فصل

آفات الإخلاص

الآفات التي تكدر الإخلاص وتشوشه لها درجات في الظهور والخفاء أجلاها الرياء الظاهر. ثم تحسين العبادة والسعي في الخشوع فيها في الملأ دون الخلوة ليتأسى به الناس، ولو كان عمله هذا خالصا لله لم يتركه في الخلوة، إذ من يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرتضي لغيره

---

(٥٠) صححنا الرواية على " مصباح الشريعة ": الباب ٧٧ وعلى (البحار): مج ١٥: ٢ / ٨٦ باب الإخلاص عن " مصباح الشريعة ".

(٥١) الحجر الآية: ٤٠

(٥٢) راجع " إحياء العلوم ". ٤ / ٣٢٢

تركه، فكيف يرتضي ذلك لنفسه في الخلوة؟ ثم تحسينها في الخلوة أيضا بقصد التسوية بين الخلوة والملأ، وهذا من الرياء الغامض، لأنه حسن عبادته في الخلوة ليحسنها في الملأ، فلا يكون فرق بينهما في التفاته فيهما إلى الخلق، إذ الإخلاص الواقعي أن تكون مشاهدة الخلق لعبادته كمشاهدة البهائم لها، من دون تفاوت أصلا، فكأن نفسه لا تسمع بإساءة العبادة بين أظهر الناس، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول باستواء عبادته في الخلوة والملأ، وليس كما ظنه، إذ زوال ذلك موقوف على عدم التفاته إلى الخلق في الملأ والخلوة كما لا يلتفت إلى الجمادات فيهما مع أنه مشغول الهم بالخلق فيهما جميعا. وأخفاها أن يقول له الشيطان – وهو في العبادة في الملأ بعد يأسه عن المكائد السابقة –:
" أنت واقف بين يدي الله سبحانه، فتفكر في جلاله وعظمته، واستحى من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه! فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ".
وهذا أخفى مكائد الشيطان وخداعه، ولو كانت هذه الخطرة ناشئة عن الإخلاص لما انفكت عنه في الخلوة ولم يخص خطورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير سببا لحضوره، كما لا يكون حضور بهيمة سببا له، فما دام العبد يفرق في أحواله وأعماله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة، فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشكر أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، كما ورد به الخبر ولا يسلم منه إلا من عصمه الله يخفي لطفه، إذ الشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله، لا يغفل عنهم لحظة ليحملهم على الرياء في كل واحد من أفعالهم وأعمالهم.

تتميم

الحق – كما أشير إليه – أن الشوب الممزوج بالاخلاص إن كان من المقاصد الصحيحة الراجحة شرعا، لم يبطل العمل والاخلاص ولم ينقص الأجر والثواب. إذ نية الخيرات المتعددة توجب تضاعف الثواب بحسبها

وإن كان من الأغراض الدنيوية الراجعة إلى حب جاه أو طمع مال فهو مبطل للعمل والثواب، سواء كان الباعث الديني أضعف من الباعث النفسي أو مساويا له أو أقوى منه، لظواهر الأخبار المتقدمة. ومع إبطاله العمل، يترتب عليه عقاب على حدة أيضا، إذ الرياء في العبادة في نفسه منهي عنه محرم، سواء كان هو الباعث وحده أو انضم إلى نية التقرب انضماما مستقلا أو غير مستقل، فمن ارتكبه كان آثما لأجل الرياء في نفسه وتاركا للعبادة من حيث دخول الرياء فيها، فإن كانت واجبة ترتب إثم آخر على تركها إلا أن يسقطه بقضائها، وإن كانت مستحبة لم يلزم قضاؤها ولم يترتب إثم على تركها، بل كان إثمها منحصرا بما يترتب على الرياء في نفسه. ثم الإثم المترتب على الرياء المحض أشد وأغلظ من المترتب على الرياء الممزوج بالقربة ويتزايد إثم الممزوج بحسب ازدياد قوة باعث الرياء بالنظر إلى باعث الإخلاص وينقص بحسب نقصان ذلك.

وعلى ما ذكرناه، فما انعقد عليه إجماع الأئمة من أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، مع أن سفره ليس خالصا للحج، فالوجه فيه أن التجارة تعرض للرزق، وهو أيضا عبادة. وقد تقدم أن نية الخيرات المتعددة موجبة لتضاعف الثواب بحسبها، فلا حاجة إلى ما قيل: " إن التاجر إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة، ولا ثواب فيه مهما قصد تجارة "، ولا إلى ما قيل: " مهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك نفس السفر عن الثواب ". نعم، إذا كانت التجارة للجمع والادخار من غير حاجة، فلا يبعد أن يقال ذلك، وكذا إذا انضم إلى قصد الحج قصد التفرج ودفع التوحش عن الأهل انضماما غير مستقل، ومثله إذا انضم إلى نية الوضوء التبرد، وإلى نية الصوم قصد الحمية، وإلى نية العتق الخلاص من المؤنة وسوء الخلق، إلى غير ذلك، إذا لم تكن المنضمات مستقلة.

ومن العلماء من قال: " إن الباعثين إن تساويا تساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى لم يكن العمل نافعا، بل كان

مضرا وموجبا للعقاب، وإن كان عقابه أخف من عقاب الذي تجرد للرياء وإن كان باعث التقرب أقوى فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، لقوله تعالى: " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (٥٢).
وقوله تعالى: " إن الله لا يظلم مثال ذرة " (٥٣).
فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان قصد التقرب غالبا على الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شئ من عقوبة القصد الفاسد والسر: أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وقوة هذا المهلك بالعمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وقوته بالعمل على وفقه، فإذا اجتمعت الصفات في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء قويت تلك الصفة، وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضا تلك الصفة، وأحدهما مهلك والآخر منج. فإن كانت تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوما، وإن كان أحدهما غالبا زاد تأثيره بقدر الفاضل من قوته، كما في تأثير الأدوية والأغذية المتضادة " إنتهى (٥٥).
وفيه: أن إطلاق الظواهر يفيد كون شوب الرياء محبطا للعمل والثواب وقد تقدم بعضها. ومنها ما روي: " أن رجلا سأل النبي (ص): عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيجب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل قوله تعالى:
" فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " (٥٦).

____

(٥٢) الزلزال الآية: ٧، ٨
(٥٤) النساء الآية: ٤٠
(٥٥) أبو حامد الغزالي: " إحياء العلوم ": ٤ / ٣٢٨ ونقله المؤلف باختصار وتصرف قليلين.
(٥٦) هذه مروية في " البحار ": مج ١٥، ٣ / ٥٩، باب ذم السمعة والاعترار بمدح الناس، عن عدة الداعي بمضمون يقارب ما هنا ونصه عن سعيد بن جبير قال: " جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وآله - فقال: إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله فيذكر عني وأحمد عليه، فأسر في ذلك وأعجب به. فسكت رسول الله (ص) ولم يقل شيئا، فنزل قوله تعالى إنما أنا بشر.. الآية ".

ولا ريب في أنه قصد الحمد والأجر جميعا، ومع ذلك نزلت في حقه هذه الآية.
ومنها ما روي: " أن أعرابيا أتاه (ص) وقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله! فقال (ص): من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ".
وحملها على صورة تساوي القصدين أو غلبة قصد الرياء خلاف الظاهر. وما ذكره من أن لكل قصد وفعل تأثيرا خاصا على حدة، ففيه أن ذلك إذا لم يبطله ضده. ونحن نقول: إن مقتضى الأخبار كصريح العقل يدل على أن قصد الرياء يبطل قصد القربة إذا تواردا على فعل واحد، فلا يبقى لقصد التقرب تأثير حتى يتصف بالزيادة على تأثير قصد الرياء.
ومنها:
النفاق
وهو مخالفة السر والعلن، سواء كان في الإيمان أو في الطاعات أو في المعاشرات مع الناس، وسواء قصد به طلب الجاه والمال أم لا. وعلى هذا فهو أعم من الرياء مطلقا، وإن خص بمخالفة القلب واللسان أو بمخالفة الظاهر والباطن في معاملة الناس ومصاحبتهم، فبينهما عموم وخصوص من وجه وعلى التقادير، إن كان باعثه الجبن فهو من رذائل قوة الغضب من جانب التفريط، وإن كان باعثه طلب الجاه فهو من رذائلها من جانب الإفراط وإن كان منشأ تحصيل مال أو منكح فهو من رداءة قوة الشهوة. ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة، وقد تعاضدت الآيات والأخبار على ذمه.
وأشد أنواع النفاق - بعد كفر النفاق - كون الرجل ذا وجهين ولسانين، بأن يمدح أخاه المسلم في حضوره ويظهر له المحبة والنصيحة، ويذمه في غيبته ويؤذيه بالسب والسعاية إلى الظالمين وهتك عرضه وإتلاف ماله وغير ذلك، وبأن يتردد بين متعاديين ويتكلم لكل واحد بكلام يوافقه، ويحسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه ويمدحه (٥٧) على ذلك، أو يعد كل واحد منهما أنه ينصره، أو ينقل كلام كل واحد إلى الآخر. وهذا

---

(٥٧) وفي النسخ " أثناه " بدل (يمدحه)، ولم نر لها وجها.

شر من النميمة التي هي النقل من أحد الجانبين. وبالجملة: هو بجميع أقسامه مذموم محرم، قال رسول الله (ص): " من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة ". وقال (ص): " تجدون من شر عبد الله يوم القيامة ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ". وقال (ص): " يجيئ يوم القيامة ذو الوجهين دالعا لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان نارا حتى يلتهبان خده، ثم يقال: هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين، يعرف بذلك يوم القيامة ". وورد في التوراة: " بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين، يهلك الله يوم القيامة كل شفتين مختلفتين " وعن علي بن سباط، عن عبد الرحمن بن حماد، رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى: " يا عيسى، ليكن لسانك في السر والعلانية لسانا واحد، وكذلك قلبك، إني أحذرك نفسك، وكفى بي خبيرا! لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الأذهان! ". وقال الباقر (ع): " لبئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهدا ويأكله غائبا، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله ".

ثم لا يخفى أن الدخول على المتعاديين والمجاملة مع كل منهما قولا وفعلا لا يوجب كونه منافقا ولا ذا لسانين إذا كان صادقا، إذ الواحد قد يصادق متعاديين، ولكن صداقة ضعيفة، إذ الصداقة التامة تقتضي معاداة الأعداء وكذا من ابتلى بذي شر يخاف شره، يجوز أن يجامله ويتقيه ويظهر له في حضوره من المدح والمحبة ما لم يعتقد به قلبه، وهو معنى المداراة، وهو وإن كان نفاقا إلا أنه جائز شرعا للعذر، قال الله سبحانه:

" ادفع بالتي هي أحسن السيئة " (٥٨).

وروي: " أنه استأذن رجل على رسول الله (ص) فقال: إئذنوا له فبئس رجل العشيرة. فلما دخل، ألان له القول، حتى ظن أن له عنده منزلة. فلما خرج، قيل له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول؟!

---

(٥٨) المؤمنون، الآية: ٩٦.

فقال: إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من أكرمه الناس اتقاء لشره ". ويدل على جواز ذلك جميع أخبار التقية وأخبار المداراة. وفي خبر: " ما وقي المرء به عرضه فهو له صدقة ". وقال بعض الصحابة: " كنا نبشر في وجوه أقوام نلعنهم بقلوبنا " ثم جواز ذلك إنما إذا اضطر إلى الدخول على ذي الشر ومدحه مظنة الضرر، أما لو كان مستغنيا عن الدخول والثناء أو عن أحدهما، ومع ذلك أبدى بلسانه ما ليس في قلبه من المدح، فهو نفلق محرم.

ثم ضد النفاق استواء السر والعلانية، أو كون الباطن خيرا من الظاهر، وهو من شرائف الصفات، وكان الاتصاف به والاجتناب من النفاق أهم مقاصد المؤمنين من الصدر الأول. ومن تأمل في ما ورد في ذم النفاق وفي مدح موافقة الباطن مع الظاهر، وتقدم الروية في كل قول وفعل لم يصعب عليه أن يحافظ نفسه من رذيلة النفاق.

إنتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث وأوله (ومنها: الغرور)